

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : 92.709
رقم التسجيل : ١٤٩٨٧

الدكتور
أحمد محمد الكحولي
 أستاذ بكلية الآداب والعلوم - جامعة القاهرة
 ورئيس جمعية النشر العربي

مكتبة
 الجمعية
 القاهرة

تجارب ثقافية

بين العرب والفرنس

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
 مكتبة الاسكندرية

الطبعة الثالثة

مقحمة ومزودة

General Council (1990)

دار تحف مصر للطبع والنشر
 النجيلة - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إذا كان العالم المعاصر يتصل ببعضه ببعض اتصالاً يختلف في القوة والضعف ، ويتباين في السلام والحرب ، وفي المودة والعداء ، ويتفاوت في التأثير والتأثر ، فقد كان العالم القديم شبيهاً في هذا بالعالم الحديث ، على ما بين العالمين من فروق في وسائل الاتصال ، وطبيعتها ، وسرعتها ، وقوتها ، وما ينجم عنها من تبادل التأثير والتأثر .

والحق أن التاريخ في هذا يعيد نفسه ، فالعزلة المطلقة ضرب من المحال بين الشعوب التي تتجاور في الموقع ، أو تتقارب في المكان ، فتشترك مصالحها ، وتتفق أو تختلف سياستها ، وتقوم علائقها على السلم تارة ، وعلى الحرب تارة ، وتتبادل العطاء فيأخذ بعضها من بعض ، ويعطي بعضها بعضاً .

وليس من شك في أن اتصال أمة بأمة يعقب آثاراً شتى في النظم ، والعادات ، والعقائد ، واللغة ، والثقافة ، تظهر معالمها في الضعيف المحاكى أكثر مما تظهر في القوي الذي يحاكي ، إذ كان الناس وما زالوا مولعين بمحاكاة من يرونه أعلى منهم حضارة ، وأوسع ثقافة ، وأعظم معرفة ، سواء أكان الغلب السياسي له أم لم .

وهذه دراسة لصلات العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ،

ولما أثمرته من تبادل في النظم السياسية والاجتماع والعقائد والعادات ،
وما نجم عن هذا كله في اللغة والأدب والثقافة .

ولقد قصدت إلى تقسيم الدراسة قسمين : القسم الأول خاص بالعصر
الجاهلي ، والقسم الثاني مقصور على فترات من الإسلام ، لأن لكل من
الزمنين وسائل اتصال وضروب تأثير وتأثر ، ولأن العرب والفرس كانوا
في الإسلام أقوى صلات وأكثر علاقات ، فكان تأثير الفرس في العرب
حيثما أوسع وأعمق مما كان في الجاهلية ، وكانت آثار العرب في
الفرس لا تنقل عما نقلوه من الفرس إن لم تزد عليه شمولاً وعمقاً وسعة
وتبالة وخيراً .

ولست أدعى هذه الدراسة أنها استيعاب أو استقصاء ، فإنها لا تتجاوز
شق الطريق ، ونصب المعالم ، والتمهيد للرواد ، فما زال كثير من
الموضوعات جديراً بأن يُفرد ببحث مفصل مستقل ، لعله يكشف عن
جديد ، ولعله يغير بعض مارسخ في الأذهان من أوهام وأغاليط كادت
لكثرة ترديدها تصل إلى مرتبة الحقائق التي ينقلها لاحق عن سابق .

وآمل أن تظهر دراسات مشابهة تتناول صلات العرب بغير الفرس
من الأمم التي عاصرتهم فأعطتهم وأخذت منهم ، كالروم والحيش
والهنود ، فإن علائق العرب هؤلاء كعلائقهم بالفرس تمتد جنوبها إلى
ما قبل الإسلام ، ثم نعلو سوقها وتتفرع أغصانها بعد الإسلام ،

أحمد محمد الحوفي

الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م

الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

الباب الأول

في بعض أحوال أهل

الفصل الأول

عوامل الاتصال

أولاً - قبل إمارة الحيرة

١- يُحَدِّثُ التاريخُ بصلةً قديمةً جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسس إمارة الحيرة بقرون ، يُحَدِّثُ أن العرب أدوا الجزية للملك قورش بخوراً ولباناً في كل عام (٥٥٠ ق . م) إذ استولى الفرس على أكثر الهلال الخصيب ، واتصلوا بالعرب ، واحتكوا بهم احتكاكاً مباشراً .

٢- ثم استعان قمييز بالعرب في غزو مصر (٥٢٥ ق . م) فملوه بالابل ، وزودوا قواته بالماء ، وساعدوه مساعدةً كبيرةً ، لولاها ما استطاع أن يصل إلى مصر .

وبعد ذلك بثلاث قرن ساعدوا الفرس في حملتهم على اليونان

(٤٩٢ ق . م) (١)

(١) العرب قبل الإسلام بحريي زيدان ١٠١ نقلاً عن هيرودوت . وتاريخ العرب ٥٠

ليليب حتى .

٣- وقد ذكر الكاتب اليوناني كينوفند (٤٠١ ق . م) أن كُورة
في شرق الفرات كانت تسمى (العربية) (١) .

على أن البلاد الواقعة شرق الفرات أسفل مصب نهر الخابور كانت
تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة (٤٠١ ق . م) (٢) .

٤- وفي أوائل القرن الثالث بعد الميلاد تنازعت إِياد ومضر بعد
انتصارهما على جرهم وإجلاتها عن مكة ، فهزمت إِياد ، وهاجرت إلى
العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ ، على أنها استوطنت أجزاء
متفرقة من جنوبي الحيرة (٣) ، منها سِنْدَاد - نهر فيما بين الحيرة إلى
الأبلة - وكانوا ذوى منعة ، لا يعطون الإتاوة أحداً من الملوك ، وقد
أغاروا على بلاد الفرس مرتين وانتصروا (٤) .

٥- وكان على شاطئ الفرات حصن عظيم كالمدينة ، هو الذي
ذكره عَنِيُّ بن زيد في قوله :

أبها الشامت المعير باللحم سر أنت المبرأ الموفور ؟
من رأيت النسوان تخلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأضفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دج ثجبي إليه والخابور
شاده مرمرا وخطله كلساً فللطير في ذراه وكور

(١) مجلة المجمع القوي ٣/ ٣٢١ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارنولد .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ١٦٧ .

(٤) شرح الفصائل المشر للبريزي ٢٧٣ .

لم يَهَبْه زَيْبُ الْمَنُونِ فَبَانَ إِلَى حَتَّىٰ
سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثُرَتْ مَسَائِمُهُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضٌ وَالسُّلَيْبُ
فَارْحَوَىٰ قَلْبَهُ وَقَالَ : وَمَا غِيْبُهُ ؟
وَذَكَرَهُ أَبُو دَوَادِ الْإِيَادِي فِي قَوْلِهِ :

وَأَرَى الْمَوْتَ قَدْ تَدَلَّىٰ مِنَ الْحَضِّ رَاحِلِي أَهْلَهُ السَّاطِرُونَ
صَرَعَتْهُ الْأَيَّامُ مِنْ بَعْدِ مُلْكِكَ وَنَعِيمِ وَجُوهِهِ مَكْنُونِ (١)

كان مالك هذا الحصن أو هذه المدينة ومالك أرض الجزيرة هو
الساطرون ، والعرب تسميه الضيَّيرن ، وكان من قبائل قُضاعة وبنى
عبيد بن الأجرم عدد كبير استعان بهم في بسط نفوذه حتى بلغ الشام .
ثم إنه أغار على بعض سواد العراق في عهد سابور الأول بن أردشير
(٢٤١ - ٢٧٢ م) (٢) ، وافتخر عمرو بن إلهة القضاعي بهذه الإغارة في
قوله :

لَقِينَاهُمْ بِجَمْعٍ مِنْ عِلَافٍ وَبِالْخَيْلِ الصَّلَادِمَةَ الذُّكُورِ
فَلَاقَتْ فَارِسٌ مِنْ نَكَالِهَا وَقَتَلْنَا هَرَابِيْدَ شَهْرٍ زُورِ
دَلَّفْنَا لِلْأَعَاجِمِ مِنْ بَعِيدِ بِجَمْعِ الْجَزِيرَةِ كَالسَّمِيرِ (٣)

وقد شخص سابور إلى حصن الضيَّيرن فحاصره عامين ، وإلى هذا
يشير الأعشى بقوله :

(١) سيرة ابن هشام ٨٦/١ .
(٢) تاريخ الطبري ٦٢/٢ وابن خلدون ٢٤٩/٢ .
(٣) تاريخ الطبري ٦٢/٢ والأغانى ١٤١/٢ ، المراهنة ، جمع هربد وهو خادم تار
المجوس . شهر زور : مدينة فارسية . علاف : حلاف بن حلوان من قضاة تنسب إليه الخيل
الملافة . الصلادمة : القوة الشديدة المفرد سلم على وزن زبرج .

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمى ، وهل خالد من نعم ؟
أقام به شامبور الجنو د حولين يضرب فيه القدم
فما زاده ربه قوة ومثل محاوره لم يقم
فلما رأى ربه فعله أتاه طروقا فلم ينتقم
وكان دعا قومه دعوة هلسوا إلى أمركم قد صرم
فموتوا كراما بأسيا فكم أرى الموت يجشمه من جشم (١) :

ثم فتح سابور الحصن ، وقتل الضيزن ، ونكل بمن كانوا معه من
قضاة ، فقال عمرو بن لثة ، وكان فيمن شاهدوا المعركة :

ألم يحزنك والآباء تنمى بما لاقت سراة بنى العبيد
ومصرع ضيزن وبنى أبيه وأحلاس السكتائب من تزد
أنهم بالقيول مجللات وبالأيطال سابور الجنود
فهدم من أواسى الحضر صحرا كأن ثفاله زبر الحديد (٢)

ولقد فسح الإخباريون لخيالهم المجال ، فزعموا أن ابنة الضيزن
عشقت سابور وعشقها ، وأنها هى التى دلته على حيلة لتقويض الحصن ،
ثم غدر بها (٣) :

٦- ثم انتهز العرب صفر سن سابور الثالى (٣٠٩ - ٣٧٩ م) فأغاروا
على أطراف مملكته ، كما طمع فيها الترك والروم ، وكان العرب أقرب

(١) تاريخ الطبرى ٦١/٢ وسيرة ابن هشام ٧٨/١ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ وديوان الأحنى
٤٢ . شامبور الجنود : سابور الأول وكان يسمى لسكثرة جنوده شامبور الجنود
(٢) الطبرى ٦٢/٢ والأغاني ١٤٢/٢ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ ونسب الشعر فى بلدى
ابن النخاس . زبر الحديد : قلعه .
(٣) الطبرى ٦٣/٢ وسروج الذهب ٢٩٦/١ والأخبار الطوال للعتوبى : ٥٥ وسيرة
ابن هشام ٧٧٠١ .

إلى فارس ، وأحوج إلى تناول شيء من خيرات الفرس ، لسوء حالهم ،
وشظف عيشتهم ، فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية بلاد
عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى تخوم فارس ، وغلبوا أهلها على
مواشيهم وحروثهم ، وأكثروا الفساد في تلك البلاد ، واطمأنوا هنالك
مدة لأبجليلهم أحد من الفرس .

فلما كبر سابور انتخب ألف فارس من صناديد جنده وأبطالهم
وسار بهم ، فأوقع بهؤلاء العرب ، وقتلهم تقتيلا ، وأسرههم أسرا عنيفا ،
ولم ينج منه إلا من هربوا .

ويقال إنه لم يكتف بذلك ، بل اجتاز البحر إلى بلاد العرب ،
فورد الخط والبحرين وقتل أهلها ، ثم ورد هجر فأروى الأرض بدماء
من هنالك من تميم وبكر وعبد القيس ، حتى كان الهارب منهم يرى أنه
لن ينجيه غار في جبل ولا جزيرة في بحر ، ثم عطف على بلاد
عبد القيس ، فأباد أهلها ، إلا من هرب ، ثم أتى اليمامة فأسرف في
التقتيل .

وهو في أثناء ذلك لم يمر بماء من مياه العرب إلا غوره ، ولا بشر
إلا طمسها .

ثم اقترب من يثرب فقتل وأسر .

وعرج على بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة فارس والروم بالشام
فقتل وسبي وانتقم .

ثم أسكن الأسرى من العرب من بكر بن وائل كرمان ، ومن بني
حنظلة الأهواز ، وأسكن عددا عظيما من أسرى العرب إقليم توج ،
وكانت حملاته هذه نحو سنة ٣٥٠ م .

وعاش سابور حياته نهماً إلى قتل العرب ، وتَنَزَّحَ اكشاف رؤسائهم ، ولهذا سماه العرب ذا الأَكشاف (١) .

ولقد ثَارَ العرب منه فيما بعد بانضمامهم إلى خصمه يوليان ملك الروم في الحرب التي قامت بينهما (٣٦١ - ٣٦٣ م) حتى قالوا إن العرب كانوا في جيشه مئة وسبعين ألفاً (٢) .

٧- وكأنا يأتى هذا العناء المستحکم إلا أن يغزو البحرين أردشير الثالثى (٣٧٩ - ٣٨٥ م) ، فألقى ملك البحرين بنفسه في البحر (٣) .

ومن هذا نرى أن الفرص قد تعددت لأن يحثك العرب بالفرس من قديم ، وأن يخالطوهم ، ويساكنوهم ، ويحاربوهم ، قبل أن تؤسس إمارة الحيرة .

(١) تاريخ الطبرى ٦٩/٢-٦٩-٦٨/٣ و مروج الذهب ١٢٢/١-١٢٤ وتاريخ ابن خلدون ١٦٩/٢ ودائرة المعارف مادة بكر .
(٢) الطبرى ٦٨/٣ وسأوتر رسم مئة حل هذه الصورة .
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٦٩/٢ .

ثانياً - إمارة الحيرة

رأى الفرس أن الوسيلة المثلى للاطمئنان على الأمن في هذا الجانب من ملكتهم أن يساعنوا القبائل العربية النازلة على مقربة من حدودهم على تأسيس إمارة تقيهم غزوات العرب ، وتَحجز بين حدود الفرس وحدود الروم ، فكانت إمارة الحيرة .

١ - والحيرة مدينة قديمة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على بحيرة النجف ، وعن كتب من البادية .

ويظهر أن كلمة الحيرة سريانية (حِرْتَا) ومعناها المعسكر ، وقد ذكرت باسم (إرثا) على أنها مدينة فارسية في كتاب غلاوكوس (١) وفي كتاب سثفانوس البيزنطي (٢) .

وكانت المدينة من قصور مُحَصَّنة ، حول ميدان واسع لم تكن له وسائل دفاع ، ولم يكن حول المدينة سور يحميها أو حصن يقبها ، لهذا لما سار إليها خالد ابن الوليد ١٢ هـ (٦٣٣ م) ليفتحها تحصن أهلها بقصورهم ، فساق خالد قطعانهم وأغنامهم إلى زرعهم الذي لم يكونوا حصدوه ، فطلبوا المفاوضة على التسليم .

كان أهل الحيرة منذ القرن الثالث الميلادي ثلاثة أصناف :

سوخ وهم البدو النازلون غربي الفرات (٣) ، والعباد وهم السكان

(١) Eragmenta. p. 409.

(٢) Ethnica p. 276.

(٣) هؤلاء من العرب الذين اجتمعوا من البحرين وتحالفوا على التناصر ، فصاروا يدا واحدة

شمهم اسم تنوخ (الطري ١/٤٧٦ وابن الأثير ١/١٣٥ والأغانى ١١/١٥٥) .

الأصليون اللين سكنوا المدينة وبنوا فيها ، والأحلاف وهم النازلون بالحيرة من غير هؤلاء جميعا ، وسموا بذلك لتحالفهم مع العباد .
وهؤلاء السكان كلهم من العرب .

٢- ليس من العلوم يقيناً متى بدأ تأسيس الإمارة ، أكان في عهد سابور الأول بن أردشير ملك الفرس (٢٤١ - ٢٧٢ م) إذ نصب على الحيرة عمرو بن عدى أم كان في عهد أبيه أردشير (٢٢٦ - ٢٤١ م) ؟
ويظهر أن الإمارة بدأت في عهد أردشير ، إذ تأسر على الحيرة مالك ابن قهم الأزدي ، ثم خلفه ابنه جديمة الأبرش ، ثم تولى بعد جديمة ابن أخته عمرو بن عدى (٢٦٨ - ٢٨٨ م) وهو أول الأمراء اللخمييين آل نصر ، وأول من بعده أهل الحيرة من ملوك العرب بالعراق ، ثم توالى بعده الأمراء من اللخمييين حتى دامت إمارتهم نحو أربعة قرون ، إلى أن افتتحها خالد بن الوليد سنة ١٦ هـ ٦٣٧ م (١) .

٣- كان أمراء الحيرة أو ملوكها يخضعون للفرس خضوعاً إسمياً وكان الفرس يعفونهم من الإتاوة ، لقاء حمايتهم للملوك من غير عليها وكفاء مساعدتهم لهم في حروبهم للروم .

على أنهم بلغوا من القوة أحيانا إلى حد المساواة بينهم وبين الفرس والروم ، فحاربوا الفرس حيناً ، وحاربوا الروم أحيانا منتصرين للفرس وموالين لهم .

ومن أعظم ملوكهم النعمان بن امرئ القيس بن عمرو المعروف

(١) الطبرى ٣٧/٢ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٧٦ ومروج الذهب ١/١٢٦ وتاريخ الإسلام السياسي ٤٨ الدكتور حسن إبراهيم .

بالنعمان الأعور (حوالي ٤٠٣ - ٤٣١ م) كانت عنده كتيبتان يقال لإحداهما دوسر وهي عربية ، ويقال للأخرى الشهباء ، وهي فارسية ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يخضع له من العرب (١) .

كذلك عظمت مكانة الحيرة في عهد المنذر الثالث الملقب بابن ماء السماء (حوالي ٥١٤ - ٥٥٤ م) وهو الذي رفض أن يعتنق المزدكية كما اعتنقها ملك الفرس قباد ، فعزله قباد ، وولى على الحيرة الحارث ابن عمرو أمير كندة ، فلما مات قباد خلفه ابنه كسرى أنوشروان ، فنسكل بالمزدكية وأتباعها ، وأعاد المنذر إلى إمارة الحيرة ، وكان هذا سبباً في حروب بينه وبين الحارث الكندي ، إلى أن قضى عليه وعلى بنيه

ويبدو أن رفض المنذر للمزدكية ، وانتصاره على الحارث الكندي ، وتخوف كثير من العرب أن يحكمهم الحبش الذين استولوا في ذلك الوقت على اليمن ، يبدو أن هذا دفع القبائل العربية في نجد وشرق الجزيرة إلى أن تعلن ولاعها للمنذر .

ثم زاد من مكانته أنه حارب الغساسنة والروم ، وانتصر عليهم مرات ، وكان من نتائج انتصاره أنه لما عقد الصلح بين الفرس والروم في عهد الإمبراطور جستنيان عام ٥٢٢ م كان من شروطه أن يدفع الروم لملك الفرس وللمنذر غرماً متساوياً من المال .

٤- كان آخر ملوك الحيرة الأقوياء النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٥ - ٦١٣ م أو ٦٠٢) وهو أبو قابوس ، وصاحب النابغة الذبياني ،

(١) الطبري ٧٣/٢ .

وقاتل عبید بن الأبرص وعلی بن زید فی إحدى الروایات ، وهو الذى مات فی حبس كسرى (٦١٣ م) .

وقد أقام كسرى إیاس بن قبیصة خلفا للنعمان على الحيرة ، ولم یكن من أهل بیت النعمان ، وأشرك معه فی الحكم رجلا فارسياً اسمه النخیرجان .

وكان من أثر هذا ضعف الحكومة العربية فی الحيرة ، ثم قیام حرب شى قار بین الفرس والعرب ، وكان إیاس بن قبیصة وأولیاؤه من العرب فی صف الفرس ، لكن العرب انتصروا على الفرس وعلى إیاس .

ثم انفرد ملك الحيرة آزاد بن یابیان الهمدانی سبعة عشر عاما ، وجاء بعده المنذر بن النعمان فلم یكث إلا ثمانية أشهر ، وهو الذى یسمیه العرب المغرور ، إذ قدم خالد بن الولید إلى الحيرة فافتتحها سنة ١٢ هـ ٦٣٣ م (١) بعد أن دامت أربع مئة سنة ، وهى مدة طويلة فی أعمار الدول .

٥- على أن الحيرة لم تكن حلقة اتصال بین العرب والفرس فحسب ، بل كانت الحيرة وماجاورها مجعما لأديان شتى فی الجاهلية ، یدل على ذلك أن المسلمین فتحوها وعلى شواطئ دجلة والفرات فرس یعتنون الزرادشتية ، ونصارى یدینون بالمسیحية ، وأناس یتبعون المانوية (٢) ، وأتباع لديانات قديمة وثنية ، بقيت منهم آخر طائفة وهم الصائفة بحرآن حتى القرون الوسطى (٣) .

(١) الطبرى ١٥٦/٢ - ١٥٧ .

(٢) دیانة نشأت من اتحاد دین زرادشت بالأفكار المسيحية والهندية .

(٣) الفهرست ١٧ والمضارة الإسلامية ٧٣ فون کریم و .

ثالثا - الفرس باليمن

لم يكن اتصال العرب بالفرس محصورا في نطاق الجوار والمخالطة والغزوات المتبادلة والصلة التجارية ، عن طريق الحيرة وحدها ، لأن التاريخ ينبئ عن صلات أخرى .

١- فقد قام أبو كرب أسعد الملقب بـ «تبع» (حوالي ٣٨٥ - ٤٢٠ م) مع ابنه حسن بهجوم على شمال الجزيرة (١) ، أملا في بسط سلطانه على بلاد العرب كلها ، ورغبة في دعم نفوذه التجاري على طرق القوافل العربية ، لهذا عين ابنه على يثرب ، وعين على كندة أحد أقاربه وهو حُجر آكل المرار ، ثم تقدم إلى الحيرة واستولى عليها ، ثم توغل في فارس نفسها حوالي ٤٢٠ م أو ٤٢٥ م .

٢- ولما تورطت اليمن في النزاع الناشب بين الفرس والروم (٥٠٦ - ٥٢٦ م) آزر الملك معد يكرب بيزنطة على فارس ، بمحاربتهم المنذر ملك الحيرة الموالي للفرس سنة ٥١٦ م .

لكن اليمن بعد ذلك انحازت إلى فارس ، لأن الروم حاولوا أن ينشروا المسيحية بها ، وخوفوهم بالحبس ، فاعتنق اليهودية ذو نواس

(١) كان امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة الموالي للفرس قد هجم على نجران ، وفي نقش الخنزة (٣٢٨ م) إشارة إلى حملته ، ولقب نفسه بفاتح نجران وملك العرب ، وكان الغرض من هذه الحملة السيطرة على القبائل العربية المقيمة بين الحيرة واليمن ، والسيطرة على طرق القوافل التجارية ، والقضاء على احتكار اليمن لهذه العارق. وتصدى لمقاومته أخوان هما الشرح يصعب وبازل باين ، وكانا قد اغتصبا الملك من شمر يهر عش ، واستعانا في مقاومتها بقبيلة كندة التي كانت قد هاجرت إلى شمال اليمن ، واستقرت هناك ، وظلت بعد هجرتها موالية للملك اليمن ، وشبه تابعه لهم .

وبعد هجوم امرئ القيس بنحو قرن زحف تبع على الشمال وحل الحيرة .

آخر ملوك التبايعه ، وعقد معاهدة مع المنذر الثالث ملك الحيرة وحليفه
الفرس

٣- فلما احتل الجيش بلاد اليمن سنة ٥٢٢م لجأ سيف بن ذي
بزن إلى الفرس ، ليستنجد بهم . وليس بين المؤرخين خلاف في هذا
الاستنجد ، فهم متفقون على أنه استنجد أولاً بقمصر ، فلم ينجده ،
ارغبته في أن تبقى اليمن خاضعة لأخلافه الجيش ، فتكون طريقاً إلى
متاجر الروم ، وليناوى النفوذ الفارسي والمتاجر الفارسية باليمن ، ولأن
الدين المسيحي مشترك بين بيزنطة والحبشة .

فأتجه سيف إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) فأنجده
بجيش خَلص اليمن من حكم الجيش ، وأخضعها لحماية الفرس (١).
ولقد ابتهج العرب بخلّاص اليمن ، فوفدت على سيف وفودهم
تهنئه بطردهم ، وسجّل أبو الصلت والد أمية هذا الابتهاج بقوله :

لا يطلبُ الشارَّ إلاَّ كابن ذي بزنٍ	في البحر خيّم للأعداء أهوالاً
أني هرقلٌ وقد شالت نعمته	فلم يجد عنده النصر الذي سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشره	من السنين يهين النفس والمسالا
حتى أتى ببسنى الأحرار يقدمهم	تخالهم فوق متن الأرض أجيالا
من مثل كسرى شهت شاه الملوك له	أومثل وهرز يوم الجيش إذصالا؟
لله درهم من فتية صبروا	ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا
بيض مرزبة غلب أساوره	أسد تريب في الغيصات أشبالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد	أضحى شريدهم في الأرض قلالا

فاشرب هنيئاً عليك التاج مُرتفعاً في رأس عُمدان داراً منك محاللاً
وأطل بالمسك إذ شالت نعامتهم وأسبل اليوم في برديك إسبالاً (١)
وبنو الأحرار الذين عناهم أمية في شعره هم الفرس الذين قدموا
مع سيف بن ذى يزن ، وبقى أبناؤهم إلى القرن الرابع الهجري يسمون
بني الأحرار بصنعاء ، ويسمون الأبناء باليمن ، والأحامرة بالكوفة ،
والأساورة بالبصرة ، والحضارمة بالجزيرة ، والجراجمة بالشام (٢).

ومن قصيدة لعدي بن زيد العبادي في الإشادة بالفرس اللين خلصوا
اليمن من الحبش قوله (٣) .

ما بعد صنعاء كان يعمرها ولاية مُلك جَزَلٍ مواهبها
محفوظةً بالجبال دون عرى ال كائد مائرتقى غواربها (٤)
يأنس فيها صوتُ النُهَامِ إذا جاوبها بالعشى قاصبها (٥)
سأقت إليه الأسبابُ جند بني ال أحرار فرسانها مواكبها

(١) سيرة ابن هشام ٦٩/١ والأغانى ٧٣/١٦ والمعارف لابن قتيبة ١٧٧ وطبقات
الشعراء ١٠٢ وأخبار مكة للأزرقي ٩٣/١ والطبرى ١٢٥/٢ وفي الأغانى أن الشعر لامية
لا لآبيه .

سأل : غطف سأل . مرازية : جمع مرزبان وأصل معناها وزير الفرس ، والمراد
أنهم ذور رأى ومكانة . غلب : جمع أغلب وهو القوى الشديد . أساورة : جمع أسوار بضم
الهمزة وكسرهما وهو قائد الفرس أو فارسهم أو مجيد الرمي بالنهام . تربب : تربي . القبيضات :
جمع غبيضة وهي المكان الملتف بالشجر ويكون مأوى للسياح . فلال : جمع قل وهو المهزوم .
عُمدان : قصر صجيب السنعة بين صنعاء وطبوة . شالت نعامتهم : هلكوا . أسبل : أربح
ثوبك مختلفاً .

(٢) الأغانى ٧٣/١٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ٧١/١ .

(٤) غواربها : أماليها .

(٥) النهام : اللاكر من اليوم . القاصب : الزامر في القصب .

- وَقَوَّزَتْ بِالْبِغْسَالِ تَوَسَّقَ بِالْـ حَتَفَ وَتَسَعَى بِهَا تَوَالِبُهَا (١)
 حَتَّى رَأَىهَا الْأَقْوَالَ مِنْ طَرَفِ الْـ مَنَقَلٌ مَخْضَرَةٌ كَتَائِبُهَا (٢)
 يَوْمَ يَنسَادُونَ آلَ بَرِّيْرٍ وَالـ يَكْسُومَ لَا يُفْلِحَنَّ هَارِبُهَا
 وَكَانَ يَوْمَ بَاقِيَ الْحَلِيْثِ وَزَا لَتِ إِمَّةٌ ثَابِتٌ مَرَاتِبُهَا (٣)
 وَبُدِّلَ الْقَيْجُ بِالزَّرَافَةِ وَالْأَيَّامُ جَوْنٌ جَسْمٌ عَجَائِبُهَا (٤)
 بَعْدَ بَنِي تَبِيْعٍ نَحَّاسُورَةٌ قَسِدٌ اِطْمَأْنَنَتْ بِهَا مَرَازِبُهَا (٥)
 وَلَكِنْ لِمَاذَا ابْتَهَجَ الْعَرَبُ بِالْمَخْلَاصِ مِنَ الْحَيْشِ إِلَى الْقُرْسِ ؟

لاشك أن اليمنيين والعرب عامة كانوا متورين من سوء الحكم الحيشي ، ومحاولة الحيش استعمار الحجاز ، وهدم البيت الحرام ، ثم لهم - وإن لم يكن استقلالهم تاما في عهد الحكم الفارسي - كان النفوذ لهم والسلطان ؛ لأن سيف بن ذي يزن كان يحكم اليمن ، ويدفع الجزية لكسرى في كل عام (٦) .

وما من شك في أن العرب كانوا يأنفون من أن يحكمهم الحيش ، وإنا لنتبين ذلك في قول سيف لكسرى : « أيها الملك ، غلبتنا على بلادنا الأخرية ، فجئتك لتنصرني عليهم ، وتخرجهم عنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم » (٧)

- (١) قَوَّزَتْ : قطعت المفازة وهي الصحراء . التوالب : جمع تولب وهو ولد الحمار وأطلقه هنا على ولد البعير .
 (٢) الْأَقْوَالَ : هم الملوك ومثله الأقيال . المقل : الأرض التي يكثر فيها النقل وهي الحجارة .
 (٣) الْإِمَّةُ بِكسْرِ الهمزة النعمة .
 (٤) الْقَيْجُ : الذي يسمى للسلطان بالسكتب على وجليه . الزرافة : الجع من الناس ، وهي أيضا حيوان معروف . جَوْنٌ : سود ، ويروي جَوْنٌ بِأَنهَاءِ جَمْعِ مَخَانَةِ .
 (٥) بَنِي تَبِيْعٍ : اليمن . النَّحَّاسُورَةُ : القوم الكرام المقرد نخوار . المرازبة : جمع مرزبان وهو الوزير والقائد .
 (٦) الطبري ١١٧/٢ .
 (٧) الطبري ١١٦/٢ .

فهو يعبر عنهم بالغربان ، ويؤثر أن يحكمهم الفرس على أن يحكمهم هؤلاء الغربان .

ونتبينه في قول أبي الصلت في قصيدته السابقة (أرسلت أسدا على سود الكلاب) ، وهو يعنى بالأسد الفرس ، ويعنى بالكلاب السود الحبش .

وقد نكل سيف بن ذى يزن بالحبش الباقين في بلاده ، ثم اختالوه ، فوثب إلى الحكم رجل من الحبشة ، فأخذ يقتل ويفسد ، فأرسل كسرى جيشاً يقوده وهريز ، وأمره أن يقتل كل من باليمن من الحبش ففعل ، وأمره كسرى على اليمن ، فكان يتولى حكمها ، ويعجى إلى كسرى ما لها .

ولما مات ولى كسرى ابنه المرزبان ، ثم مات فولى التينجان ابن المرزبان ، فمات هذا أيضا فعين كسرى خرا نخسره بن التينجان ، ثم عزله وولى بعده باذان ، ولم يزل باذان على اليمن ، حتى بعث الله النبي عليه الصلاة والسلام (١) .

(١) الطبرى ١٢٠/٢ - ١٢١ سيرة ابن هشام ٧٣/١ .

رابعاً - التجارة

منذ زمن قديم^١ اتصل العرب والفرس اتصالاً تجارياً ، كانت له عدة وسائل .

١ - فقد كان السبئيون حلقة اتصال بين الهند والحبشة وشرق إفريقيا وبين شمالي آسيا وشمالي إفريقية ، وكانت عمان الإقليم الشرقي لهذه المتاجر .

٢ - فلما ضعفت حمير - التي خلفت سبأ - انتقلت المكانة التجارية إلى مكة ، وعقدت مكة معاهدات تجارية مع الأمم المجاورة ، إذ أخذ بنو عبد مناف العِصمَ قريش ، وكانت إحدى هذه العصم أو المعاهدات معاهدة أخذها نوفل من ملك فارس ، فتردد العرب على العراق وعلى فارس ، وبهذه المعاهدات التي عقدها أبناء عبد مناف مع حكام الشام من روم وعرب ، ومع الفرس والحبش وحمير جبر الله قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيراً من الخيرات ، فسمى الأربعة الذين عقدوا المعاهدات المجبرين (١) .

٣ - على أن العرب كانوا منذ زمن قديم يقدمون على الفرس بتجارهم وسلمهم ، ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها (٢) وكانوا إذا أجلبوا قصلوا العراق وفارس فيشترون التمر والشعير ، ثم يعودون إلى بلادهم ، خوفاً من الدلة في سلطان دولة أعجمية (٣) .

(١) الطبري ٢/١٨٠ وجمع الأمثال ٢/٦٦ - والنوادر القالي ١٩٩ .

(٢) الطبري ١/٢٩١ .

(٣) ابن الأثير ٢/٢٢٨ .

٤ - والذي يتتبع طرق القوافل ومسالك المتاجر يجد بينها طريقا من مأرب إلى جَرَّة ، وجَرَّة مدينة على الخليج العربي - الفارسي - يرجح أنها أسست في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان سكانها أصحاب نشاط تجارى ، وهى ممتازة الموقع ، لأنها تواجه الهند ، وتقع داخل خليج البحرين بمأمن من الأمواج ، وعلى مقربة من واحات الحسا التي تعد مفتاحا لقلب الجزيرة العربية ، والراجح أن موضعها كان قريبا من العُقَيْر الحالية ، ومازال هذا الطريق مسلوكا إلى يومنا هذا .

ثم يجد طريقا آخر من جَرَّة إلى بَطْرَا ، إذ كانت بعض السلع تحمل في قوارب إلى الخليج ، ثم تحمل في الفرات ، ثم ترسل إلى الشام برا عن طريق تدمر .

وهناك طريق ثالث من جَرَّة إلى الحسا واليمامة وغيرها من مناطق نجد (١) .

٥ - وكان الفرس يبعثون متاجرهم إلى أسواق العرب مثل عكاظ والمشقَّر ، وكذلك يبعثونها إلى اليمن وقلب الجزيرة العربية ، وإذا كانوا لا يستطيعون حمايتها استعانوا بعرب الحيرة على خضارة القوافل التجارية ولاسيا المتجهة إلى سوق عكاظ ، لقاء جعل يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل .

وكثيرا ما كان حماة القوافل يردون الجمل إن اعتدى أحد على القافلة وعجزوا عن حمايتها .

ولقد كان الاعتداء على القافلة يشعل حربا ، كما حدث في يوم

(١) الجغرافية التاريخية الإسلامية ١٢ محمد أحمد حسنة .

السَّلَان ، إذ قامت حرب بين النعمان الثالث - أبي قابوس - بن المنذر الرابع (٥٨٥ - ٦١٣ م) وبين بنى عامر بن صعصعة ، لأن بنى عامر احتفوا على قافلة كسرى أبرويز المتجهة إلى عكاظ ، فغضب النعمان ، واستنصر أخاه لأمه وبرة الكلبى ، وجمع بنى تميم ، والتقى الجيشان بالسَّلَان ، واقتتلا أحر قتال ، ثم انتصر العامريون على جيش النعمان (١) .

كذلك تحارب العرب والفرس في يوم الضففة ، لأن العرب احتلوا على قافلة كسرى المرسله إلى اليمن ، أو على قافلة أرسلها إلى كسرى بإذان عامله على اليمن ، واحتال كسرى وأعوانه من العرب على التنكيل بالمعتلين (٢) .

٦ - وقد تميزت مكة - كحالها الآن - بأنها سوق عالمية ، ترد إليها المتاجر من بلاد ومن أصقاع ندى ، حتى إن بعض مؤرخى الإفرنج يرجحون أنه كان بها بيوت رومانية تشرف على الشؤون التجارية للروم ، وكان فيها جيش يرعون مصالح قومهم التجارية (٣) . ويؤكد لامانس ماذكره الواقدى أن بعض الدول كبيزنطة وفارس كان لها ممثلون في مكة نفسها (٤) .

ومن هنا صارت مكة مركزا للصيرفة ، وسوقا للتبادل ، وتداول

(١) ابن الأثير ١/٢٣٤ .

(٢) قطري ٢/١٣٤ والأغاني ١٦/٧٥ والعقد الفريد ٣/١٥٤ .

(٣) فجر الإسلام ١٥ و Arabia Before Mohamed .

(٤) عصر ما قبل الإسلام ١٧١ بروك نافع .

الناس فيها دراهم الفرس البيغلية (١) ، وكان التجار يستطيعون أن يدفعوا فيها أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة ، ويستطيعون أن يؤمنوا على متاجرهم التي تجتاز طرقا محفوفة بالمخاطر ، طلالها يحض المستشرقين بندقية بلاد العرب .

(١) فتوح البلدان ٤٧١ - الدرهم البغل أو الطبري ٨ دراق والمغربي ٤ والبيغلي ٤ والإسلامي ٦ لأن عمر قال : انظروا الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلاما وأدنانها ، فسكان الدرهم البغل والدرهم الطبري ، فجمع بينهما فسكان مجموعها التي عشر دانقا ، فأخذ نصفها فسكان ستة . فسكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وكل عشرة مثاقيل أربعة عشرة درهما وسبعان . (الأحكام السلطانية للماوردي ١٤٧) .

والدرهم البيغلية نسبة إلى بغل وهو يهودي ضرب تلك الدراهم ، وكان يعرف برأس البغل (النفوس العربية ١/٢٢ لأب أنستاس الكرملي) .

خامسا — صلوات آخر

اتصل العرب بالفرس بوسائل أخرى ، كانت لها آثار ونتائج :

١ - فتد حكم الفرس البَحْرَيْنِ وَهَجَرَ ، وبقى حكمهم إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بعث إلى أتباع كسرى بهَجَرَ يدعوم إلى الإسلام ، فلما أبوا وضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل (١) .
وقد نقل الفرس إلى هَجَرَ طائفة من الفَعَلَة لبناء حصن المشَقَر ، ومعهم نساء من ناحية السواد والأهواز ، فتناكحوا وتوالدوا ، وصاروا أكثر السكان بمدينة هجر ، وتكلموا العربية ، وانتسبوا إلى عبد القيس .
فلما جاء الإسلام قالوا لعبد القيس : قد علمتم حدونا وصدتنا وعظيم غنائنا ، فأدخلونا فيكم ، وزوجونا ، فرفضت عبد القيس ، أنفة من أن تلحقهم بها ، فتفرقوا في العرب ، وبقيت في عبد القيس منهم بقية ، فانتسبت إلى عبد القيس ، ولم تردها عن هذا الانتهاء (٢) .

٢ - وكان الفرس يستخدمون بعض العرب في دواوينهم فكتب لَقِيْطُ ابْنُ يَمْعَرِ الْإِيَادِي لِكَسْرِي وترجم له (٣) . وكان عَدِيّ بن زيد من تراجمة كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) ثم خلفه ابنه في وظيفته ، وكان زيد والد عَدِيّ يقرأ العربية والفارسية (٤) .

٣ - على أن بعض العرب رحلوا إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث ابن كَلْدَةَ الثَّقَفِي ، رحل من الطائف إلى جُنْدِ يَسَابُور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب والعزف على العود ، ويدكرون أنه قابل كسرى أنو شروان ،

(١) المغازي للواقفي ٨٨٤٨٥ (٢) تاريخ الطبري ١٣٣/٢

(٣) الأغانى ١٠١/٢ ومعجم ما استعجم للبكري ٧٥/١ .

(٤) الأغانى ١٠١/٢ - ١٠٦

ودار بينهما حديث طويل . ومحاورة في الطب (١) .

كذلك رحل ابنه النَّضْرُ إلى الحيرة وإلى فارس ، فَاتَّقَنَ الفارسية ، وكلف بها ، وكان يقتنى بعض كتبها ويعاند الدعوة الإسلامية (٢) بها ، فإذا تحلق الناس حول النبي عليه الصلاة والسلام ليسمعوا منه ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أَحْسَنُ حديثاً من محمد ، فهلم إليّ ، فَأَنَا أَحَدُكُمْ أَحْسَنُ من حديثه ، ثم يحطهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنلياذ ، والنضر هذا هو الذي قال : سأُنزَلُ مثل ما أنزل الله ، وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « إِذَا تَتَلَوَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » (٣) ويرى بعض المفسرين أنه المقصود في الآية الكريمة « ومن الناس من يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » (٤) .

ورحل الأعشى الكبير إلى فارس وقيل إنه مدح كسرى ، وعرف كلمات فارسية كثيرة استخدم بعضها في شعره وقد سجل رحلاته في قوله (٥) :

وَطَوَّفْتُ للشعر آفَاقَهُ عَمَانَ وَحِمْصَ وَأُورُشَلِيمَ
أَتَيْتُ النجاشيَّ في أرضه وأرضَ النبييط وأرضَ العَجَمِ

وفي قوله :

قد سرت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترحالي وتسياري

ووقد عبد الله بن جُدعان على كسرى (٦) .

(١) عيون الأبياء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ - ١١٣ وأخبار الحكماء للقلبي

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢٠/١ وعيون الأبياء ١١٣/١

(٣) سورة القلم ١٥ . (٤) سورة لقمان ٦ .

(٥) معجم البلدان ١/٢ . والله يوان ٤١ ، ١٧٩ . (٦) الأغاني ٤/٨ .

الفصل الثاني

آثار الفرس في العرب

(١) أثر الديانة الفارسية في بعض العرب

من الطبيعي أن كانت للصلات التي أسلفناها آثار شتى في العرب ، تتناول ألوانا من الحياة ، لكن الذي يعنينا في هذه الدراسة هو الآثار التي تتصل باللغة والأدب والثقافة والعقائد اتصالا مباشرا ، أو اتصالا غير مباشر .

وقيل الحديث عن تأثير الفرس في عقائد بعض العرب لا بد من إلمامة موجزة بأصول دينهم الذي دائنوا به .

١- كان الفرس القدماء يعبدون (مئرا) إله الشمس ، و (أناهيتا) إله الخصب والأرض ، وآلهة أخرى .

قلما ظهر زرادشت (١) بدينه الجديد اعتبره قدماء الإيرانيين نبيا أوحى إليه (أهوار مازادا) وأمره أن يبلغ الناس رسالته .

أما الأصل الذي قامت عليه الزرادشتية فهو الاعتقاد بوجود قوة عالية هي قوة الخير والنور ، وتسمى (أهورا مازادا) أي النور العظيم ،

(١) يذكر ولد ديورانت أن العلماء مختلفون في موته بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد (قصة الحضارة للفارسية ٣٨) ويرجع برستد أنه ولد حوالي ٥٧٩ قبل الميلاد ، ويعلق الدكتور أحمد قنوي مترجم كتاب برستد بأن الباحثين قد اختلفوا إلى أنه عاش في القرن السادس . (انصار الحضارة ٢٥٩) ثم يذكر برستد في موضع آخر أن قورش (يخل ٦٢٥ قبل الميلاد) أقام في عاصمته التي أسماها مبداء الديانة الزرادشتية في الوقت الذي كان فيه زرادشت مازادا حيا (انصار الحضارة ٢٦٤) وهذا يثبت وجود زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد .

وبجانب هذه القوة سبعة من الملائكة يمثلون الفضائل السبع العليا ، وهي :
الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم .

وإذا كان الخير لا يتحقق إلا بمقاومة الشر وقهره فإن الزرادشتية
تفترض وجود شخصية شريرة تسمى (أهريمان) أي قوة الشر والظلام
يعاونها سبع من القوى الشيطانية الخبيثة المتمردة ، تمثل الرذائل
الإنسانية ، وهي : النفاق ، والخديعة ، والخيانة ، والجبن ، والبخل
وإزهاق الأرواح .

وبين قوى الخير وقوى الشر صراع دائم وحرب لا تنقطع ،
لأن كلا منها تريد السيطرة على الإنسان .

لهذا دعا زرادشت إلى مجاهدة قوى الشر وصراعها والتغلب عليها
تحت لواء من قوى الخير ، وبين لأتباعه أن التهاون في مؤامرة قوى
الخير إنما هو استسلام لقوى الشر ، فعلى من يختار طريق الخير أن
يخضع (لأهورا مزدا) إله النور الأعلى ، الذي لا أول لوجوده ،
ولا نقص يعترى ذاته ، خالق جميع الكائنات ، وعلى رأسها الإنسان .

وإذا كان (أهورا مزدا) قوة روحانية عالية منزهة عن أي نوع من
النقص ، لا يستطيع العقل أن يدرك حقيقتها ، ولا يستطيع الخيال أن
يتصورها رمز زرادشت إلى هذه القوة الغيبية العليا التي لا تدركها
الأبصار ، ولا تحيط بكنهها العقول ، برمزين حسين تستطيع للعقول
إدراكهما ، ويستطيع أتباعه أن يفكروا فيهما فيتصوروا صفات (أهورا
مزدا) على وجه التقريب .

هذان الرمزان هما الشمس والنار .

فالشمس تمثل بعض صفات أمورا مازدا ، لأنها كائن مشرق.
مضى فياض بالخيرات ، وهي قوة لا تُقاوم ، ولا تُقوى نزعات
الشر على الاقتراب منها والانتقاص من قدرها وطهرها .
والنار عنصر أزلي أبدي ، وقوة مطهرة مهلكة .

لهذا يبدو أن الزرادشتية لا تدعو إلى عبادة النار بل دعوى أنها
كائن حي ، وإنما تدعو إلى تقديسها وتقديس الشمس لأنها رمزان
عظيمان لأهورا مازدا .

وقد حمل زرادشت أتباعه واجب الاحتفاظ بالشعلة النارية
مضطرمة ، وكان يجول في البلاد ليقم معابد النار ، ثم أسخ المجوس
على نار المعبد قدسية عظيمة ، حتى كان كاهن النار يتلم عند اقترابه
منها ، خشية أن يصل نفسه إليها فيلوئها .

وكانت لزرادشت تعاليم خلقية ، منها أنه كان يحض على العمل
والجد ، ويعده أفضل وسيلة للتقرب إلى الخالق ونيل رضاه ، وطلما
حث أتباعه على استغلال الأرض والانتفاع بخيراتها ، وبين لهم أن
العمل والإنتاج وتسمير الأرض خير من صوم وصلاة في كسل
وخمول ، كذلك أمرهم باجتناب الكذب ، وبالوفاء بالعهد .

ولم يحل عام ٥٠٠ قبل الميلاد حتى كانت الزرادشتية هي الدين
الأول للإيرانيين ، إذ اعتنقها ملوك الفرس ، وناصرها ذارا الأولي
(٥٢٢ - ٤٨٦ ق . م) وجعلها الدين الرسمي للدولة (١) .

(١) قصة الأدب الفارسي ٣٠ حامد عبد القادر وقصة الحضارة الفارسية ٢٩ ول ديورانت.

لكن الناس انحرفوا فيما بعد عن الزرادشتية ، فعبدوا النار ، وعلوها من آلهتهم ، وسموها (آتز) وجعلوها ابناً للإله الأعظم إله النور والضياء ، وجعلوا يقدمون للشمس وللنار ولأهورامازدا قرابين من الأزهار والخبز والفاكهة والحيوان ، وأحياناً من البشر (١) .

٢ - ثم ظهر (ماني) بـ ٢٤٢ م في زمن سابور بن أردشير وادعى النبوة ، وصنعه خلق كثير ، هم الذين سُموا المانوية .
قام مذهب ماني على أن العالم يسيطر عليه النور منشأ الخير ، والظلام منشأ الشر ، فكل ماهو خير وجميل ونافع فالنور مصدره ، وكل ماهو شر وقبيح وضار فالظلام مصدره .

وقد فرض ماني على أتباعه عدة فروض ، منها الشك في الدين ، والتواني في العمل ، وتعلم العلل والسحر ، ومنها الامتناع عن الكلب والبخل والقتل والزنا والسرقه والكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم .

ولم يعجد ماني نبوة زرادشت وبوذا والمسيح .

ومن الموازنة بين الزرادشتية والمانوية يتبين أن الزرادشتية كانت تشجع على التناسل والتعمير والتثمير والإنتاج وفلح الأرض ، أما المانوية فكانت تدعو إلى الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل وإيثار العزلة والرهينة ، حتى يفضى العالم المادي ويعود النور إلى موطنه الأصيل ، وهذا هو معنى قول هُرْمُز بن سابور : إن ماني جاء ليدعو الناس إلى تدمير العالم (٢) .

(١) قصة الحفارة الفارسية ٤٧ و٤٨ ديورانت .

(٢) قصة الأدب الفارسي ٥٤ حامد عبد القادر .

هذا كانت الديانتان متعارضتين وإن تراءى بينهما بعض الشبه
الظاهرى ، فكان أتباع زرادشت يطلقون على المانوية كلمة ملاحدة .

٣ - ثم ظهر مَزْدَك في عهد قُبَاذَ والد كسرى أنوشروان (أوائل
القرن السادس) فوافق زرادشت في بعض مادعا إليه ، وزاد ونقص ،
لكنه حاول أن يفلسف مذهبه الهدام ، ويصبغه بصبغة فيها خير
للمجتمع ، فزعم أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر ما يبين
الناس من شحنا وبغضاء وسفك للدماء إنما سببه أمران : الأموال
والنساء ، ولا سبيل إلى السلام والمحبة إلا بالتسوية بين الناس في
الأموال والأملك والعبيد والإماء والنساء ، وبهذا أحل مزدك الشيوخ في
النساء وفي الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلأ .

ونجم عن ذلك كثرة أتباعه من السُّقَلَة والطَّغَام ، وصاروا عشرات
الألوف ، فعظم شأنه ، وتبعه الملك قُبَاذَ ، فاشتدت البلايا على الناس ،
وصار الرجل لا يعرف ولده ، والوالد لا يعرف أباه (١) .

ويتحدث نظام الملك في تفصيل عن المزدكية ، فيبين أن كبراء
الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم : وكذلك الشأن
في نسايتكم ، فهي كالأموال بينكم ، فمن يرغب في امرأة فليجتمع
بها ، فليس في ديننا غيرة ولا حمية ، وبهذا لاتحيا النساء بغير نصيب
من لفة الدنيا وشهواتها . ومن نظمه التي وضعها أنه لو دعا شخص
عشرين رجلا إلى داره فعليه أن يمدم بالطعام والطرب ، ويبيح لهم
مباشرة نساله ...

(١) الملل والنحل ٢٢٩/١ وصحح الأملى ٢٩٧/١٣ والكمال لابن الأثير ١/١٤٤
والأفانى ٦١/٨ والعلية والإشراق ٨٩ .

ثم يقول نظام الملك إن كسرى أنوشروان ألّب رجال الدين على مزدك وعلى الدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسرّ إلى كبار الدولة أن عقل أبيه قد اختل ، فاستمعوا إلى نصحه وخلعوا قباز ، ثم أعادوه بعد أن قتلوا مزدك وكثيرا من أتباعه (١) .

وربما كانت دعوة الشيوعية في فارس أقدم من مزدك هذا ، لأن الطبري يذكر أن مبتدع هذه الدعوة رجل منافق من أهل (قسا) يقال له زرادشت ابن خرکان ، وتابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بعد رجل يقال له مزْدَق (٢) ، وبهذا الرأي أخذ براون (٣) وكذلك ذكر ابن التميمي أن اثنين دعوا إلى هذا المذهب ، كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر في أيام قباز ، وقتله أنوشروان وقتك بأتباعه (٤) .

وأيما كان الأمر فقد قضى أنوشروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذبوع المذهب في الناس ، لكن الطائفة لم تنقرض ، بل بقي عدد منهم تعقبهم أنوشروان بعد استوائه على العرش (٥٣١ م) ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام ، فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التي ظهرت في الدولة الإسلامية .

وإذا فالسمة الغالبة على الفرس أنهم عبدة للنار وللشمس .

(١) سياسة نامه ٢٤ .

(٢) الطبري ٩١/٣ .

(٣)

(٤) الفهرست ٣٧٢ .

وكانت بيوت النار منبثة في العراق وفارس ، حتى ليصعب إحصاؤها ، وظل بعضها في جهات شتى من العراق وفارس إلى ما بعد الفتح الإسلامي بثلاثة قرون (١) .

ولقد كان لهذه العقيدة تأثير في العرب :

١ - فقد عرف بعضهم المجوسية ، ودان بها آخرون في بقاع شتى من الجزيرة ، فلما ظهر الإسلام دفعوا الجزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . منهم مجوس نجران (٢) ومجوس اليمن ، ومجوس هَجْر (٣) وعمان (٤) والبحرين (٥) ، وكان بالقَطِيف وبالزَّارَة وبالغابة ودارين مجوس أيضاً (٦) ، وكان بنميم مجوس منهم زُرارة بن عُدُس وابنه خاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سُود جد وكيع بن حسان ، وغيرهم (٧) ، وكان سَلْمان الفارسي مجوسياً ثم أسلم (٨) .

على أن بعض العرب ما زالوا على المجوسية إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد ذُكر له في خلافته قوم يعبدون النار ، ليسوا يهودا ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال : ما أرى ما أصنع بهم ، فقال عبد الرحمن بن

(١) مروج الذهب للمعدي ٢٦٨/١ و ٨٦/٤ والمسالك والممالك لابن حوقل ٨٩ ، ١٨٩ والمسالك والممالك للإسكندر ١٠٠ ، ١١٨ .

(٢) فتوح البلدان ٧٥

(٣) فتوح البلدان ٧٥ ، ٧٨ والحراج لأبي يوسف ٧٤ .

(٤) فتوح البلدان ٨٤ .

(٥) فتوح البلدان ٨٦ .

(٦) فتوح البلدان ٩٢ ، ٩٣ .

(٧) الكامل لابن الأثير ٢١٣/١ والمعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطلبات الأمم لسانه ٤٣

والاملاق النفسية لابن رسته ٢١٧/٧ .

(٨) أسد الغابة ٢٢٩/٣ .

عوف : أشهد أن رسول الله قال سنوا بهم سنة أهل الكتاب (١) .
لذلك لأصعب في أن تزوج كثير من العرب مجوسيات ، أفردهم
أبو الحسن المدائني كتابا سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية (٢)) .
والراجع أن هذا الزواج لم يكن في الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج
المجوسية ، إذ أن المجوس مصدقون بنبوّة زرادشت ، مكذبون بسائر
الأنبياء (٣) .

٢ - أما المزدكية فقد اعتنقها بعض العرب ، منهم ملك كندة
الحارث بن عمرو بن حُجر ، وكان معاصرا لقبادة بن فيروز نصير
المزدكية ، وكان قبادة قد دعا المنذر بن ماء السماء والى الحيرة إلى الدخول
معهم في المزدكية فأتى ، فدعا الحارث فلبى ، فولاه الحيرة مكانه ، فلما
تولى كسرى أنوشروان (٥٣١ م) عزل الحارث ، وأعاد المنذر (٤) .

٣ - وأما تقديس العرب للنار فقد تجلّى في مظاهر شتى ، فحلفوا
بها ، إذ كانت نار اليمن لها سدنة ، وسموها الهولة والمهولة ، وكان
سادنها إذا أتى برجل هيّبه الحلف بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت
لتنشيط وتنتفض ، فيهول على الحالف لينشكل إن كان مذنباً ،
وليجرؤ على الحلف إن كان بريئاً ، قال أوس ابن حَجَر :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهول حالف (٥)

(١) الخراج لأبي يوسف ٧٤ والرسالة ٤٣٠ للشافعي .

(٢) الفهرست لابن التميمي ١٠٢ .

(٣) الفصل للشهرستاني ١/١٦٣ .

(٤) الأغاني ١/٦١ و تاريخ الخلفاء ١/٢٩٩ .

Original Sources of the curan. p.p. 212-275.

(٥) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين للجاحظ ٧/٣ وأساس البلاغة مادة هـول

والحيوان للجاحظ ٤/٤٧١ .

(تيارات ثقافية)

وذكرها غيره من الشعراء كالأعشى (١) وأفتون التغلبي (٢) -
ثم ذكرها الكميت في العصر الإسلامي في قوله (٣) :
كَهْوَلَةٌ مَا أَوْقَدَ الْمُحَلِّفُونَ لَدَى الْحَافِلِينَ وَمَا هَوَّلُوا
وَمَنْ الْقَسَمَ بِهَا قَوْلَ الشَّاعِرِ :
حَلَفْتُ بِالْمَلْحِ وَالرَّمَادِ وَبِالنَّاسِ رِيبًا لِلَّهِ نُسَلِمُ الْحَلْقَةَ
حَتَّى يَظُلَّ الْجَوَادُ مُتَعَفِّرًا وَيَخْصِبَ النَّبْلُ غُرَّةَ الدَّرَقَةِ (٤)
وقول الأعشى (٥) .

حلفت بالملح والرماد وبالشعسرى وباللات نُسَلِمُ الحلقة
حتى يظلم الجوام مُتَعَفِّرًا وَيَقْرَعُ النَّبْلُ طُرَّةَ الدَّرَقَةِ
وأغلب الظن أن الشعر لشاعر واحد ، مع تغيير يسير في الرواية .
وكانوا يتحالفون على النار ، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم (٦)
وكانوا يستمطرون بها ، بأن يعقدوا في أذنان البقر السِّلَعِ والعُشْرَ -
نوعان من النبات - ثم يصعدوا بها في جبل وعر ، ويشعلوا فيها
النيران ، ويضجوا بالدعاء والتضرع (٧) . وفي شعر أمية بن أبي
الصلت تسجيل لهذا الاستمطار ، منه قوله :

(١) الأغانى ١٣٩/٢٠ .

(٢) المفضليات ٦٢/٢ .

(٣) البيان والتبيين ٨/٣ وأساس البلاغة مادة هول .

(٤) البيان والتبيين ٨/٣ الحلقة : يسكون اللام وفتحها جماعة القوم ، والقسم هنا معناه .

لا نسلم الحلقة . متعفر : ملق في الثراب . النبل : السهام . الدرة : ضرب من التروس من الجلود
جمعها درق . غرة : وجه .

(٥) الأغانى ١٣٩/٢٠ والبيتان ليسا بديوان الأعشى .

(٦) الحيوان للجاحظ ١٥٠/٤ وإيمان العرب للنجيرى الكاتب . مخطوط .

(٧) الحيوان ١٥٠/٤ .

سنة . أزيمة تخيل بالنسا
إذ يسقون بالدقيق وكانوا
ويسوقون باقر السهل للطور
عاقدين النيران في شكر الأذ
فاشتوت كلها فهاج عليهم
عراها الإله ترقم بالقطر
سلع ما ومثله عشر ما

٤ - وبعض العرب عبدوا الشمس ، يسجدون لها إذا أشرقت ،
وإذا توسطت السماء ، وإذا غربت ، من هؤلاء تميم (٢) ، وكثير من
حميم قبل أن يتهودوا ، وقد ذكر القرآن الكريم أن ملكة سبأ كانت
تعبد الشمس هي وقومها « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من
دون الله » (٣) .

وفي الشعر ما يدل على ذلك ، فقد سهاها عتبة بن الحارث
اليربوعي إلهة :

تروخنا من اللغباء عصرا وأعجلنا الإلهة أن توثوبا (٤)

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذفها إلى الشمس قائلا : أبديني

(١) ديوان أمية ٤٥ والحيدان ١٥٠/٤ تخيل بالناس : فزعهم . الغناء : جمع غفاعة ؛
أعظم الشجر أو الخبط أو كل ذات شوك . باقر : بقر . شكر الأذنان : جمع بكبير وهو
شعر الذيل . الصبير : الصحابة البيضاء أو الكثيفة . عائل : نافع وكاف . غالت : أهكت .

(٢) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧ بروكلمان .

(٣) سورة النمل ٢٤ .

(٤) لسان العرب مادة أوب . الغباء : اسم مكان . تروخنا : رجعتنا . أعجلنا : سبقنا

تجرب : تجرب .

بها سنا أحسن منها ، ولتجر في ظلها إياتك (١) وزعموا أنه إن فعل ذلك أمن على أسنانه العوج ، وإلى هذا يشير طرفة بقوله في وصف أسنان محبوبته :

سقته إياة الشمس إلا لثاته أسف . ولم تكدم عليه بإثمدا .
وقوله :

بدلته الشمس من منبته برذا أبيض فصقون الأشر (٣)

٥ - على أن العرب والفرس تشابهوا - في غير تآثر ولاتأثير - في بعض النظم المتصلة بالمرأة ، فقد كان الفرس يبيحون الجمع بين الأختين (٤) ، لأن الزرادشتية تبيحه (٥) .

وكان تعدد الزوجات مباحا ، أقرته شريعة زرادشت ، كما أباحت التسرى واتخاذ الحظايا والمخليات (٦) .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويغالون في تقديرهم ، ويعدونهم ثروة اقتصادية لأبائهم ، وعدة حربية للزكهم ، أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ، لأن الغرض من تربيتهن إعدادهن لرجل آخر يجنى فائدتهن ، ومما قاله الفرس إن الرجال لا يبتهلون إلى الله من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعد البنات خيرا يجوز منحه للبشر (٧) .

(١) ظلها : ماثا . إياتك : شعاعك .

(٢) ديوان طرفه ٢٥ ، إياة الشمس : شعاعها : لم تكدم عليه : لم تمس بأسناتها شيئا يذهب تحزيرها ، كناية عن النسبة . أسف بإثمدا : ذر عليه حجر الكحل .

(٣) الديوان ٦٥ الأشر : تحزير الأسنان .

(٤) صبح الأظى ٢٩٥/١٣ .

(٥) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد .

(٦) قصة الحضارة الفارسية ٥٨ . (٧) قصة الحضارة الفارسية ٦١ .

٦ - لكن العرب خالقوهم في نظم أخرى ، منها أن بعض الفرس الجلين دانوا بالزرداشتية كانوا يبيحون للرجل أن يتزوج بنته وأخته الشقيقة وغير الشقيقة (١) ، لأن الزرداشتية تبيح ذلك (٢) وكانت بعض الأمم القديمة تشبههم في هذا ، مثل الآشوريين والبطالسة والإسبرطيين والمصريين . وكان الحجاب شديدا على نساء الطبقة الراقية في فارس ، حتى كن لا يخرجن إلا في هودج مرخاة عليها السدوك ، وكان محظورا عليهن أن يخالطن الرجال في مجتمع عام أو خاص ، حتى لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آباءهن وإخوتهن ، أما الفقيرات فكان حرات في التنقل ، لأنهن مضطرات إلى العمل والكد (٣) .

أما العرب فقد حرّموا على أنفسهم أنواعا من القربيات ، وجاء الإسلام فأقر هذا التحريم .

كانوا لا يتزوجون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات (٤) . وذهب ابن عباس إلى أنهم كانوا يتجافون عما حرمه الله بعد ، إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين (٥) . وتباعد أهل مكة في مناكحهم عن البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة . ونفروا من المجوسية ، ثم نزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم (٦) .

ولم يكن العرب يمارسون ذلك التضييق في الحجاب ، أو ذلك

(١) الأسرة والمجتمع ٤٨ الدكتور حل عبد الواسد وصبح الأعشى ٢٩٥/١٣ . وقصة الحضارة ، الفارسية ٧٣ والنظم الاجتماعية والسياسة ٨٥ .
 (٢) ول ديوارنت ٥٩ وباركوك ٦٢ . (٣) ول ديوارنت ٦٠ .
 (٤) الملل والنحل وبلوغ الأرب المطار ٣١ والمختصر في أخبار البشر لابن القدا ٩٩/١ .
 (٥) تفسير الطبري ٤/٢١٧ - ٢١٩ وروح المعاني للآلومي ٤/٢٦١ .
 (٦) معجم البلدان ٨/١٣٧ .

«التغنت في عزل النساء عن المجتمع (١) .

على أن قلة من العرب كانوا يخلقون آباءهم على نسائهم ، بدليل قوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤهم من النساء إلا ما قد سلف (٢) » . والآية الكريمة تعني رجالا خلقوا آباءهم على أزواجهم (٣) ، وقد سجل ذلك عمرو بن معديكرب في قوله لزوجته التي خلف أباه عليها (٤) :

قلولا إحقوق وبني منها ملأت لها بدي شطب يميني
لصلصلة اللجام برأس طرفٍ أحب إلي من أن تنكحيني

ولما جاء الإسلام نسخ أربع زيجات من هذا كانت قائمة (٥) .

والدليل على أن الذين مارسوا ذلك كانوا قلة أن الإسلام لم يجد من هذا النوع غير هذه الزيجات ، وأن العرب كانوا يعتقدونه ، ويسمون المولود عليه المقتبى ، ومن ثم قال الله تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » كأنه قال هو فاحشة في دين الله بالغة في القبح ، قبيح ممقوت في المروءة (٦) ، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضيرون ، ويتهمونه بأنه يدين بالمجوسية ، قال أوس ابن حَجْر في هجاء بعض العرب :

(١) راجع المرأة في الشعر الجاهل والغزل في العصر الجاهل للمؤلف .

(٢) سورة النساء ٢٢ .

(٣) تفسير الطبري ٢١٧/٥ .

(٤) لسان العرب مادة نكح .

(٥) الإصابة ٥٤/٨ والمعارف ٢٧ و ٥٠ والأغاني ١٢٣/٣ و ١٧/١ والمثل والنحل

٢٣٢/٣ وأسد الغابة ١٣٨/٣ والروض الأنف ١٤٦/١ والتهذيب ٣٢٥ والكشاف ١٩٧/١

والميسوط ١٩٧/٤ ومعجم البلدان ١٣٧/٨ .

(٦) سورة النساء ٢٢ والكشاف ١٩٧/١ .

الفارسية فيكم غير مُنكرة فلكم لأبيه ضَيَّرْنَ سَلَفَ (١)

وقال المتلمس يهجو عمرو بن هند ملك الحيرة ويلصق به نقيصة مدعاة هي أنه يغازل أمه ويلاعبها ، على عادة الفرس :

ملكٌ يلاعب أمه وقطينها رغو المفاصل (...) كالمبرد (٢)

وقد بقيت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، لأن منظور بن زيان كان قد تزوج امرأة أبيه ، ولم تنزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما وقال منظور :

لعمرو أبي دينٌ يفسرُق بيننا وبينك قسراً إنه لعظم

وقد هجاه خُجْر بن معاوية بقوله :

لبس ماخلف الآباء بعدمُ في الأمهات عجانُ الكلب منظور
قد كنت تغمزها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمز معذور (٣)

وكان بعض العرب يجمعون بين الأختين ، ذكرهم أبو الحسن المدائني في مؤلفه (كتاب فيمن جمع بين أختين) (٤) . لكن أكثرهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ، ثم حرمه الإسلام (٥) . على أن أثرا منه بقي إلى عهد عمر ، فقد فرق بين أختين عند رجل من جذام حلف أنه لا يعلم أن الإسلام حرم الجمع بين الأختين (٦) .

(١) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ١٢٢/٢٧ والمناقب الكبير لابن قتبية ٢١/١

(٢) ديوان المتلمس ٦ مخطوط .

(٣) الأغاني ٥٣/١١ .

(٤) معجم الأدباء ١٣٢/١٤ والفهرست ١٠٢ .

(٥) الملل والنحل ٢٣١/٣ والمهجر ٣٢٨ وإنسان العيون ٤٤/١ وروح المعاني ٢٦١/٤ .

(٦) فتوح الشام للبصري ٢٣٧ .

وأما زواج البنات فلم يحدث بين العرب ، وليس لدينا إلا حادثة واحدة تنسب إلى حاجب بن زُرارة ، إذ قيل إنه تزوج ابنته دُخْتَنُوسَ ثم ندم (١) ، وقيل إن لقيط بن زُرارة هو الذي تزوج ابنته دُخْتَنُوسَ ، وهو الذي سماها بهذا الاسم الفارسي ، فلما قتل يوم شعب جبلة وهي في عصمته قال :

يأليت شعري عنك دُخْتَنُوسَ إذا أتانا الخبير المرموس
أتلطِّقُ القرون أم تميمٌ لا ، بل تميمٌ لها غروس (٢)

لكن هذا الاتهام في حاجة إلى نظر ، لأن كثيرا من الثقةا يخالفون ما ذكره ابن قتيبة أنها بنت حاجب ، ويوافقون ابن الأثير في أنها بنت لقيط ، ويرون أنها كانت زوجا لابن عمها عمرو ، ثم تزوجها بعده معد بن زُرارة ، أو عمير ابنه ، ولم يشيروا إلى زواج أبيها لقيط بها (٣) .

وإذا فلم تكن دُخْتَنُوسَ زوجة لأبيها سواء أكان حاجبا أم لقيطا ، ولم يتزوج عربي ابنته كما تزوج بعض الفرس بناتهم .

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ والأعلاق النفسية لابن رسته ٢١٧/٧ والزينة لأبي حاتم الرازي ٦٠٠ مخطوط والمعرب للجواليقي ١٤٢ شرح شاكبر .
(٢) إكمال لابن الأثير ٢١٣/١ .
(٣) الأغالي ٣٨/١٠ وتاج العروس ١٤٧/٤ وجميع الأشكال ١٣/٢ والشعر والشعراء ٢٧١

(٢) أثر الفرس في الحرب

كثيراً ما كان العرب والفرس يشتبكون في حرب ، إذ يغير العرب على حدود الفرس ، فيرد الفرس غارتهم ، وقد يتعقبونهم إلى أطراف الصحراء أو إلى أعماقها ، كما تبين في عوامل الاتصال .
وقد عرف العرب الكتائب الفارسية ، والأسلحة الفارسية ، فالنعمان المعروف بالأعور (٤٠٣ - ٤٣١ م) كانت له كتيبتان إحداهما عربية يقال لها دوسر ، والأخرى فارسية يقال لها الشهباء ، وكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يدين له من العرب (١) .
ونجد في شعر الحارث بن حلزة ذكراً لكتيبة فارسية في قوله
يعدد من انتصر قومه عليهم :

ثم حجراً أحنى ابن أم قطام . وله فارسية خضراء (٢)

ونجدهم ينسبون إلى الفرس نوحاً من الذروع ، وجاء في فخر عمر بن ابن امرئ القيس أنهم لا يرمون الأسود ، ولا يخشون الأعداء ، لأنهم أبطال يمشون في دروعهم الفارسية في زهو واعتداد كأنهم فحول من الإبل :

والله لا يتردمني كتيبتنا أسد عرين فقيها عرفت
إذا مشينا في الفارسية كما تمشي جمال مصاغب قطف

(١) تاريخ الطبري ٧٣/٢ .

(٢) شرح المثلقات المشر ٢٨٢ حجر : مطوف على الضمير في بيت سابق . كان خبيراً قد غزا امرأ القيس أبا المنذر من ماء السماء في جمع من كتلة كثير ، وكانت بكر بن زائل مسج امرئ القيس ، فخرجت زردته وغطت جنوده .

فارسية خضراء : كتيبة خضراء من كتلة سلاحها - والمراد بالخضرة السوداء .

عشى إلى الموت من حفاظنا . مشيا ذريعا وحكنا نَصَف (١) .
وجاء في شعر ذرِّيد بن الصَّمَّة أنه نصح أخاه عارضاً وأصحابه ،
وأندرهم أن يأخذوا حلزهم من أعدائهم المهاجمين في دروع فارسية :
نصحت لعارض وأصحاب عارض ورَهط بنى السوداء والقوم شُهدي
فقلت لهم : ظنوا بألفى منجج سرائهم في الفارسي المسرد (٢)
ولقد كانت هذه الحروب توحى إلى الشعراء والمخطباء بالافتخار
بالتصبر ، وبحفز الهمم ، وبعث العزائم ، وبالتهليل من الغفلة والاستهانة
وقد أسلفت طرفاً من هذا في عوامل الاتصال .

وهذه لمحات أخر تكشف عما كان للحرب من أثر في الأدب .

١- في عهد كسرى غزت إبياد سواد العراق ، واعتدت على ملوك
آل نَصْر ، وعلى امرأة من شريفات العجم ، فغزاهم كسرى ، لكن
العرب انتصروا أول الأمر انتصاراً مبيناً ، حتى قالوا إن جماجم الفرس
وأجسادهم كانت كالتل العظيم ، ولم يستكن كسرى لهذه الهزيمة ،
فبعث في آثارهم مالك بن حارثة ومعه أربعة آلاف من الأساورة فيقتهم
واقبوا قتالاً شديداً حتى ظفر بهم وهزمهم ، واسترد منهم ما كانوا
قد أصابوا من الأعاجم يوم الفُرات ، وكان لقيط بن يَعمَر الإيادي (٣)
قد حلز قومه إبياد بعد نصرهم بقصيدة طويلة منها :

(١) بجمرة أشعار العرب ٢٦٢ يزدهى : يستخف . شرف : المراد الثياب . الفارسي :
الدرع . مصاصب . فحول المفرد مصعب . قطف : جمع قطف أي بطيئة المشى المفرد قطفوف .
(٢) الأسميات ١١٢ ، وجمرة أشعار العرب ٢٢٥ بنو السوداء : أصحاب أخيه عبد الله
الذي يثرى . ظنوا : أيقنوا . الفارسي المسرد : الدرع المثينة للنج الضيقة الخلق .
(٣) كان كاتباً ومترجماً عند كسرى . الأبيات ١٠١/٢ ، ومعجم ما استعجم ٧٥/١ .

ياقوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا
هر القضاء الذي يجتأ أصلكم
وقد بدلت لكم نصحي بلا دحل
وحلهم مرة أخرى بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط
فإن الليث آتاكم دليفا
أتاكم منهم ستون ألفا
على من بالجزيرة من إباد
فلا يحبسكم سوق النقاد
يزجون الكتاب كالجراد (٢)

٢ - وتحارب العرب والفرس في يوم الصفقة (٣) ، وسببه في رواية
أن باذان عامل كسرى على اليمن أرسل إلى كسرى عيرا تحمل ثيابا
ومسكا وعنبرا ومناطق مُحلاة ، وكان يخضرها بنو الجعيد المراديون ،
فلما كانت القافلة ببلاد بني حنظلة بن يربوع من تميم أغار عليها
هؤلاء وغيرهم ، وقتلوا حماها ومن معهم من الفرس ، واقتسموها ،
وعلم الفرس اللذين بهجر ، فساروا إلى بني تميم ، وقتلوهم قتالا شديدا
انهزم فيه الفرس . فاستشاط كسرى ، فانتقم من العرب بضرب أعناقهم
غيلة في الحصن المسمى المشقر .

وفي رواية أخرى أن العير كانت تحمل رماحا أرسلها كسرى إلى
اليمن ، وكان العرب يخفرون متاجره بالتناوب ، كل في منطقته لقاء
جعل . ولكن هودّة بن علي الحنفي تعهد بخفارة العير في المناطق كلها .

(١) الأغانى ٢٠/٢٣ .

(٢) المؤلف والمختلف ١٧٥ ، والأغانى ٢٠/٢٥ ، نقاد : سمار النعم أو الغم القصير .
الأرجل القبيصة الشكل ، أي لا يمنكم حرسكم على فئكم من الخمر .

(٣) الطبرى ٢/١٣٤ ، والأغانى ١٦/٧٥ ، والنقد الفريد ٣/١٥٤ .

على أن يأخذ وحده الجمل ، فغضب بنو سعد من تميم ، وهاجموا العير واقتسموها ، وقتلوا الأساورة ، وأسروا هُوذة حتى افتدى نفسه . وفي هذا يقول شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهوذة مقرون اليدين إلى النحر
وردنا به نخضل اليمامة عالياً عليه وثاق القد والحلق السرير
ويقول المجذام التميمي :

وهن عصبن هُوذة يسوم حَجْرٍ فظلل ينازع المسد المغارا (١)
ثم سار هُوذة إلى كسرى ، فأرسل معه جيشا ، ونزلوا المشقر من أرض البحرين ، وبعث إلى العرب ليمتاروا مما معه ، وكان بنو سعد أكثر من جاء إليه ، فاحتال للشار منهم بأن يدخلوا من باب المشقر رجلا رجلا ، وكلما دخل رجل ضرب عنقه .

ثم كشف العرب المخديعة وثاروا ، فاضطر هُوذة والأساورة إلى الهرب ، فقتلهم بنو سعد والرياب يقتلون من يلحقون به ، وقد افتخر كاشف الحيلة بقوله :

ألاهل ألى قومي على النساءى أننى حميت ذمارى يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تفرج منها كل باب مضير (٢)
وقد مدح الأعشى هُوذة بن على الجثنى بقصيدة طويلة ، أشار فيها إلى مكرمة له يوم المشقر ، لأنه لما رأى ثورة القوم ، وأنهم قد نزلوا بغيره ، كلم قائد الفرس في أن يعفو عن مئة من خيار بني تميم ، فوجههم له يوم الفصح ، فأعتقهم :

(١) معجم الشعراء ١٧١ جبر : موضع الموقع . المسد المغارا : الجبال التي بين يديها

(٢) الطبرى ١٢٤/٢ جبر : سبيل حنين .

سائل عيما به أيام ضفقتهم
فقال للملك أطلق منهم مئة
فمك عن مئة منهم وثاقهم
هم تقرب يوم الفصح ضاحية

٣- أما أكبر الوقائع بين العرب والفرس ، وأكثرها شهرة وتأثيرا

في الأدب ، فهي موقعة ذي قار (٢) .

وذلك أن كسرى غضب على النعمان ، وحبس سبابا أو بخانقين
حتى مات ، وقيل إنه ألقاه تحت الفيلة فداسته ، انتقاما منه لقتل
عدي بن زيد ، وقد سجل سلامة بن جندل ما فعله كسرى بالنعمان في
قوله :

هو المدخل النعمان بيتاً مساؤه صدور الفيول بعد بيت مُردق
وبعد مصاب المزن كان يسوسه ومسال معد بعد مال مُحرق (٣)

حيث أنه حنق كثير من العرب على كسرى ، وكان من مظاهر حنقهم
أن جعلت بكر بن وائل تغير على السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن
قيس بن خالد على كسرى ، وسأله أن يجعل له أجرا على أن يضمن له

(١) ديوان الأعشى ٢٠١ والطبري ١٣٤/٢ . شرح : ذليل . رملا : ليتا ، ضاحية .

ضحا .

(٢) الطبري ١٥٢/٢ ، ومروج الذهب ١٣٤/١ ، والتبعية والإشراف ٢٠٨ ، والإغاني

٢٩/٢ و ١٣٢/٢٩ - ١٤٠ وديوان الأعشى ٢٥٩ .

(٣) الأسنينيات ١٥٢ . مُردق : نشود أعلاه وأسفله . ومصاب المزن : إشارة إلى
الأرض التي كان النعمان يحبسها والمطر يصيبها . معد : المراد القبائل الشمالية التي كانت خاصة له
من نسل معد بن عدنان . محرق : يطلق على عمرو بن هند لأنه حرق ميثاق بني تميم ، وعلى الحارث
بن عمرو ملك الشام لأنه أول من حرق العرب في ديارهم ، وهم يدعون آل محرقين ، ويطلق امرؤ
القيسي بن عمرو .

ألا تغير بكر على سواد العراق ، فأقطعه الأبلّة وما والاها ، لكن البكرين
أغاروا ، فغضب كسرى على بكر ، وسخط على قيس بن مسعود وحجبه ،
وعياً جيشاً لقتال العرب ، فأنذر قيس قومه بقصيدة منها :

ألا ليتنى أرشو سلاحى ويغلتى لمن يُخبرُ الأنبياء بكرَ بنِ وائل (١)

واستدعى كسرى إياس بن قبيصة الطائى - عامله على عين التمر
وما والاها إلى الحيرة - فأتاه بصنائه من العرب الذين كانوا بالحيرة ،
وبجيش من العرب فى ثلاثة آلاف ، ومن الفرس فى ألفين ، وجعل
على الفرس قائدين هما الهامرز وخنابرين ، وبعث مع الجيش عيرا فيها
متاجر إلى اليمن ، وقال : إذا فرعتم من عدوكم فسيروا بالعين إلى اليمن
بلغ الخبر هالىء بن قبيصة الشيبانى وقبيلة بكر ، فانتهوا إلى ذى قار ،
ولما التقى الزحفان خطب هالىء فقال : « يا قوم مهلك مَقْدورٌ خيرٌ من نَجاء
مَعْرور ، وإن الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية
ولا اللنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطمع فى الثغر أكرم
من الطعن فى الدبر ، يا قوم جلوا فما من الموت بدء . »

وتبارى العرب فى الإقدام وفى التحميس على الاستبسال ، وروى
من تحميسهم كثير ، كقول عمرو بن جبلة الشكرى :

يا قوم لا تغرركم هدى المخرق ولا ويميض البيض فى الشمس شرق
من لم يقاتل منكم هذا العشق فجنبوه الراح واسقوه المرق (٢)

(١) هذه رواية الأغانى ، ورواية مسجم الشعراء ٣٢٥ (لأن تعلم الأنبياء والعلم والى)

وهى بهذا لا إزاء فيها باللمبة القصيدة .

(٢) المتى : أجمع من الناس .

وقول حنظلة بن ثعلبة العجلي :

ياقوم طيبوا بالقتال نفسا أجدر يوم أن تغلوا الفرسا (١)

وقول يزيد بن المكر بن حنظلة بن ثعلبة بن سيّار :

من فرّ منكم فرّ عن حريمه وجاره وفرّ عن نديمه

أنا ابن سيّار على شكيمه إن الشراك قدّ من أديمه (٢)

وكلهم يجرى على قديمه من قارح الهجئة أو صميمه (٣)

وكانت النسوة يحرضن الرجال على الاستبسال ، ويلهين بطولتهم

بأناشيد حماسية ، كقولهن :

إن تهزموا نعانق ونفرش النمارق (٤)

أو تهربوا نفسارق فراق غير وامق (٥)

عرس المولى طالق

واستمات العرب ، فقطعوا وُضُن رواحل نساءهم ، حتى يقتسروا

أنفسهم على الثبات ، دفاعا عن الحرائر اللاتي لا يستطعن الفرار على

رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها .

ثم انجلت للمركة عن هزيمة الفرس ، واقتنى البكريون آثارهم

إلى السواد ، وغنموا ، وقسموا على نساءهم مافي العير من بزّ وعطر

والطلاف .

(١) تغلوا : تهزموا .

(٢) شكيمه : عهده وطيبه . الشراك : سير النمل . الأديم : الجلد ، يريد أنه صورة من

أبيه .

(٣) قارح الهجئة : القارح الفرس المكمل ، الهجين : أبوه خير من أمه والمراد بقارح

الهجئة : الدريق في الفسة .

(٤) النمارق : جمع نمرقة وهي البساط .

(٥) وامق : محب .

ولقد أشاد الشعراء بقبائل بكر وشيبان وعجل بمخاصمة ، كقول الدهان ابن جندب :

إن كنت ساقية يوما على كرم فاسقى فوارس من ذهل بن شيبان
واسقى فوارس حاموا عن ديارهم وأعلى مفارقهم مسكا وربحانا
وكقول الأعشى (١) :

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتي وهم ضربوا بالحنو حنو قراقر
تناهت بنو الأحرار إذ صبرت لهم فوارس من شيبان غلب فوئت
وأقلتهم قيس فقلت لعله يبيل لئن كانت به النعل (٢) زلت

كانت هذه الموقعة تمام أربعين سنة من مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل كانت بعد الهجرة ، وقيل كانت بعد غزوة بدر بأشهر ، فهي حوالي سنة ٦١٠ م .

ولما علم الرسول بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا .

وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين أن العرب لما انتصروا على الفرس في موقعة ذي قار لم يتغنوا بنصرة العروبة عامة ، وإنما تغنوا بنصرة

(١) الأغانى ٢/٢٩، ٢٠، ١٣٢ ومروج الذهب ١/١٣٤ والتلخيص والإشراف ٢١٠٨ .

(٢) رآكها : يريد نفسه . يوم اللقاء : يوم لقاء الفرس ، غنو قراقر : حنوتى قار : من المواضع التي كانت بها المعركة قرب السكوفة . الحامرز : أحد قواد الفرس في ذلك اليوم وكانت شيبان على ميمنة بكر بإزاء كتيبة الحامرز . بنو الأحرار : الفرس . تناهت : كفت . غلب : جمع أقلب وهو الفليط المتق ، ويوصف به الأسد . قيس : هو قيس بن مسعود . يبيل : يذهب ويهلك . إن كانت به النعل زلت : إن كان أحطأ يسير مع جيوش كسوى . والظاهر أن كسرى شك في أمره فطلبه فهرب منه .

القبائل التي اشتركت في الحرب وهم الشيبانيون والعجليون واليشكريون ، فلم تتجمل في الغناء روح عربية عامة ، لأن العرب لم يكونوا يدركون أنهم أمة ، وإنما كانوا يعتمدون على الحياة القبلية (١) .
والحق أن الحياة القبلية كانت طاغية على شعور العرب بأنهم أمة ، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد في أنهم لم يتغنوا بانتصارهم على الفرس غناء يدل على الشعور بالقومية ، وذلك أن بعض القبائل العربية كانوا يحاربون إخوتهم العرب نصرة للفرس ، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف كما يقول المؤرخون ، يتزعمهم إياس بن قبيصة الطائي ، وصنائع الفرس الذين كانوا بالحيرة وماحولها ، فكيف يتغنى الشعراء بروح عربية عامة ؟ لو أن العرب كلهم كانوا يحاربون الفرس لكان الفخر القبلي دليلا على فقدان الشعراء أن العرب أمة ، ولو أن الشعراء أشادوا بالعرب كلهم في موقعة ذي قار لكانوا كاذبين على الواقع ، لأنهم يعلمون أن الجيش الذي حاربهم ثلاثة أخماسه من العرب ، وخمساؤه من الفرس .

(٣) أثر الفرس في اللغة العربية

كان من الطبيعي بعد هذا الاتصال أن يستعمل العرب كلمات فارسية ، ورد بعضها في الشعر ، ولعل أكثرهم ثراء بهذه الكلمات واستخدما لها في شعره الأعمش ، لأنه كما قال عن نفسه :

وقد طفتُ للمالِ آفاقه عَمَّانَ فحَصَّ فأوريشليم
أثيتُ للتجاشي في أرضه وأرض التَّبَيْطِ وأرض العجم (٢)

(١) نعي الإنلام ١/١٨ .

(٢) الديوان ٤١ .

وقال أيضاً : *ببابل لم تُغصِر فجاجت سِلافة* .
 لقد سرت ما بين بانقيا إلى عدن . وطال في العجم ترحالي وتسياري (١)

لهذا نجد في شعره كلمات فارسية سواء أكان بعضها معروفاً من قبله أم غير معروف ، منها هذه الأسماء الفارسية للأزهار وغيرها ، ذكرها في وصفه لمجلس من مجلس الشراب واللهو :

ببابل لم تُغصِر فجاجت سِلافة	تخالط قنسيديا ومِسكا مُحْتَمًا
يطوف بها ساق علينا مَتومٌ	خفيفٌ ذَلِيفٌ ما يزال مُقَدِّمًا
بكأسٍ وإبريقٍ كَسَانُ شرابه	إذا صُبِّ في المصحاة خالط بقمًا
لنا جِلْسَانٌ عندها وَيَنْفَسِجٌ	وسِيسَنْبَرٌ والمرزجوشُ مَنَمَمًا
وآسٌ وخِيرىٌ ومَرُوٌ وسوسنٌ	إذا كان هِنَزَمُنٌ ورختُ مَخَشَمًا
وشاهسَفرمٌ والياسمينُ ونرجسٌ	يُصَبِّحنا في كل دَجِنٍ تَغِيمًا
ومُسْتَقٌ سينينٌ ووَنٌ وبَرَبِطٌ	يجابوه صَنِجٌ إذا ماترنا (٢)

ومنها كلمة سمسار الفارسية ، وردت في شعر الأعشى بلفظها

الفارسي في قوله : *سَمْسارٌ سَمْسارٌ* .

(١) الديوان ١٧٩ ومعم البلدان ٥١/٢ .
 (٢) الديوان ٢٩٣ . بابل : مدينة قديمة كانت تبعد عن بغداد نحو مئة كيلو ، ينسب العرب إليها الخمر والسمر . السِلافة : ما سال قبل العصر وهي أجود الخمر . القند يفتح القاف والقنديد بكسرهما : عمل قصب السكر فارسي معرب . مَحَمٌ : مسدود بالطين ونحوه . مَتومٌ : مفرط بلؤلؤتين . ذَلِيفٌ : مسرع . مَقَمٌ : يقلم السككوس . المصحاة : قلع من ففة يشرب به . اليقم : شجر كبير ورقه كورق اللوز وساقه أحمر يصطبغ بطيبه . المرزجوش والجلسان والبنفسج والسيسنبر والآس والخيرى والياسمين والسوسن والمر والشاهسفرم كلها أنواع من الورد والرياحين فارسية معربة . منَمَمٌ : مزخرف . الهلأمن : عهد من أعياد النصارى . مَخَشَمٌ : سكران شديد السكر . دَجِنٌ : غيم ومطر . المستق والون والبربط أنواع من آلات الطرب ، كلها فارسية معربة . الصَنِجٌ : دوائر من النحاس تثبت في أطراف الأصابع ويشرب بها على نبرات الموسيقى معرب .

وأصبحت لا أستطيع الكلام سوى أن أراجع سسارها (١)
 وأصل الكلمة من السنسكريتية انتقلت إلى العرب عن طريق
 الفرس ، وقد نقل حديث عن قيس بن أبي عَرَزَةَ الصحابي الغفاري قال
 فيه : كنا نسمى السهاسة ، فسمانا النبي صلى الله عليه وسلم بأحسن منه ،
 فقال يامعشر التجار (٢) ، على أن الكلمة عربت بكلمة سفسير (٣) ،
 قال النابغة :

وقارفت وهي لم تجرب وبيع لها من الفصافص بالنمى سفسير (٤)
 وذكر ابن سلام أن الناس أصبحوا فرأوا على باب دار الندوة :
 ألى قريشاً عن المجد الأساطير ورشوة مثل مائرشى السفسير
 فأنكروا ذلك ، وقالوا ما كتبها إلا ابن الزبير (٥) .

ومن هذه الكلمات الفارسية البستان ، فارسي معرب ، قال الأعشى
 في المدح :

يَهَبُ الْجِلَّةُ الْجَرَاجِرَ كَسَالِبِهِ ثَمَّانُ تَحْنُو لِلرَّدَقِ أَطْفَالُ (٦)
 ومن هذه الكلمات الفارسية القَرْنَقُلُ والزنجبيل في قول قيس
 بن المخطيم :

-
- (١) الديوان ٣١٩ .
 (٢) المغرب للجواليقي ٢٠١ ، والإصابة ٢٦٢/٥ وسنة أحد ٦/٤ ، ٢٨٢ :
 (٣) البستان والقاموس المحيط .
 (٤) المغرب ١٨٥ قارفت : قاربت أن تجرب . باع لها : اشترى لها بعض السمان
 الفصافص : جمع لفصافس بكسر الفاء وهو اللث الرطب . النمى : فلوس كانت بالهيرة
 (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٦ ، السفسير : جمع سفسير .
 (٦) المغرب ٥٢ والبستان ٣٨٥/١١ و٢٠٢/٥ ، الفصحام . الجراجير : جمع جزجور
 وهو الهمير السكير الصلب . كالبستان : المراد كالثقل : الردق : الصغار من كل شيء .

- كَانَ الْقَرْنُفَسَلِ وَالزَّنَجِيْلِ . وَذَاكِي الْعَبِيْرِ بِعَجَلِيْهَا (١) .
وَالزَّنْبِقِ فِي قَوْلِ اِمْرِئِ الْقَيْسِ :
وَفَوْقِ الْحَوَايَا غَزْلَةٌ وَجَسَادِرٌ . تَضْمَمْنَ مِنْ مَسْكٍ ذَكِيٍّ وَزَّنْبِقِ (٢)
وَالْاَقْحُوَانِ فِي قَوْلِ طَرْفَةَ :
بَادِنٌ تَجْلُوْا اِذَا مَا ابْتَسَمَتْ عَنْ شَتِيْتِ كَاَقْحِي الرَّمْلِ غَرَّ (٣)
وَالْاَبْرِيْقِ فِي قَوْلِ عُبَيْدِ بْنِ الْاَبْرَصِ :
اِذَا ذُقْتَ فَاَهَا قَلْتَ طَعْمُ مَدَامَةٍ مُشْعَشَعَةٍ تَرْخِيْ اِلْزَارِ قَلْبِيْجِ
بِمَاءِ سَحَابٍ فِي اَبَارِيْقِ فُضْصَةٍ هَسَا ثَمْنٍ فِي الْبَاثَعِيْنَ رِيْبِيْجِ (٤)
وَفِي قَوْلِ عَلِيٍّ بْنِ زَيْدٍ :
فَدَعُوْا بِالصُّبُوْحِ يَوْمَا فَنَجَاةٌ قِيْنَةٌ فِي يَمِيْنِهَا اِبْرِيْقِ (٥)
وَكَذَلِكَ كَلِمَةُ دَخْدَارِ (ثَوْبٌ اَبْيَضٌ بِالْفَارْسِيَةِ مَعْرَبٌ تَخْتِ دَارِ)
جَاءَتْ فِي قَوْلِ عَلِيٍّ بْنِ زَيْدٍ :
اَرَقْتُ لِمَسْكُفِهْرٍ بَاتَ فِيْهِ بُوَارِقُ بَرَقِيْنِيْنَ رَعُوْسِ شِيْبِ
تَلُوْحِ الْمُسْرِفِيَةِ فِي ذِرَاهِ وَيَجْسِلُوْ صَفْحَ دَخْدَارِ قَشِيْبِ (٦)
وَالْاِسْتَبْرَقِ غَلِيْظِ الدِّيْبَانِجِ فَارِسِيٍّ مَعْرَبٍ اَوْ ضَرْبٍ مِنَ الْحَرِيْرِ

(١) ديوان قيس بن الخفيم ٨٠ ولسان العرب ٣١٤/١٨ .
(٢) الديوان ٦١٧ غزلة : جماعة من الغزلان . جآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية .
(٣) ديوان طرفة ٥١ .
(٤) ديوان عبيد ٢١ . مشعشة : مزوجة بغيرها . ترخي الزوار : تخذ أسبانياً اللهب .
قدح : ما يبي في أسفل الدن ، أي أنها نحر مركزة ، أو قدح بمعنى مصبوبة في القلح .
(٥) الأغانى ١٥٨/١ .
(٦) المعرب للجواليق ١٤١ ، والأغانى ٢٣/٢ . وفي ٣٨/٢ (ويجملو صفحة الذيل القشيب)
المفكهر : السحاب المتراكم . الشيب : السحاب . التي : فيها سواد . ونياس شيبها بالرووس
الشيب : وقيل شيبه جبل معروفه شبه العرق في السحاب . يلمحنا البيروني .

أصله استبرفه أو استبروه (١) .

قال مالك بن نويرة :

ولا ثياب من الديباج تلبسها هي الجياد وما في النفس من ديب (٢)
وقد اشتقوا من كلمة ديباج فقالوا : دبج المطر الأرض ودبجها
إذا زينها بالرياض ، وأصبحت الأرض مُدبجة ، وطيلسان مدبج ، وهو
الذي زينت أطرافه بالديباج ، وفلان يصون ديباجية أي خديه ،
وللقصيدة ديباجة حسنة إذا كانت مُحبرة (٣) .

والبلاس : المسح ، وهو الكساء من الشعر ، قال الراجز لامرأته :

إن لا يكن شيخك ذا غراس فهو عظيم الكيس والبلاس
في اللزبات مُطعم وكاسي (٤)

والإسوار بكسر الهمزة وضمها هو الراي ، وقيل الفارس ، ويجمع
على أساور وأساور ، قال القلاح :

ووتر الأساور القياسا صُغدية تنتزع الأنفاسا (٥)

والإستار : الأربعة ، أصلها بالفارسية جهاز ، فعربوه فقالوا إستار ،

قال الأعشى :

توفى ليوم وفي ليلة ثمانين تحسب إستارها (٦)

(١) المعرب ١٥ .

(٢) المعرب ١٤٠ ، الديب : العيب .

(٣) أساس البلاغة مادة دبج .

(٤) المعرب ٤٦ وذكر ابن دريد في الجمهرة ٢٨٨/١ أن العرب تكلمت به قديما .

اللزبات : جمع لزبة يسكون الزاي وهي الشدة .

(٥) اللسان مادة قوس والمعرب ٢١ : القياس : جمع قوس . الصغلة : بلد أو جبل من النجوم .

(٦) المعرب ٤٢ ولسان المعرب ٨/٦ توفى يعني القارورة الكبيرة ، إذا شربوا بالصغير .

ثمانين يكون بالكبير أربعة ، كل عشرين ويسد .

والتاج فارسية كانت في البهلوية ثار ، قال عمرو بن كلثوم :
وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحيى المحجربينا
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدةً أعتتها صُفُورنا (١)
والبوصى ضرب من السفن ، بالفارسية بوزى ، وقد تكلموا به
قديماً ، قال طرفة في وصف عنق ناقته :

وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعَدَتْ بِهِ كسكانِ بُوَصِيٍّ بِدَجَلَةَ مُصْعِدِ (٢)

وقال الأعشى :

مَا يَجْمَعُ الْجُدُّ الظُّنُونَ الَّذِي جُنِبَ صَوْبَ اللَّجْبِ الماطر
مِثْلَ القِرَائِيِّ إِذَا مَاطَمِي يَقْدَفُ بِالْبُوصِيِّ والماسهر (٣)

والأرنديج أصله بالفارسية رنده وهو جلد أسود ، قال الأعشى :
عليه ديابودُ تَسْرِبَلٌ تحتمه أرنديج إسكافٍ يخالط عِظْلَمَا (٤)
والبربط من آلات الطرب ، أو هو العود ، معرب بربط أى صدر
الإوز أو البط ، لأنه يشبهه ، قال الأعشى :

والتأى ترم و يربط ذى بحة والصنج يبكى شجوه أن يوضعا (٥)

والسنيك : طرف مقدم الحافر ، جاء في حديث أبي هريرة :

(١) شرح المملكات لزوزن ١٣٢ .

(٢) المغرب ٥٤ والسان ٢٧٤/٨ وشرح القصائد العشر ٧١ . أتلع : سفة لمتى تأتله ،
أى أنه طويل ، نهاض : ينهض في السير . السكان : الذى تقوم به السفينة . مصعد : ساجح في مقابلة
التيار فهو يمالج الموج .

(٣) المغرب ٥٥ : الجد : البئر الباردة الموضع . الظنون : القليلة الماء : التى لا يوتق
بجانها . اللجب : السكثير الصوت . طمى : ارتفع . الماسر : الساجح .

(٤) المغرب ١٦ ولسان العرب ١٠٨/٣ و ٢٤/٥ . الديابود ثوب ينسج على ثيرين . العظلم :
نوع من الشجر يخضب به .

(٥) المغرب ٧٢ والقاموس المحيط مادة بربط . التأى ترم والصنج من آلات الملاهي .

« تخرجكم الروم منها كفرةً كفرةً إلى سنبك (١) من الأرض ، وقال

العباس بن مرداس :

شهدن مع النبي مسومات حنيناً وهي دامية الحوامي

ووقعة خالد شهدت وحسكت سنابكها على البلد الحرام (٢)

والذرياقة : الخمر ، قال حسان بن ثابت :

من خمر بيسان تخيرتها ذرياقة توشك قتر العظام (٣)

والطرز والطرز النموذج ، قال حسان في مدح بني غسان :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول (٤)

وتقول العرب : طرز فلان طرز حسن ، أي زيه وهيئته .

وقابوس اسم فارسي ، وكان النعمان بن المنذر قد سمي ابناً من

أبنائه قابوس ، فكان يكنى أبا قابوس ، قال النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعسلى ولا قرار على زار من الأسد (٥)

وقال أيضاً :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام (٦)

(١) المغرب ١٧٧ .

السكر : الأرض البعيدة عن الناس ، والمراد القرية . سنبك من الأرض : شبه الأرض التي يخرجون إليها بسنك الدابة في القلظ .

(٢) المغرب ١٧٨ .

مسومات : مسلمات . وقفة خالد : المراد دخوله مكة يوم الفتح على الخيل ، أي أن الخيل وطئت أرض مكة .

(٣) المغرب ١٤٢ .

(٤) المغرب ٢٢٣ .

(٥) ديوان النابغة ٣٦ وشعراء التصانية ٦٥٨ والمغرب ٢٥٩ .

(٦) المغرب ٢٥٩ وشرح الحاشية ١٨٥/٣ .

الكلمة بالفارسية قابوس وكاودوس وكى كاوس ، ومعناها كلها الحبيب الشريف الممدوح

١١١ ودُخْتَتَوْسُ كلمةٌ فارسيةٌ معناها الجميلة اللطيفة أو بنت الهنائة^(١) ،
وقد سَمِيَ لقيط بن زُرارة التميمي بنته دختتوس ، وهي التي عنانها
بقوله لَمَّا قَتَلَ :

يَا لَيْتَ شَعْرَى عَنكَ دُخْتَتَوْسُ إِذَا أَتَاكَ الْخَيْرَ الْمَرْمُوتِيُّ
أَتَحْلَقُ الْقُرُونُ أَمْ تَمِيسُ لَا بَلْ تَمِيسُ لَهَا عُرُوسُ (١)
قال الحارث بن الحنظلة في تذكير قبيلة بكر بما كان بينها وبين
قبيلته تغلب من معاهدة وكفلاء (٢) :

وَأَذْكُرُوا حِافَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قُدِّمَ فِيهِ الْعَهْدُ وَالْكَفْلَاءُ
حَسَدَرَ الْجَبُورِ وَالتَّعْلَى وَلَنْ يَنْقُضَ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ (٣)



وبعيد :

فتلك طائفة من الكلمات الفارسية الكثيرة التي عربها العرب في
العصر الجاهلي ، ثم ورد بعضها في القرآن الكريم (٤) .
ولا شك أن ورود بعضها في القرآن الكريم أعظم دليل على أن
العرب عرفوها وعربوها وألفوها قبل نزول القرآن ، فصارت من صميم
لغتهم .

على أن العرب في نقلهم كلمات فارسية سلكوا عدة اتجاهات :

(١) السكامل لابن الأثير ٢١٣/١

(٢) جمع عمرو بن هند قبيلة بكر وتغلب وأصلح بينهما ، وأخذ من الحيين رثا من كل حي
مئة غلام فسكف بعضهم عن بعض (شرح القصائد البشر ٢٥١) .

(٣) شرح القصائد البشر ٢٦٩ ، والبيان والتبيين ٦/٣ المهارق : جمع مَهْرَقٌ وهو السَّحِيفَةُ

(٤) الإتيان للسيوطي ١٣٥ - ١٤١ .

- ١- نقلوا الكلمات على صورتها الفارسية كما نرى في بعض النصوص السابقة ، مثل مرزجوس ، وسمسار ، وزنجبيل ومهرجان وديابوذ .
- ٢- تصرفوا فيها بعض التصريف ، كما نرى في آذريون للدلالة على الوردة الأحمر الورق أو الأصفر ، مع سواد الوسط فيه ، وأصلها الفارسي آذر كون ، وكلمة نيروز معرب. نوروز ، وإشتار معرب جهاز ، وتاج معرب ثار ، وبوصي معرب بوزي ، وأرنديج معرب رنبيه ، والونج أصله ونه ، ومشتق صيني أصله مشتة صيني .
- ٣- تصرفوا في بعض الكلمات الفارسية نطقاً ودلالة ، مثل بربط أصله بالفارسية بربط أي صدر الإوز أو البط ، فدخل العرب به على آلة الطرب التي تشبه العود لأنها مثل صدر البط

(٤) اثر الفرس في القصص والخيال

- ١- عرف العرب بعض أخبار الفرس وقصصهم ، كقصة إرستم وإسفنديار (١) ، وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، ومن يؤذون النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان قد شغص إلى البحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وقصة رستم وإسفنديار (٢) .

وذكر ابن أبي أصيبعة أن النضر رحل إلى فارس وتعلم (٣) بها ،

(١) قصة فارسية قديمة ، أعادها الفردوسي في الشاهنامه ، تدور حول الحرب التي نشبت بين رستم بطل إيران القديم الذي كفل لها النصر حل أمدها أكثر من ثلاث مائة سنة وبين إسفنديار البطل الناشئ ، بطل دين وزادشت ، وقد دارت الحرب بينهما ذمناً ، وأظهر إسفنديار بطولة تشبه بطولة رستم ، لسكن المارزة بينهما انتهت بمقتل إسفنديار .

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢٠/١

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١١٣/١ .

سكان الرسول إذا جلس مجلساً وذكر فيه بالله ، وحلر قومه ما أصاب
الطغاة من قبلهم خلفه النضر في مجلسه إذا قام ، وقال يامعشر قريش
أنا والله أحسن منه حديثاً ، فهلم إلى ، ثم يحلشهم عن ملوك فارس
وعن رستم واسفنديار ، وهو الذي قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وفيه
نزلت ثمان آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى « إذا تتلى عليه
آياتنا قال أساطير الأولين (١) » وروى أنه اشترى كتب الفرس
ليحدث منها ، وأنه المقصود بقوله تعالى : « ومن الناس من يشترى
هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ، أولئك لهم
عذاب مهين » (٢) .

٢- وأثر اتصال العرب بالفرس في خيال الشعراء ، فجاءوا بصور
شئى من علاقتهم بالفرس .

فالمرقس الأكبر يشبه البقر الوحشى التى ترعى في الأطلال متمهلة
مطمئنة مختالة برجال من الفرس يحشون مختالين في قلائسهم :

أصت غلام بعدد سكانها مفسرة ما إن بهسا من أرم
إلا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا في الكمم (٣)

والخنساء تشبه أخاها صخراً بالرمح ، ثم تشبه اختياله في مشيته
بخيلاء قائد من قواد الفرس :

مثل الرديني لم تنفسد شببته كأنه تحت طي البرد أسوار (٤)

(١) سورة القلم ١٥ وسيرة ابن هشام ١/٣٢٠ .

(٢) سورة لقان ٦

(٣) المفضليات ٢/٤٩ . أرم : أحد . الكمم : القلائس .

(٤) ديوان الخنساء ٧٢ .

وقد ذكر شارح الديوان أنها شبيهت أبحارها بسوار من الذهب أو
الفضة في حسنه وضموره ، وليكني أرى أن التشبيه بقائد الفرس أولى .
والمخيل السعدي يشبه وجه حبيته بالصحيفة ملامسة ولينا ، ويقول
إنه ليس ضامرا ولا مكتنزا ، وهو كالذرة النادرة التي أضاء بها
العجم صدر مجلس عزيزهم ، وقد اشتراها العزيز بثمان غال ، لأنها
نادرة . جهد الغواص في العثور عليها ، إذ جاءها من أعماق البحر الخائج
للمواج الواسع غواص دقيق العظام ، كأنه سهم في سرعته ونحوه ،
وقد دهن جسمه بالزيت ليقيه ملوحة البحر :

وتريك وجها كالصحيفة ، لا ظمآن مختلج ولا جهم
كعقيلة السر استضاء بها محراب عرش عزيزها العجم
أضلى بها ثمتا وجاء بها شخت العظام كأنه سهم
بلسانه زيت وأخرجها من ذي غوارب وسطه اللخم (١)

والمثقب العبدى يصف ناقته بعد إجهادها بأنها ضخمة الهيكل ،
تشبه ذكة البواب :

فأبقى باطلى والجيد منها كد كان الدرابنة المطين (٢)
وعلقمة بن عبدة شبه ناقته الصلبة الضامرة بغمد السيف الفارسى

المحكم :

(١) المفضليات ٣/١ . مختلج . هزيل . جهم : كثير اللحم . أغلى بها ثمتا : اشتراها
بثمان غال . شخت : دقيق . لسانه : صدره . غوارب : أمواج . اللخم : السمك الكبير .
(٢) المعرب ١٤٠ ، ولسان العرب ١١/١٨ ، والمفضليات ٩٢/٢ . باطلى : ركوب في
حلب الهور والقزل . جنها : اجتهدا في السير . الدكان : الدكة المهيئة للجلوس عليها . الدرابنة :
جمع دربان وهو البواب مثقلة الدال . والدكان والدربان كلمتان فارسيتان معربتان . مطين :
مطل بالطين .

وقد أقطع المخرق المخوف به الردي بعنيس كجفن الفارسي المسرد (١).
 وخفاف بن نذبة يصف المرقبة التي راقب منها أعداءه بالارتفاع
 الشاهق ، ويقول إن جوارح الطير تبيت في أعاليها فتبدو كناصرية في
 بيت فارسي على مرتفع :

ومرقبة طيرت عنها حمامها نعامتها منها بضاح مزلق
 تبيت عتاق الطير في رقباتها كطرة بيت الفارسي المعلق (٢)
 ربأت . . .

وقد شبه الحارث بن حنظلة آثار الديار بالمهارق ، وهي الوراق
 الفارسي الذي كانوا يكتبون فيه :

لمن الديار عصفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس (٣)
 وكذلك شبهها البعيث بن حريث الحنفي :

لمن طلل بروضات السخال تأبى كالمهاريق البوالي (٤)
 وشبه أوس بن حجر ممدوحه فضالة بالمرزيان - حاكم إقليم من
 فارس - في قوله :

ليث عليه من البردي هسبرية كالمرزباني عيال بأوصال (٥)

(١) شعراء النصرانية ٥٠٦ الخرق : الخرقاء وهي الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح .
 عنس : ناقة صلبة : الجفن : عهد السيف . الفارسي : المراد السيف . المسرد : الحكم ضم
 الطرفين .

(٢) الأصمعيات ١٣ . المرقبة : موضع المراقبة . النمامة : كل بناء على الجبل كالطلعة .
 القناسي : البارز للشمس . المزلق : الأملس لا تثبت عليه قدم . عتاق الطير : جوارحها
 ورجلاتها : أعاليها . الطرة : الناصية . ربأت : سارت ربيثة وظليمة وعينا .

(٣) المغضليات ١٣٠/١ .

(٤) معجم البلدان ٣١٧/٤ . السخال : موضع .

(٥) البردي : نبات ذو هبرة وزغب . عيال : مختبر . الأوصال : أعضاء الجسم .

(هـ) أثر الفرس في الملامح والتعرف

١ - يتردد ذكر القيان كثيرا في الشعر الجاهلي ، وفيما بعده ، ولانجيد
ذكرا في الشعر الجاهلي لرجل يتغنى .

وأغلب الظن أن مرجع هذا إلى أن النساء أليق باحتراف الغناء من
الرجال ، لأنهن في الغالب أندى صوتاً ، وأحلى ترجيحا ، وأرق نغما ،
ولأن أدوتتهن وجمالهن ورقتهن تضاعف الطرب لهن . لهذا رأى الجاحظ
أن ه الغناء المطرب في الشعر الغزلي من حقوق النساء ، وإنما ينبغي أن
تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن
نطقت تلك الأشعار ، وهن شبيب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول في
التشبيب . وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشبهى أن تقبله ، وبين
فم تشبهى أن تصرف وجهك عنه .

على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجلا
ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح .

وبعد فأنما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك فحل ملتف اللحية
كثيف الارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان معضن الوجه ؟ أم تغنيك
جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من
ياقوته أو من فضة مجلوة (١) ؟ .

وإذا كان الجاحظ قد عقد موازنة بين الجارية الحسناء والرجل
القبيح لينتهي إلى إبطار الجارية ، فإن النتيجة لانتخلف كثيرا إذا
عقدنا مثل هذه الموازنة بين مغنية جميلة ومغن جميل :

(١) رسالة العشق والنساء الجاحظ ١٦٥ .

وشبيه بهذا ما حدث به ثعامة بن أشرس في قوله : كنت عند
المأمون يوماً ، فاستأذن المغني عمير ليدخل ، فكرهت ذلك ، فقال
المأمون : ما بك يا ثعامة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إذا غنى عمير ذكرت
مواطن الإبل وكثبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة البسط أملى ، وقوى
جملتي ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والوالدين ، كم بين أن
تغنيك غادة كأنها غصن بان ، ترنو بمقلة وسنان ، كأنما خلقت من
ياقوتة ، أو قرطت من فضة ، وبين أن يغنيك رجل كثر اللحية ،
غليظ الأصابع ، نحش الكف ؟

فتبسم المأمون ، وقال : الفرق بينهما واضح ، يا غلام لا تأذن
لعمير ، وأمر بأن تحضر أطيّب قيناته (١) .

أما القينة فهي الأمة المغنية ، من التقين وهو التزين ، ومنه قيل
للمرأة مقينة إذا كانت تزين النساء ، وقيل القينة هي الأمة مغنية
أو غير مغنية ، والمغنية تسمى قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك
من عمل الإماء دون الحرائر (٢) .

٢ - ولقد عرف العزب القيان منذ زمن بعيد ، وإن أخبارهم لتردد
كثيراً في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي .

وكان من الطبيعي أن يكن في الحواضر أكثر منهم في البوادي ،
وأن يكن من أجناس شتى .

وحسبنا أن نسوق بضعة أمثلة للدلالة على ذلك .

فهن في قصور الحيرة كثيرات العدد ، يدل على هذا أن بهرام

(١) زهر الآداب ٣/٢٧ .

(٢) اللسان مادة قين .

جور أرسله أبوه يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) الملقب بالأئيم ليعيش
زمتا في الحيرة عند ملكها النعمان الأعور (٤٠٣ - ٤٣١ م) وليتر
تربية عربية ، فاقترح على النعمان أن يكل مسراته ، فيقسم له حفلا
من الجوارى والقيان ليكتمل له من طيب المقام ، فكانت أيامه بين
طوب وطرب وصيد ولعب ، وأراد يوما أن يجمع لذات الصيد والسباع
والشراب والعشق ، فامتطى ناقة كريمة ، وأردف جازيته آذازورا ومعها
صنجه ، واصطحب دنا من الخمر وكأسا من الذهب ، وخرج إلى
الصيد (١) .

وجاء في رواية أخرى أن الملك العربي كان المنذر بن النعمان (٢) ،
ولسكن هذه الرواية لانتفق مع سنوات حكم يزدجرد وسنوات حكم
المنذر بن النعمان ، إذ أن المنذر حكم من سنة ٤١٢ إلى ٤٧٣ م ، وكان
يزدجرد قد توفي قبيل ولاية المنذر .

ويقال إن الغريين (٣) بناهما المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة على
قبتين كانتا جاريتين له ، فماتتا ، فأمر بدفنها ، وبني عليهما الغريين
تكريما لهما (٤) .

وكن كذلك في قصور الشام ، فإن حسان بن ثابت وصف مجلسا
من مجالسه في قصر جبلة بن الأئهم ، وجاء في وصفه أنه رأى
عشر قيان ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط ، وخمس يغنين غناء
أهل الحيرة أهداهن إلى جبلة إلياس بن قبيصة ، وهؤلاء سوى من

(١) الأغانى ١٥٧/٥ والطبرى ٧٢/٢

(٢) الطبرى ٧٤/٢

(٣) بناء أسطراتيان بظاهر الحيرة .

(٤) نهاية الأرب ٣٨٧/١ .

كان يهد إلى جيلة من مكة وغيرها للفناء (١) .

ولم يكن عددهم قليلا بمكة ، فإن كثيرا من قريش وغيرها كان لهم قيان ملك أيمانهم ، فمثلا كان لعبد الله بن خطل قيتان هما قرنتى وصاحبتهما (٢) ، وكان لعبد الله بن جدعان قيتان (٣) ، وكان لحمزة ابن عبد المطلب قينة تغنيه (٤) ، وكانت قريش قد اعتادت أن تغنيها قيانها في الأعياد والمواسم ، ولهذا أبي جهل أن يرجع ومن معه من التغير إلى مكة بعد أن أرسل إليهم أبو سفيان أن العير قد نجت - في غزوة بدر - قبل أن تبلغ قريش بدرا ، فتقيم به ثلاثا ، تنحر الجزر ، وتطعم الطعام ، وتسقى الخمر ، وتعزف عليها قيانها ، وتسمع العرب بقريش ، فتهاجها أيد الدهر (٥) .

وعلى هذه الشائكة كانت القيان في يشرب - المدينة - يدل على هذا قول حسان بن ثابت في وصف مجلس شراب عند صالح بن علال :

ربِّ لهو شهلته أمَّ عمرو	بين بيض نواعس في الرباط
مسح نداهي بيض الوجوه كرام	نهبوا بعد خفقة الأشراف
وكميت كأنها دم جوف	عققت من سبلافة الأنباط
فأضواها فتي يهين لها المباح	لَ وَنَادمتُ صالح بن علاط
ظل حول قيسانه عسازفات	مِثْلَ أدم كوانس وعواط

(١) الأغانى ١٤/١٦

(٢) سيرة ابن هشام ٥٢/٤ تحقيق الأستاذ السقا وزميليه .

(٣) الأغانى ٢/٨

(٤) الفائق للزخري ٦٥٠/١

(٥) سيرة ابن هشام ٢٧٠/٢

ظفن بالكاس بين شرب كرام مهتوا حُر صالح الأعطاط (١)
وبدل عليه أيضا أن أهل يشرب أراحوا أن ينبهوا النابتة النبيلة
على الإقواء في قوله :

أمن آل مية رائح أو مُتسدِّ عَجَلانَ ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذلك خبرنا الغرابُ الأسودُ
وفي قوله :

سقط النصف ولم تُرد إسقاطه فتناولتُه وأثقتنا باليد
مخضِب رخص كسان بنانه عَمَّ يكاد من اللطافة يُعقدُ
فدعوا قينة وأوعزوا إليها أن تغني بهذا الشعر ، فلما سمعها النابتة
أدرك ما في قوله من إقواء ، فلم يعد إليه ، وقال قدمت الحجاز وفي
شعري ضعة ، ورحلتُ عنه وأنا أشعر الناس (٢) .

فإذا ما عدونا شرقا إلى الهامة وجدنا الإماء كثيرات ، وحسبنا أن
بشر بن عمرو بن مرثد وصف مجلسا من مجالس الخمر والغناء ، وجاء
في وصفه أن القينة كانت تجاوب قينة أخرى بغنائها :

وتبيتُ داجنةً تجاوب مثلها نحوذا منعمةً وتضربُ معتبا
في إخوة جمعوا ندى وساحةً هضم إذا أزمُ الشتاء تزعبا (٣)

ولم تكن البوادي مقفرة من القيان ، فإن الشعراء البادين كثيرا
ما حلثوا عنهن ، وكثيرا ما وصفوهن ، فهذا لقيط بن زُرارة يقول
في يوم شعب جبلة ، وكان لقيط زعيم قومه الرباب في ذلك اليوم :

(١) ديوان حسان بن ثابت ٤١

(٢) الموشح ٢٨ وطلبات الشعراء ٥٥ والأخاني ١٥٧/٩

(٣) الفضليات ٧٦/٢ داجنة : قينة . معتب : حود . هضم : شامرون . تزعب :

تصح وكلم

(تعارف ثقافية)

إنَّ النَّشِيلَ وَالشَّوَاءَ وَالرُّغْفَ وَالْقَيْنَةَ الْحَسَنَاءَ وَالكَأْسَ الْأَنْفَ
وَصَفْوَةَ الْقَدْرِ وَتَعْجِيلَ اللَّقْفِ لِلطَّاعِنِينَ الْخَيْلَ وَالْخَيْلَ قُطْفَ (١)

وهذا عبد يغوث بن وقاص الحارثي يقول في أسره :

وقد كنت نَحَارَ الْجَزُورَ وَمَعِمِلَ الْهَمَلِ وَأَمْضَى حَيْثُ لَاحَى مَاضِيَا
وَأَنْحَرَ لِلشَّرْبِ السُّكْرَامَ مَطِيئِي وَأَصْدَعُ بَيْنَ الْقَيْنَتَيْنِ رَدَائِيَا (٢)
على أن بعض الشعراء كان لهم قيان يتغنين بشعرهم خاصة ، فكان
لعبد الله بن جندعان قيتان (٣) ، ولبشر بن عمرو بن مرثد قيتان (٤) ،
ولسلامة بن جندل قينة (٥) ، ولطرفة بن العبد قينة (٦) ، وكذلك
لعمر بن الإطنابة (٧) ، ولعبدة بن الطبيب (٨) ، ولعبد يغوث (٩) ،
وكان لامرئ القيس قيان يغنينه في رحلاته ولهوه (١٠) .

وكان كثير من الشعراء الحاضرين والباديين يعجبون بالقيان أيا
إعجاب ، وكان بعضهم يَكْتَفُ بهن ويتعشقهن ، فكان ينبوع حب
وغزل ووصف جميل . من هؤلاء الشعراء أَحْيَيْحَةَ بْنِ الْجُلَاحِ ، فهو
يتغزل بقينته مُلَيْكَةَ ، ويشتاق إليها في قوله :

(١) الأغانى ٣٧/١٠

(٢) الأغانى ٧٢/١٥

(٣) أوائل الأوائل ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان ٦٢ والأغانى ٣/٨

(٤) الأغانى ٧٧/٨

(٥) المفضليات ١١٨/١

(٦) ديوان طرفة ٢٨

(٧) الأغانى ١٦٤/٩

(٨) المفضليات ١٤٣/١

(٩) المفضليات ١٥٦/١

(١٠) الأغانى ٦٥/٨ والديوان ١٨٧

يشتاق قلبى إلى مَلَيْسَكَة لـو أَمَسْتُ قَرِيبَا مِمَّن يَطَالِبُهَا
بـأَحْسَنِ الْجَيِّدِ مِنْ مَلِيكَة وَاللَّسْبَاتِ إِذْ زَانَهَا تَرَاتِبُهَا
يَالَيْتَنِي لَيْسَلَةٌ إِذَا هَجَعَ الذُّ اسُّ وَنَامَ السُّكْلَابُ صَاحِبُهَا
فِي لَيْدَةٍ لَا يُرَى بِهَا أَحَدٌ يَسْعَى عَلَيْنَا إِلَّا كَوَاكِبُهَا
ومنها طرفة بن العبد ، فقد عرض للذات الشباب ، وفصل القول
في وصف القينة ، فقال :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين بُرْدٍ وَمُجَسِّدِ
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس السدائى بقصة التجرد
إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا على رسلها مطرفة لم تشد
إذا رجعت في صوتها خلعت صوتها تجاوب أظفار على ربع ردى (١)

والأعشى يبدأ مطوئته بذكر القينة هزيرة فيقول :

ودع هزيرة إن الراكب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوجل
ويقول في غزله بالقينة قتيلة :

ألم خيال من قتيلة بعدما وهى جلها من جلنا فتصرما (٢)
وله فيهما شعر كثير ، وأخبار شتى .

ويقول عمرو بن الإطنابة :

إن فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننا وعيشا رخيا

(١) ديوان طرفة ٢٩ مجسد : ثوب مصبوغ بالحناء وهو الزعفران . بقصة : رخصة .
مطروقة : حبيبة . أظفار : مرضعات . ربع ردى : وليد صغير ضعيف .

(٢) ديوان الأعشى القصيدة ٦

(٣) الديوان القصيدة ٥٥

يتسارين في النعم ويصيبون خلال القرون مسكا ذكيا
إنما همهن أن يتحليين ن سوطا وسنبلا فارسيا
من سوط المرجان فصل بالسد ر فأحسن بحطين حليا (١)
٣- فهل كان في هؤلاء القيان فارسيات ؟

نعم كان كثير منهن فارسيات ، إذ كان اتصال العرب بالفرس
في العصر الجاهلي أسرع وأوسع وأعمق من اتصالهم بغير الفرس ،
وكانت الحيرة جسرا بين العرب والفرس تعبره ألوان من المعارف
والثقافات ، وكان العرب يترددون كثيرا على فارس ، والفرس يترددون
كثيرا على بلاد العرب ، وكان الفرس قد حكموا حكما مباشرا حينما
وغير مباشر حينما أجزاء من جزيرة العرب ، كاليمن والبحرين ،
وكانت الحيرة نفسها كثيرا ماتخضع للفرس وتستظل بسلاطنتهم .

وقد مر بنا وصف حسان لمجلس في قصر الأمير الفسافي جبلة
ابن الأيهم ، وأنه سمع فيه خمس قيان يتغنين بغناء أهل الحيرة .

ونزيد على هذا أن النضر بن الحارث كان يحدث قريشا بقصص
الفرس ، وكان يشتري القيان الفارسيات ، فإذا ظفر بأحد يريد
الإسلام أخذه إلى قينته وقال لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، فإذا ما فعلت
ذلك قال له : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من صلاة وصيام وقتال (٢)

وكان عبد الله بن جدعان قد أتى كسرى ملك آل ساسان ، وسمع
عنده غناء الحسان ، وشدا بجانبها مسمع ، وكانت لعبد الله بن جدعان
قيان بغنون له ولأصدقائه ولمن يقصد داره ، وكان يتاجر فيهن ، وله
نخاس يتولى هذا ، وهو ضاحك القيتين اللتين سماهما بجرادتي غاد ،

(٢) السكشاف . سورة لقمان .

(١) الأفعال ٩/١٦٤

ووهبهما لأمية بن الصلت الثقفي (١).

وإننا لنجد في الشعر الجاهلي نصوصا كثيرة تدل على أن بعض

القيان كن من الفرس ، مثل قول عمرو بن الإطناية في وصفهن :

إنما همهن أن يتحلّين
من سموط المرجان قُصِّل بالذ
ن سموطا وسُنْبِلًا فارسيًا
رُفَّاحِينَ بِحَلِيهِنَّ حَلِيًا (٢)

وقول عبد المسيح بن عسلة :

وسماع مُدْجَنَةٌ تُعَلِّلُنَا
حتى تشوب تنسأوم العجم

وقول الأعشى يصف مجلس شراب وهو وغناء :

مُسْتَقٌّ سِينِينَ وَوَنٌّ وَبَرِبَطٌ
يجاوبه صَنِجٌ إِذَا مَاتَرْنَا (٣)

وكثيرا ماتغزل الأعشى بَهَرِيرَةٍ وَقَتِيلَةٍ ، وهما أو هريرة وخليفة

كانتا قيذمتين فارسيتين لبشر بن عمرو بن مرثد قدم بهما إلى اليمامة
لما هرب من النعمان ملك الحيرة (٤).

لكن الذي أستبعده أحراف النساء العربيات بالغناء في العصر

الجاهلي ، لأنهن مكفولات الرزق برجالهن أو بأعمال غير الغناء ، إذ أن

الغناء كان يقتضى المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تكشف عن

بعض مفاتنها ، وأن تكون مناط أنظارهم ومجمع أشتهاهم - كما

تحدث الشعراء - ولا يرضى رجل عربي أن تكون كذلك امرأة

تصلها به قرابة ، ولا ترتضى امرأة عربية لنفسها أن تبدو جله

(١) الأغانى ٢/٨ والهير ١٣٨ والأغانى ١٠/٩

(٢) الأغانى ١٦٤/٩ سموط : ثلاثه . سنبيل فارسى : نوع من الحلل .

(٣) ديوان الأعشى ٢٩٣

(٤) الأغانى ٧٧/٨

الصورة ، ولا تجرؤ على أن تشد عن بنات جنسها ، فتحتل هذا الموضع
المخصص للإماء .

ولهذا أرجح أن القيان كن غير عربيات ، فارسيات وروميات
وحبشيات .

وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليال ، فقال إن القيان كن فارسيات
أو يونانيات من سورية ، وإنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين
بلهجة أجنبية (١) ، وهو في هذا يتفق مع فون كرمر ، وإن ذهب فون
كرمر إلى أنهن كن يغنين بلسانهن اليوناني (٢) أو الفارسي .

أما الأدلة على غناء بعضهن بالشعر العربي فكثيرة سبق بعضها ،
ومنها قول عبدة بن الطبيب :

ثم اصطبَحْتُ كُمَيْتًا قَرَقَمًا أَنْفًا من طَيْبِ الرَّاحِ ، وَاللِّدَاتُ تَعْلِيلُ
صِرْفًا مِزَاجًا ، وَأَحْيَانًا يِعْلُنَا شِعْرٌ كَمُذَهَبَةِ السَّيَانِ مَحْمُولُ
قَلْدَرِي حَوَاشِيهِ جَيْسِدَاءِ آنَسَةَ فِي صَوْتِهَا لِسْمَاعِ الشَّرْبِ تَرْتِيلُ
تَغْدُو عَلَيْنَا تُلْهِينَا وَنَصْفِدُهَا تَلْقَى الْبُرُودَ عَلَيْهَا وَالسَّرَابِيلُ (٣)

كذلك كان بالمدينة قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغني النابغة
بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه (٤) .

(١) الشعر الفنائي في الأمصار الإسلامية ٥٤

(٢) Farmer. A. History of Arabian Must. p. 17.

(٣) للمفصليات ١ - ١٤٣ كيت : سخر في لونها سواد وخرة . قرقف : تصيب شاربها
برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفا مزاجا : خالصة وكانها مزوجة بالماء لطيبها .
يعلنا : يلهينا . السيان : وهي أو أصباغ . محمول : مروي ذائع حسه . قلدري : ترفع أو تسقط
جواشي غنائها نظريا وترجيعا . حواشيه : أطرافه . آنسة : منبسة متحدثة . نصفدها تغنيها .

(٤) الأطلال ١٩/١٥٨

والأمثلة على غنائهم بالشعر العربي كثيرة جدا (١) .

على أنه لا عجب في أن يتغنى بعضهم بغير اللغة العربية ، فيطرب سامعون ، لأنهم يطربون للصوت واللحن ويعجبون بالجمال ، فقد روى أن أبا تمام سمع بخراسان غناء بالفارسية ، فلم يدر ماهو ، غير أنه أشجاه ، فقال :

حمدتك ليلة شرفت وطابت	أقام سهادها ومضى كراها
سمعتُ بها غناء كان أولى	بأن يقتاد نفسى من عناها
ومُسَمِّعةٍ يحسار السمع فيها	ولم تُصنِّمَه لا يُصنِّمَ صداها
مرّت أوتارها فشجّت وشاقت	فلو يسطيع سامعها فداها
ولم أفهم معانيها ولسكن	ورّت كبدى فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى	يُحبُّ الغانيات ولا يراها (٢)

ويظهر أن عدد القيان والإماء الفارسيات كان كثيراً ، وأن العرب استولوا بعضهم ، لأن علي بن محمد المدائني ألف كتاباً ذكر فيه أسماء الذين تزوجوا فارسيات سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية (٣)) وأرجح أن ذلك الزواج كان قبل الإسلام ، لأن الإسلام لا يحل زواج المجوسية ، إذ أن المجوس يؤمنون بنبوة زرادشت ، ويكلمون سائر الأنبياء (٤) .

٤ - هذا الغناء كان يقتضى الموسيقى ، ولقد يعزى أن بعض القيان

(١) الأغاني ٧٨/٨ و ٣/٨ و ٧/١٠ و ١٤/١٦ و إنسان العيون ٣٨/٣ والطيرى ٣/١١٩
والإصابة ١٦٦/٨ و ٤/٨ والقند الفريد ٢٣١/٤ .
(٢) الأغاني ٦٥/٨ والديوان .
(٣) معجم الأدباء ١٤/١٣٣
(٤) المفصل ١/١١٣

كن فارسيات أننا نجد في الشعر العربي القديم أسماء فارسية لألات
الطرب والموسيقى .

من ذلك الطنبور كلمة فارسية معناها إلية الحمل (١) .

والبريط هو العود ، فارسي معرب ، معناه صدر البط أو الإوز (٢)
لأنه يشبهه .

والونج هو المعزف أو الزهر أو العود ، وقيل نوع من الصنج
فارسي معرب ، أصله ونة ، ونطقه العرب الون (٣) .

ومستق صيني آلة يضرب عليها ، ذكر الضبي أن الكلمة فارسية
أصلها ومشتقها صيني أي يؤخذ باليدين (٤) . وفي القاموس مشتقة بضم
التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه معرى (٥) .

وبحسبنا أن نسوق من شعر الأعشى ما يدل على معرفتهم بعض
هذه الآلات الفارسية قال الأعشى :

وبريطنا داعماً مَعْمَلُ فأي الثلاثة أزرى بها ؟

ترى الصنج يبكي له شجوه مخافة أن سوف يُدعى (٦) بها

وقال :

ومستقٌ صيني وونٌ وبريطٌ بجاوبه صنجٌ إذا ماترنا (٧)

(١) لسان العرب والقاموس المحيط مادة طنبور وفر هنك نفيس Steingass

(٢) اللسان والقاموس مادة بربط .

(٣) اللسان والقاموس مادة ونج .

(٤) الملاحى للقوى ٢١ مخطوط .

(٥) مادة ستوق .

(٦) الديوان ١٧٢ والمعاني السكبير لأبن فتيبة ٤٦٨/١ واللسان مادة صنج .

(٧) الملاحى للقوى ٢١ مخطوط .

أما الدف والكران والعود والمزهر فعربية الأصل ، نقلها الفرس عن العرب فيما بعد (١) .

وقد بقيت هذه الآلات إلى العصر الأموي ، وعزفت القيان عليها مثل سيرين وسلمى وجميلة ورائقة وعزة الميلاء (٢) .

٥- على أن الذي يتتبع أخبار ملوك الحيرة يجدهم يحاكون ملوك فارس في كثير من ضروب الأبهة ومظاهر الترف .

فقد حججوا أنفسهم عن الشعراء بأستار كما كان يفعل ملوك الفرس ، نستدل على هذا من أن الحارث بن حلزة أنشد عمرو بن هند قصيدته التي مطلعها :

آذنتنا بيئنه . أسماء ربنا ثاوٍ يمل منه الفواء

وكان ينشده من وراء سبعة ستور ، فأمر الملك برفع الستور ، استحسانا لما سمع ، وأدى الشاعر وقربه (٣) .

٦- وإذا فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسي والرومي والحبشي منذ الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء ، لأسماء الآلات الموسيقية الأجنبية قبل أن يبرز الإسلام ، ومن أن الغناء الفارسي والرومي كان معروفا لهم في الشام كما سمعه خسان بن ثابت ، لهذا رجحت أن بعض القيان كن فارسيات .

على أن التاريخ يحدثنا بأن الحارث بن كلدة قد تعلم العزف على

(١) المعجم العربي و Steingass

(٢) الأغان ٢/١٦

(٣) المدة ٢١/١ والشعر والشعراء ٥٣ .

العود بفارس واليمن ، ثم قدم مكة وعلم أهلها (١) ، ثم سافر ابنه
النضر إلى فارس كما سافر أبوه ، وتعلم هناك أشياء جليلة القدر (٢) .

١ فمن حقنا إذاً أن نصحح ما ذكره أبو الفرج ، أو نذهب في فهمه
مذهباً آخر ، ذلك أنه ذكر أن ابن مَحْرَزِ الفارسي الأصل شخص إلى
فارس وإلى الشام ، وتعلم الألحان ، وألف منها الأغاني التي صنعها في
أشعار العرب ، وهو الذي ابتكر غناء الرَّمَل ، وكان العرب والفرس
لا يعرفونه قبله ، لأن ابن سَلَمَك أول من غنى رملاً بالفارسية أيام
الرشيد محاكياً لأستاذه ابن مَحْرَزِ (٣) .

ثم ذكر أن سعيد بن مسجع المسكي الأسود أول من نقل غناء
الفرس إلى العرب ، لأنه تعلم هناك الغناء والضرب ، وتعلم بالشام
ألحان الروم ، ثم قدم الحجاز فعلم الناس محاسن تلك النغم (٤) .

وذكر في رواية ثالثة أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام
فسمع غنائهم بالفارسية ، فقلبه في شعر عربي ، وهو الذي علم ابن
سُرَيْج والغرييض (٥) .

١ وذكر في رواية رابعة : أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم
يبنون حوراً لمعاوية ، فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربي ثم صاغ
على نحوها (٦) .

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٠٩/١ وأخبار الحكماء ١١١

(٢) عيون الأنباء ١١٣/١

(٣) الأغاني ١٤٥/١

(٤) الأغاني ١٨/٣

(٥) الأغاني ٨١/٣

(٦) الأغاني ٨٤/٣

وهذه الروايات وإن اختلفت في ظروف نقل ابن مسجح للغناء الفارسي تتفق على أنه أول من نقله إلى الغناء العربي .

ويذهب في موضع آخر إلى أن سائب خاثر الفارسي الأصل أول من صنع مثل الغناء الفارسي في العربية ، وأنه أستاذ ابن سُرَيْج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم (١) .

ثم يقفوا بعض المؤرخين للحضارة الإسلامية أبا الفرج ، فيذهب نحدا بخش إلى أن الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب في الإسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجا ، وعلموا العرب الغناء على نغمات الدف والناي والعود والطنبور (٢) .

لكننا نلاحظ أن روايات أبي الفرج لا تلتقي على شخص معين يصح أن ينسب إليه السبق في إدخال الغناء الفارسي أو الرومي إلى العرب ، فهو مرة ابن مسجح ، ومرة ابن مُحَرِّز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نُشَيْط ، وخامسة طُوَيْس (٣) .

ولست أنكر أثر الغناء الفارسي أو الرومي في العربي ، وإنما أذهب إلى أن هؤلاء الذين ذكرهم أبو الفرج كان لهم الفضل في تجديده ورده بالإناء الأجنبي ، ولم يكن أي واحد منهم هو السابق ، لأن العرب — كما سبق — عرفوا الغناء الفارسي ، وعرفوا الغناء الرومي من قبل ، وأطربتهم به قياتهم ، ورددوا في لغتهم وشعرهم أسماء آلات وسيقية ورومية وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .

(١) الأغانى ١٧٩/٧

(٢) مقدمة نحدا بخش لسكتاب الحضارة الإسلامية للفون كريم ٢٥ .

(٣) الأغانى ٢٨/٤

٧- كانت الخمر المعتقة ترد إلى العرب من جهات شتى ، ومن أهمها بابل ، لهذا نسبوا الخمر إليها ، قال لبيد في غزله :
كَانَ الشَّمُولُ خَالِطَتْ فِي كَلَامِهَا جَنِيًّا مِنَ الرُّمَانِ لَدُنَا وَذَابِلًا
لِلدِّدَا وَمَنْقُوفًا بِصِصَائِي مُخِيَلَةً مِنَ النَّاصِعِ الْمُخْتَمِ مِنْ خَمْرِ بَابِلَا (١)
وكانت تأتيهم من حانة ، قال زهير :

كَانَ رِيْقَتِهَا بَعْدَ السُّكْرَى اغْتَبَقَتْ مِنْ خَمْرِ حَانَةٍ لَمَّا يَعُدُّ أَنْ عَتَقَا (٢)

ونسبها مالك بن جريم (حریم) الهمداني إلى فارس :
كَانَ جِنَا الْكَافُورِ وَالْمَسْكَ خَالِصًا وَبَرَدَ النَّدَى وَالْأَقْحَوَانَ الْمُنْرَعَا
وَقَلَّتْ سَا قَرَّتْ فِيهِ السَّحَابَةُ مَاءَهَا بِأَنْبِيَاهَا وَالْفَارِسِيُّ الْمَشْعَمَا (٣)
وكانت ترد من بيسان ، ذكر قيس بن عاصم التميمي أن تاجر الخمر كان يجيء بها من بيسان فيبيع له ، وما يزال الخمار في جواره يبيع له حتى يستهلك ماله :

وَتَاجِرٍ فَاجِرٍ جَاءَ إِلَيْهِ بِهِ كَانَ عَفْتُونَهُ أَذْنَابُ أَجْمَالِ
جَاءَ الْخَبِيثُ بِبَيْسَانِيَةٍ تَرَكَتْ صَحْبِي وَأَهْلِي بِلَا عَقْلِ وَلَا مَالِ (٤)
ونسبها الأصمعي إلى الفرس في قوله :

وِطْلَاءُ نَحْرُوَائِي إِذَا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغْنَى وَارْجَمَنَ (٥)

(١) ديوان لبيد ٢٦ الشمول : الخمر أو الباردة منها . منقوف : مزوج معنى . مخيلة : صحابة مطرة .

(٢) اللسان ١٧٥/١٧ حانة : بلد على الفرات تنسب إليه الخمر الألمانية . اغتبتت : شربت الخمر بالمعنى .

(٣) الأصمعيات ٥٨ الجن : كل ما يجيء . الأقحوان : نبت له نور أبيض . المنزع : المنزوع . القلت : النقرة في الجبل تمسك المساء . قرت : جمعت : الفارسي : المنسوب إلى فارس والمراد الخمر . المشعمة : المزوجة بالماء . بأنبيائها : خبر كان

(٤) الأغانى ١٢/١٤٥ والأشربة ٥٨ مخطوط ، والعقد الفريد ٣/٣١٢ . العفنون : الحمية

(٥) الديوان ٣٥٩ . طلاء : خمر . نحروائي : نسبة إلى نحرواشاه . ارجمن : اهتز وتمايل .

ولهم فنون من الإبداع في وصف الخمر ومجالسها ونداماتها وسقاتها
وأثرها في النفس ، يهمننا منه قول الأسود بن يعفر النهشلي إن الخمر
كان يسعى بها غلام مقرط منطلق ، وإنهم كانوا يشترونها بدراهم
فارسية :

ولقد هوت - وللشباب للذادة - بسلافة مزجت بماء عوادي
من خمر ذي نطف أعن منطلق وافي بها لدراهم الإسجد
يسعى بها ذو تومتين مشر قنات أنامله من الفرصاد (١)

٨- وكان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس في الترف ومظاهر
النعمة والعظمة ، فقصورهم مؤثثة بأثمن الأثاث ، وحوائقها مستورة
بأعز الأزهار ، وقواربهم الأنيقة الساطعة الأنوار تشق الفرات ليلا ،
حاملة أغني الأمراء وأمهر الموسيقيين ، لذا أطلق العرب لأنفسهم عنان
الخيال ، فقصوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التي أضحت
أجمل مساكن الشرق وأطيبها (٢) .

وكان القصر الملكي في الحيرة ينطق بالثراء والرفاهية ، كما
كما يبلى في مدائح الشعراء .

وقد بقى القصران العظيمان الخورنق والسليير يستعملان بعض
الاستعمال ، وكانت بقايا الخورنق مأوى الراجلين للصيد إلى أوائل

(١) المفضليات ١٨/٢ العوادي : السحب الناشئة غدوة . نطف : جمع نطفة بفتحين
وهي القرط. منطلق : غلام عليه نطق . الإسجد : السجود . ودراهم الإسجد هي دراهم الأكاسرة
كانت عليها صور يسجدون لها . تومتين . لولتين . قنات : اشتدت حرمتها حتى مالت إلى
السواد . الفرصاد : الثوب .

(٢) حضارة العرب ١١٦ جوستاف لوبون .

العصر العباسي (١) .

ونسب العرب إلى الفرس أنواعاً من الملابس ووسائل التجميل.

والزينة ، كقول عمرو بن الإطنابة في وصف قياتهم :

إِذَا مَمَّهَنَ أَنْ يَتَحَلَّى نَ سَمُوطًا وَسُنْبَلًا فَارِسِيًّا (٢)

وقول أبي دؤاد الإيادي :

لَمَنْ الظَّنُّ بِالضُّحَا وَارِدَاتِ جَدُولِ الْمَاءِ ثُمَّ رَحْنُ عَشِيهِ

مَظْهَرَاتِ رَقْمًا تُهَالِ لَهُ الْعَيْدُ نَ وَعَقْلًا وَعَقْمَةً فَارِسِيَّةً (٣)

وقوله أيضاً :

وَيَصْنُ الْوَجُوهَ فِي الْمَيْسَانِي كَمَا صَانُ قَرْنُ شَمْسِ عِمَامٍ (٤)

(١) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ٢٨٤ أوليري .

(٢) الألفاظ ١٦٤/٩

(٣) معجم البلدان ١٥٠/٤ الرقم : ضرب من الخبز أو من الوشي مخطط . العقيل : ثوب أحر يجلل به اليهودج أو ضرب من الوشي . العقمة . يفتح العين وكسرها المرط الأحر أو كل ثوب أحر .

(٤) الأسمعيات ٢١٤ الميساني : نوع من الثياب منسوب على غير قياس إلى ميسان وهي

كورة بين واسط والبصرة .

الفصل الثالث

أثر العرب في الفرس

ليس من الطبيعي أن تجتمع عوامل اتصال العرب بالفرس أحقاباً أطوالاً ، فيتأثر العرب بالفرس هذا التأثير الذي أسبقته ، ثم لا يتأثر الفرس بالعرب .

لكن مظاهر تأثير عرب الجاهلية في الفرس لا يستطيع توضيحها ، لأن أدب الفرس قبل أن يسلموا مجهول ، وأدبهم بعد هو المذنون المدروس .

هذا يبدو عظيمًا تأثير العرب وآثار الإسلام في لغة الفرس وآدابهم وثقافتهم ، كما سيتضح في فصل خاص .

على أننا نجد إثارة ثقلنا على أن العرب قبل الإسلام كان لهم في الفرس بعض التأثير .

(١)

ذلك أننا نقرأ في بعض كتب التاريخ العربية ما يدل على إعجاب الفرس بعرب الحيرة ، إذ يروون أن يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) الملقب بالأثيم دفع ابنه بهرام جُور إلى النعمان الأعور (٤٠٣ - ٤٣١ م) ليربيه تربية عربية ، ويذكرون أن النعمان بنى الخورنق مسكناً لبهرام ،

وأنه كان يخرج إلى البادية (١) . وفي رواية أخرى أن الذي تعهد تربية بهرام هو المنذر بن النعمان (٢) ، لكن هذه الرواية لا تتماشى مع سنوات حكم المنذر (٤٣١ - ٤٧٣ م) وحكم يزيدجرد ، إذ كان قد توفي قبل ولاية المنذر .

ويزيد بعضهم الأمر تفصيلاً ، فيذكر أن بهرام رضع من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتعلم على أساتذة من الفرس والروم ومن العرب ، ويقولون إنه أجاد اللغة العربية ، وقرض الشعر العربي والفارسي (٣) . ثم يرتبون على هذه العلاقة الوثيقة نتيجتين تلامحاً : أولاهما أن بهرام جور استعان بالعرب على أن يخلف أباه على عرشه فأعانوه ، إذ كان كثير من أشراف الفرس تعاقبوا - بعد وفاة يزيدجرد - على ألا يملكوا أحداً من أشراف ذرية يزيدجرد ، لسوء سيرته ، وقالوا إنه لم يخلف ولداً غير بهرام ، وإن بهرام لم يتول ولاية يختبر بها ، ولم يتأدب بأدب العجم ، وإنما أدبه العرب فصار أشبه بهم في أخلاقه ، واتفقوا على صرف الملك عنه إلى آخر (٤) .

ثانيتها أن خصوم بهرام خشوا - بعد انتصاره عليهم ، وبعد توليه الملك - أن ينكل بهم ، فتوسطوا بالعرب ، ليشجاوز عن مساعدتهم إليه ، فاستجاب بهرام ، وعفا عنهم (٥) .

ولقد يعزز ما ذكره مؤرخو العرب ، وينفع الشك عنه ، ما ذكره

محمد عوف وشمس الدين محمد الرازي .

(١) الطبري ٧٢/٢

(٢) الطبري ٧٤/٢

(٣) مروج الذهب ١٢٦/١ والتلبيح والإشراف ٨٨

(٥) الطبري ٨٧/٢

(٤) الطبري ٧٤/٢

أما محمد عوفي فقد ذكر في (لباب الألباب) وهو أول كتاب في تاريخ الأدب الفارسي أن بهرام جور أول من أنشأ شعراً بالفارسية ، وأنه تعلم الشعر من العرب ، إذ نشأ بينهم ، وعرف دقائق لغتهم ، وكان له شعر عربي بليغ .

ويضيف عوفي إلى ذلك أنه رأى ديوانه في خزانة كتب في بخارى ، وأنه قرأه ونقل بعضه ، وكانت به أبيات نظمها حيناً رجع من الحيرة إلى فارس ، واستقر على سرير الملك بتأييد من العرب (١) .

وأما شمس الدين الرازي فيذكر في كتابه (المعجم في معايير أشعار العجم) أن بهرام جور تربى في الحيرة ، وتآدب بآداب العرب ، ويقول إن حماد بن أبي ليلى - الراوية - روى عن أهل الحيرة قطعاً من الشعر العربي لبهرام ، ثم يروي بيت بهرام الذي يزعم أن أول شعر فارسي ، ويقول : ورأيت في بعض كتب الفرس أن علماء عصر بهرام لم ينكروا شيئاً من أخلاقه وأحواله إلا قول الشعر ، فلما بلغت إليه نوبة الملك ، واستقر له الأمر ، وتقدم إليه الحكيم آذريباد ونصحه قائلاً : أيها الملك اعلم أن قول الشعر من كبار معائب الملوك ، ودنى عاداتهم ، لأن أساسه على الكذب والزور ، وبنائه على المبالغة الفاحشة والغلو المفرط ، ولذلك أعرض عن الشعر العظماء من علماء الدين ، وضموه وعللوا مهاجمة الشعراء من أسباب هلاك الممالك السالفة والأمم الماضية ، فارهوى بهرام ، ولم يقل شعراً بعد ، ولا سمعه ، ونهى عنه أولاده وأقاربه (٢) .

(١) الأدب الفارسي الإسلامي ، الدكتور عبد الوهاب عزام . من قصة الأدب في العالم ١/٤٤٨

(٢) المرجع السابق ١/٤٥٠

(٢)

وكان مؤرخو الفرس قد دونوا تاريخ العرب ، ثم استقى منه كثير
من أرنخوا للعرب ، فالطبرى مثلاً يقول : « وكان أمر آل نصر بن
ربيعة ومن كان من ولاية ملوك الفرس وعملهم على ثغر العرب اللين هم
ببادية العراق عند أهل الحيرة منبعاً لما كان مثبتاً عندهم في كنائسهم
وأشعارهم . وقد حُثِّتُ عن هشام بن محمد الكلبي أنه قال : إني كنت
أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من
عمل منهم لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم ، من بيع الحيرة ، وفيها
ملكهم وأمورهم كلها (١) .

الباب الثاني

في الإسلام

الفصل الأول

عوامل الاتصال

ما كادت أشعة الإسلام تثير جزيرة العرب حتى تسخطها إلى ما حولها ، فتعددت عوامل اتصال العرب بالفرس ، كما تعددت أسباب اتصالهم بغير الفرس .

وإذا كان العرب قد اتصلوا بالفرس قبل الإسلام وتأثروا بهم أكثر مما أثروا فيهم ، فإن الصلات المتبادلة كانت في الإسلام أكثر أسباباً ، وأعظم آثاراً ، وأبقى دلائل ومظاهر ، لأنها كانت في العصر الجاهلي فردية وشبه فردية ، وكانت عاجلة وسطحية ، وكانت من جانب العرب وحدهم في الأعم الأغلب ، أما في الإسلام فإن الاتصال كان من العرب ومن الفرس معاً ، وكان المخلاط جمعياً لا فردياً ، وعميقاً لاسطحياً ، وثابتاً طويل الأجل لا عابراً ولا قصير الزمن ، وقد كان منبع هذا كله فتح العرب بلاد الفرس .

(١) في مشرق النبوة

على أن الاتصال قد بدأ منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، فسلمان الصحابي الجليل كان فارسياً من مدينة بناحية أصفهان ، وكان

أبوه دهقان المدينة (١) ، وكان سلمان مجوسياً يوقد النار ، ثم ارتحل إلى المدينة وأسلم ، وآخى رسول الله بينه وبين أبي الدرداء عويمر بن كعب الخزرجي ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق بعد أن ساعده النبي والمسلمون على التحرر من الرق ، ثم لم يقته مشهد بعد (٢) .

ويقال إنه أشار على رسول الله بحضر الخندق حول المدينة لما هجم عليها الأحزاب ، وإن المهاجرين قالوا يوم الخندق : سلمان منا ، وإن الأنصار قالوا : سلمان منا ، فقال رسول الله : سلمان منا أهل البيت (٣)

وكان سلمان عالماً زاهداً روى عنه أنس وكعب بن عجرة وعبدالله بن عباس وأبو سعيد وغيرهم من الصحابة ، وروى عنه من التابعين أبو عثمان ، وفي أخباره أنه تزوج امرأة من كندة ، وأنه كان يتصدق بعطائه ، وينسج الخوص ، ويأكل من عمل يده (٤) .

وفي السنة السادسة من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى كسرى بن هرمز ملك فارس مع عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي بدعوه فيه إلى الإسلام هذا نصه :

« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ،

(١) الدهقان : الشيخ العارف بالفلسة .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٢٨/١

(٣) السيرة ٣٣٥/٣

(٤) الإصابة ١١٤/٣

بإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول
على الكافرين .

فَأَسْلِمَ تَسْلِمًا ، فَإِنْ إِثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ .

فلما قرأ كسرى الكتاب مزقه ، وقال : أيكذب إلى هذا وهو عبدى ؟
فلما علم رسول الله قال : مزق الله ملكه .

ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل
الذى بالحجاز رجلين جلدنين ، وأرسله إلى .

فبعث باذان رجلين من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله يأمره
أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فلما قدما على رسول الله وأعلماه
بما يريدان ، وهدداه إن لم يستجب ، قال لهما إن الله قد سلط على
كسرى ابنه - شيرويه - فقتله ليلة كذا من شهر كذا (١) ، فعادا
إلى باذان فأخبراه ، فقال : ما هذا بكلام ملك ، وإلى لأرى الرجل نبيا
كما يقول ، فلننتظر ، فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره
أنه قتل أباه غضباً للفرس ، ويأمره ألا يعرض بسوء للرجل الذى كان
كسرى قد طلبه من الحجاز ، فأيقن باذان أن محمداً رسول الله حقاً ،
وأسلم ، وأسلم الفرس اللين باليمن (٢) .

(٢) فتح فارس

ضعف الفرس قبيل الفتح :

اتفقت عوامل الضعف في فارس حتى استحسنت على الإصلاح

منذ أواخر القرن الخامس الميلادى .

(١) قال الواقدي إنه قتل ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع .

(٢) تاريخ الطبرى ٣/٩٠ وسورة ابن هشام ١/٦٤

فقد كان الشعب ينوء بالانقسام الدينى ، بين زرادشتية هي الدين
الرسمى للدولة ، رجالها يضطهدون الديانات الأخرى ، ومأنوية تدعو
إلى الكسل والزهد والرهينة وترك الزواج ، ليفنى العالم المادى ،
ويعود النور إلى موطنه الأصيل ، ومزدكية تحض على الشيع فى
الأموال والنساء ، ونصرانية يصطرح مذهبها النسطورى واليعقوبى ،
على حين أن الحكومة الفارسية تضطهد النساطرة واليعاقبة فى كل حرب
تنشب بينها وبين الإمبراطورية البيزنطية ، وكان هناك يهود وصابئة
يقاسون ألواناً من الاضطهاد والتنكيل .

وكانت الحكومة قد أنهكتها الحروب المتوالية مع جيرانها وبخاصة
الإمبراطورية البيزنطية فى الغرب ، والقبائل التركية فى الشرق ، وهذه
الحروب اقتضت ضرائب باهظة أثقلت الشعب .

ولم يستطع الشعب أن يعبر عن سخطه فى جو الحكم المطلق ، فنظام
الملك وراثى قائم على أن كسرى يملك بتفويض من الله ، والأكاسرة
منقطعون — أو شبه منقطعين — عن الرعية ، والشعب يدين بأن ملوكه
مختارون من الله ليتولوا سياسته ، ولهم على الناس السمع والطاعة ،
وليس عليهم حق لأحد من الناس .

يقول نولدكه : « إن الملوك الفرس كانوا يزعمون أنهم وخدمهم
أصحاب الحق فى لبس التاج ، بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى » .
ويقول برُون : « إن نظرية الحق الإلهى لم تحتق كما اعتنقت فى
فارس فى عهد الملوك الساسانية » ويوافقهما فى هذا الوصف دُوزى
وملر وغيرهما (١) .

(١) راجع أدب السيامة فى العصر الأموى لمؤلف ٣٤ .

وكان من نتائج ضعف الفرس أن انتصرت بعض القبائل العربية على جيشهم في موقعة ذي قار حوالي ٦١٠ م ، كما قدمنا في علاقة العرب بالفرس في الجاهلية ، وأن تعاقب على العرش الفارسي اثنا عشر ملكاً من رجال ونساء وصبيان وغازيين للملك ، في عشر السنوات التي سبقت الفتح الإسلامي .

لكن العرب مازلوا يظنون بالفرس القوة التي عهدوها وسعوا بها ، فلما آن لهم أن يفتحوا بلادهم تهيّبوا ، إذ جعل عمر بن الخطاب يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس ، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم (١) .
ثم استجابوا لعمر ومضوا إلى بلاد الفرس سراغاً .

سير الفتح

لما فرغ خالد بن الوليد من إخضاع ثورة المرتدين وجهه أبو بكر ومعه المشنقى بن حارثة إلى العراق ، فأخضع القبائل العربية بجنوب الفرات ، ثم استولى على الحيرة والأنبار سنة ٦١٢ . وكتب خالد إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية ، فصمّوا على الحرب . ثم توجه خالد إلى الشام ، فحدثت بين العرب والفرس وقائع انتصر المسلمون في بعضها ، وانهزموا في موقعة الجسر سنة ٦١٣ ، ثم انتصروا في يوم البويب .

ولما دهم الفرس مادهمهم ، اجتمع عظماءهم وأصلحوا ما بين رستم ومناقسه الفيرزان ، وأجمعوا على تولية يزيدجرد الثالث ، وتبارى المرازبة في طاعته ، وأعدوا العدة لطرده المسلمين من العراق .

(١) الطبري ٦١/٤

حيثئذ هم صمّر أن يشخص إليهم بأنفسه ، واستشار أصحابه فأشاروا عليه بأن يقيم ويبعث إليهم الصحابة واحداً بعد آخر ، ويمثله بالجنود ، فقبل مشورتهم ، واختار سعد بن أبي وقاص ، وفده بجيش بلغ نحو ثمانية آلاف ، والتقى الجيشان في القادسية (١) ، فانتصر المسلمون على الفرس بعد جهاد وجلاذ ومصابرة . وقتل رستم سنة ١٦هـ (٦٣٧ م) وبعد ذلك فتح المسلمون المدائن عاصمة الفرس ، وهزموا الفرس مرة أخرى عند جلولاء ، فصار العراق ملكاً لهم .

ثم انسحوا في بلاد الفرس . وهزمهم في موقعة نهاوند ، سنة ٢١هـ وقد عرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح ؛ لأنها الموقعة الفاصلة التي كفلت للمسلمين الاستيلاء على فارس . وما زال المسلمون يطاردون يزيدجرد الثالث ، ويستولون على بلاده حتى اضطر إلى الفرار ، إلى أن قتل سنة ٣١هـ في عهد عثمان بن عفان ، وبموته انقرضت دولة آل ساسان . كان من نتائج هذا الفتح أن انفسح المجال لتيارات اتصال الشعبين ، فصارت الخيوط التي كانت تصلهما في الجاهلية طرقات فسيحة مهيأة ، وصارت العلاقات الفردية روابط جماعية ، وأصبحت الصلات الموقوتة عرى دائمة .

آثار الفتح

حسبنا أن نذكر من نتائجه ونتائج الاتصال عدة مظاهر :

١ — مدن جديدة :

أسس العرب بين جزيرتهم وبلاد الفرس مدينتي البصرة والكوفة ،

(١) موضع على حافة البادية بالقرب من الكوفة .

ثم أسسوا فيها بعد مدينة بغداد (١) على نهر دجلة بالقرب من فارس ،
وسرعان ما امتلأت هذه المدن وغيرها بمهاجري العرب من يمينية ونزارية ،
وشرقت بالوافدين عليها من الفرس ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدن ،
وصارت من مراكز الثقافة العربية والإسلامية .

كذلك انتشر الفرس في بلاد الجزيرة وما حولها ، واندمجوا بالعرب
واستعربوا .

٢ — إقبال الفرس على الإسلام :

أقبل كثير من الفرس على اعتناق الإسلام أحراراً مختارين ، في
غير ما لإجبار ، أو اضطرار ، لأن المظالم التي اصطلوا بنيرانها قبل
الإسلام حبيت إليهم أن يقبلوا سراعاً على اعتناقه فكفل لهم المسلمون
حريتهم الدينية ، وعاملوا أتباع الزرادشتية معاملة أهل الكتاب ،
فقبلوا منهم أن يبقوا على دينهم ويلفحوا الجزية .

٣ — إقبالهم على اللغة العربية :

وإذ كانت اللغة العربية لغة الدين الذي آمن به كثير منهم ، ولغة
الفاطميين الذين يتصلون بهم ، تسابق كثير منهم إلى تعلمها ، وسرعان
ما أجادها بعضهم ، وكانوا قلوة لمن بعلمهم ، حتى صار كثير من
مشهورى الشعراء والكتاب والعلماء باللغة والدين من أبناء الفرس .

٤ — خضوعهم للحكم العربي :

اتسعت دائرة الخلافة الإسلامية ، وكثرت خيراتها ، إذ ضم

(١) أخذ الباسيون السكوة عاصمة لهم سنة ٨١٣٢ . وكانوا يقيمون أحياناً بالماشية
شمال السكوة ، وأحياناً بالأنبار ، فلما أنشأ المنصور بغداد سنة ٩٤٩ وجعلها العاصمة بدأت
السكوة تفقد مركزها السياسي ، لكنها بقيت مدة طويلة مركزاً للثقافة . وكانت البصرة
محمومة بالأعاجم من فرس وهنود ويونان ، يسلمون في التجارة والتملاحة ، وهذا هو السبب في
أنها كانت المنبع الأول للاحتكاك الديني في العقائد ، حيث نشأت الفرق الدينية كالمعتادة
المرد على أصحاب الملل القديمة الذين تهجسوا على الإسلام .

المسلمون مملكة كبيرة كثيرة الخيرات إلى حوزتهم ، وملكوا كنوز الفرس ، وما أعظمها ، فصار هذا الثراء من روافد الثرف الذي سنتحدث عنه .

٥ - التمازج :

جعل الخلاط يقوى شيئاً فشيئاً منذ الفتح إلى آخر العصر الأموي ، فلما قامت الدولة العباسية - وكان للفرس ضلع في إقامتها - توثقت الصلات بالمخالطة والمجاورة والمعاشرة والمصاهرة ، فكثر من أبناء العرب من أمه فارسية ، ومن أبناء الفرس من أمه عربية .

وزاحم الفرس العرب في الوزارة والحجابة وقيادة الجيوش وجباية الأموال وولاية الأقاليم ومنادمة الخلفاء ، ثم غلبوهم عليها .

وكان من ثمرات هذا كله أن تأثر العرب بالفرس في كثير من أساليب الحكم ومظاهر الحياة ، حتى إن خلفاء بني العباس كانوا حراساً على معرفة تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم ، وكان بعضهم يصطحب معه من يقص عليه تاريخهم ، كما كان السفاح يصطحب أباً بكر الهذلي ويستمع إليه ، وكما طلب المنصور - حينما هم بقتل أبي مسلم ، وتردد بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق ليلته - من إسحاق بن مسلم العقبلي أن يحدثه حديث الملك الفارسي سابور الأكبر الذي قتل وزيره (١) .

٦ - مؤازرة الفرس العباسيين :

لما هب محمد بن عبد الله بن العباس يدعو لآل العباس ، ويقوض دعائم الملك الأموي اتخذ خراسان مجالاً لبث دعوته ، وكان اختياره موفقياً ، لأن أكثر من بالشام والعراق وجزيرة العرب كان هواهم أمويّاً .

(١) البيان والتبيين ٢/٢٩٨

ولأن في خراسان - كما قال محمد العباسي - « العدد الكثير ، والجَلَد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقلم عليها الفساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب وأصوات هائلة ... وإني أتفائل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

ولما وجه إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان سنة ١٢٨ هـ قال له : « يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم ، فإن الله لا يثم هذا الأمر إلا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم ، وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت في أمره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء ، وإن استطعت ألا تدع في خراسان لسائناً عربياً فافعل ، فأبنا غلام بلغ خمسة أشبار تنهمه فاقتله (١) » .

ومعنى هذا أنه يعتمد على الفرس وعلى من بها من العرب اليمنية ، وينظر إلى العرب الآخرين هناك نظرته إلى العدو ، ويود أن يقضي عليهم ليبلغ ما يريد .

ثم إن الفرس كانوا حانقين على العرب عامة ، وعلى بني أمية خاصة .

وليس من المستبعد أن يكون ذوو الرأي من أبناء الفرس قد تطلعوا في أواخر الدولة الأموية إلى إقامة دولة جديدة تقربهم وترفع من أقدارهم ، وقد كان الفرس يتخلون التشيع لعل وآل بيته لونا سياسياً ، إذ كانوا

قد وثقوا بأنه من المستحيل أن يسترد الفرس في ذلك الوقت استقلالهم السياسي وحریتهم الدينية على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام . فلم يكن بد من أن يصلوا إلى السلطان من طريق الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا الضعيف المضطهد من هذه الأحزاب وهو حزب العلويين ، وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهداً أقبح الاضطهاد أيام بني أمية ، فأيده الفرس وناصروه حتى وصلوا به إلى السلطان ، ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ، لأن ظروف سياسة خاصة دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بني علي ، فلان الفرس ومرنوا وآزرُوا بني العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدّد منهم في مذهبهم العلوي قوم لقوا في سبيل هذا المذهب منايهم ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضاً (١) .

ولم يكن ذلك الأمل الذي راود الموالى بخاف على ساسة العرب ، فهذا نصر بن سيار - والى خراسان في عهد هشام الثاني - يدعو الغرب إلى الوحدة ، ويبيب بالنزاريين واليانيين أن يتآخروا ، ليتقوا الهلاك الذي يبيته العجم لهم ، ويوبخهم على غفاتهم عن أولئك الأعداء :

أبلغ ربيعة في مَرِّهِ وإخوتهم فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا للحرب إن القوم قد نصّبوا حرباً يُحرق في حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجاج عن رأيكم عُرِب (٢)
وتتركون عدواً قد أظلمكم ممن تآشب ، لا دين ولا حَسَب (٣)

(١) حديث الأرباب المذكور طه حسين ٢٢٢/٢ .

(٢) تلقحون : المراد تكثرون وتولدون . الحجاج : العقل . عُرِب : جمع أعزب وهو

البنية جداً .

(٣) تآشب : تجمّع .

قوما يدينون ديننا ما سمعتُ به عن الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم فإن دينهم أن تهلك العرب
ويظهر أن نذير الخطر نهبه العرب المتعادين إلى أن يتحدوا ليدفعوا
الهلاك النازل بهم ، فقد توادعت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن
على التعاضد وقتال أبي مسلم الخراساني ، لكن أبا مسلم وأخوانه فوتوا
عليهم هذه الوحدة ، وأشعلوا نار الفتنة من جديد (١) .

والعجب أن كان في أعوان أبي مسلم اليمينيون والرَّبِيعِيُّونَ ، وأن كان
في النقباء كثير من العرب كقحطبة الطائي ، وقد رويت له خطبة في
أهل خراسان يحمسه فيها على الثورة ، ويذكرهم بعظمتهم السابقة ،
ويحقر من شأن العرب ، كقوله : « هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ،
وكانوا يُنصرون على عدوهم ، لعلمهم وحسن سيرتهم ، حتى بدلوا وظلموا ،
فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذل أمة
كانت في الأرض عندهم ، فغلبهم على بلادهم ... ثم بدلوا وغيروا وأخافوا
أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلطكم الله
عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ، لأنكم طلبتموهم
بالنار (٢) » .

ولما كانت زعامة الشيعة قد آلت إلى محمد بن علي بن عبد الله
ابن العباس . نشط إلى ترويض الدعوة السرية ، إذ عين للشيعة نقباء
ودعاة ، وأوصاهم ببث الدعوة سرا ، وبالتظاهر بها لآل البيت عامة
من غير تعيين لفرد .

(١) تاريخ ابن خلدون ١١٩/٢ ، ١٤١/٣

(٢) الطبري ٩٨/٩ - ١٠٦

وكان للدعوة مركزان : أحدهما الكوفة ، وهي ملائى بالموالى من
الفرس ، وملائى بالشيعة ، وكانت عاصمة الخلافة زمن على ، والآخر
خراسان ، وهي ساخطة على بنى أمية كما تقدم .

وقد جاب الدعوة البلاد منذ أوائل القرن الثاني ، يمارسون التجارة
في الظاهر ، ويبثون الدعوة في السر ، وظلوا كذلك نحو سبعة وعشرين
عاماً .

وكان ولاية بنى أمية في خراسان يطاردونهم وينسكلون بهم ، حتى إن
أسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان كان إذا ظفر بأحدهم قطع يديه
ورجليه ، وصلبه ، لكنهم مضوا في دعوتهم على الرغم مما ينصب عليهم
من حتوف .

وكان البيت مرواني قد أصيب بالتفكك والضعف ، وجعل كثير
من الأمراء وولاة العهود يكيدهم بعضهم لبعض ، وكانت الفتن والثورات
تتفاقم ، حتى إن عهد آخر بنى أمية — وهو مروان بن محمد — زلزلته
ثورات الولاة عليه في أنحاء الدولة ، وزلزلته دعوة الشيعة في كل مكان ،
وهزته ثورة بقايا الخوارج بزعامة الضحالك الشيبالى .

وبذل مروان جهوداً في إخماد هذه الثورات ، فانتصر على كثير
منها ، لكنه شغل عما كان يحدث في خراسان ، فاتسع المجال هناك
للشيعة ، واستطاع دعايتها بزعامة أبى مسلم الخراسانى أن ينتزعوها من
بنى أمية ، مستندين إلى العصبية القومية والحزبية الشيعة ، ومنتهزين
الشقاق بين القبائل العربية ومؤازرة اليمينية لهم ، ثم اتجهوا إلى العراق .
واستولوا عليه ، وأعلنوا الدعوة لبنى العباس ، وبويح أبو العباس
عبد الله الملقب بالسفاح سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) بالكوفة ، ثم انتصر

على مروان بن محمد في العام نفسه ، فهرب مروان إلى مصر ، فتعقبه صالح بن علي ، وقتله في قرية بوضير آخر سنة ١٣٢ هـ . وبقتله تقوضت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية .

إشادة العباسيين بهم :

لم يَغْمِطْ بنو العباس فضل الفرس في قيام دولتهم ، بل جاهدوا به مرات . قال داود بن علي في خطبته يوم بويج السفاح بالخلافة : « يا أهل الكوفة ، إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتانا الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وببيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام .. إن لكل أهل بيت مضرًا ، وإنكم مضرنا (١) . »

وخطب أبو جعفر المنصور في أهل خراسان فقال : « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا » ، وبعد أن عدد مالات العلويين وبنو هاشم من اضطهاد قال : « حتى ابتعثكم الله لنا شيعه وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقَرَّ الحق مَقَرَّهُ ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » .

ولم ينس أن يوصي ابنه وهو شاخص إلى الحج سنة ١٥٨ هـ بأهل خراسان في قوله : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماهم دونك ، ومن لا يخرج

(١) تاريخ الطبري ١٢٧/٩ أُلجج حجتنا : ونسبها وقواها

محببتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن سيئهم ، وتكافئهم
على ما كان منهم ، وتختلف من مات منهم في أهله وولده (١) .
فإذا ذهبنا نستشهد بأقوال المؤرخين وجدنا كثيراً من نوع هذا
الاعتراف ، فالمسعودي يذكر أنهم كانوا يسمون بابك خراسان في بغداد
باب الدولة ، لأن الدولة العباسية أقيمت من خراسان (٢) .
والجاحظ يقول : دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني
مروان عربية أعرابية .

٧ - مؤازرتهم للمأمون على الأمين :

ثم ناصروا المأمون على أخيه الأمين .

ذلك أن الرشيد قد عهد بولاية العهد إلى أبنائه الثلاثة معاً :
الأمين والمأمون والتمام ، ثم قسم البلاد بينهم ، فجعل الشرق للمأمون
- خراسان والرى إلى همدان - وجعل الغرب للأمين - المغرب ومصر والشام -
وجعل للقاسم الذي سماه المؤمن الجزيرة والشور والحواسم .
وهو بذلك ألقى بأسهم بينهم ، وغرس شجرة الشر بيده ، وتحقق
ما قاله الشاعر (٣) :

رأى الملك الملهبُ شرُّ رأيٍ	لقسمته الخلافة والبلاد
نقد غرس العداوة غير آل	وأورث شمل ألفتهم بدادا (٤)
وألصق بينهم حرباً عواناً	وصلس لاجتنابهم القيسادا

(١) الطبري ٣١٩/٩ .

(٢) مروج الذهب ١٨١/٢ .

(٣) الطبري ٧٢/١٠ .

(٤) أهداد يفتح الباء الميارة والراء هنا المدفوعة .

فَوَزَّرُ بِلَايِهِمْ أَبْسَدَا عَلَيْهِ أَغْيَا كَانَ ذَلِكَ أَمْ رَشَادَا
لكن الأُميين أراد أن ينسحب أخاه المأمون فعزز المأمون مركزه بخراسان ،
وقرب إليه الأشراف ورؤساء العشائر ، فسرب به أهل خراسان وعاضلوه
وناصروه وقالوا : ابن أختنا - إذ كانت أمه فارسية الأصل - وابن عم نبيتنا .
وتواترت كتبه إلى أخيه محمد الأُميين بالتعظيم والهدايا ، لكن
البطانة أشعلت جلوة الحقد بين الأخوين ، فأعلن الأُميين خلع أخيه ،
فكان ردّ المأمون أن أعلن نفسه خليفة ، وقامت الحرب بينهما ،
وانتهت بانتصار المأمون وقتل الأُميين سنة ١٩٨ هـ .
يرى موير أن انتصار المأمون على الأُميين بمائل انتصار العباسيين
على الأمويين ، لأن كليهما انتصار للفرس على العرب .
ثم ازداد نفوذهم في عهد المأمون إذ كانوا أعوانه على الأُميين ،
وكان يجهر بإيثارهم ، فقد تعرض رجل له بالشام مراراً فقال له :
يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ،
فقال : « أكثرت عليّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل
إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فوالله
ما أحببتها ولا أحببني قط ، وأما قضاة فسادتها تنتظر السُفْياني وخروجه
فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ،
ولم يخرج اثنين إلا خرج أحدهما شاربياً ، اعزّب فعل الله بك (١) » ١١ .
ثم لم يلبث الترك أن سيطروا على شؤون الخلافة في عهد المعتصم ، إذ
استكثر من الترك ، وآثرهم على الفرس ، فنكّل الترك بالفرس والعرب معاً .

(١) الطبري ، ٢٩٦/١٠ الشامي : الفارسي . السليمان مثل المهدي المنتظر الذي تنتظره الشيعة

(راجع أدب السياسة في العصر الأموي) .

الفصل البشاني

أبشار الفرس في الإدارة السياسية

غلبة الصيغة العربية أول الأمر :

قامت الدولة العباسية مستندة إلى عصبيتها من الموالى الذين آزروها وأصطفقتهم ، وكان منهم أكفاء في شؤون الإدارة والسياسة ، لا يعيب كثيراً منهم إلا طموحهم إلى استعادة مجد الفرس وحكمهم .

على أن الدولة العباسية لم تتغافل عن عروبتها في إبان قوتها . بل اعتمدت عليها لتتق بها أولئك الفرس المتطلعين إلى إعادة ملكهم ، فاصطنعت كثيراً من رجال العرب من ربيعة ومُضَر واليمن ، لكن بني العباس لم ينتهبوا إلى ما بين القبائل العربية من بغضاء وقرتها نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولعلمهم انتهبوا إلى هذه البغضاء ، لكنهم ارتضوها ليستعينوا بفريق على فريق ، ولو أنهم جدوا في إزالة ما بين القبائل العربية الموالية لهم من خصومة وحزاة لوجدوا فيها ملجأهم الأمين ، ودرعهم التي تقيهم هجمات الموالى من فرس ومن ترك .

حقاً إن الفرس كانوا أصحباب نفوذ عظيم في العصر العباسي الأول ، لكنه لم يطغ على سلطان الخلفاء كما حدث من الفرس ومن الترك في العصر العباسي الثاني ، فقد كان خلفاء بني العباس في العصر الأول ما زالوا يعتزون بعروبتهم ، ويحرصون على سلطتهم ، لهذا لم يتوانوا في التنكيل بالفرس إذا ما تخوفوهم على الخلافة أو على الخليفة ، فالسفاح قتل وزيره الفارسي أباً سلمة الخلال ، والمنصور قتل قائده الفارسي

الكبير أبا مسلم الخراساني ، ثم جاء الرشيد ففتك بالبرامكة ، وجاء
المأمون فقتل وزيره الفارسي الفضل بن سهل .

كان الوزراء في العصر العباسي الأول أكثرهم من الفرس ، وكان
القواد من العرب ومن الفرس ، وكذلك ولاية الأقاليم ، وكان جند
المنصور من أربع فرق : ثلاث من العرب ورابعة من الفرس (١) .

ومعنى هذا أن العرب مازالوا يحتفظون بكثير من نفوذهم ، وأن
الحكم لم يصطبغ بالصبغة الفارسية التي لونت في العصر العباسي الثاني ،
وإلا ما اشتهر أمثال هؤلاء القواد من العرب : معن بن زائدة الشيباني ،
وسعيد بن مسلم الباهلي ، والمهلب بن أبي صفرة ، وأبو ذؤلف العجلي ،
ودرواح بن حاتم بن قبيصة ، وثمامة بن أشرس .

(١) الوزراء

كان العرب في الجاهلية وفي العصر الإسلامي يعرفون كلمة وزير ،
لكنهم لم يريدوا بها المعنى الاصطلاحي الذي عرفوه في العصر العباسي
والذي نعرفه اليوم ، وإنما أرادوا بها النصير والمشير ، فكان للنبي
واللخفاء الراشدين ولبنى أمية أعوان ومستشارون يقومون بأعمال الوزراء ،
ولم يُطلق على واحد منهم لقب وزير .

وهي بهذا المعنى وردت في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام
في قوله تعالى : « واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، أشدُّ به أزرى ،
وأشركه في أمري » . (٢)

(١) الطبري ٩/٢٨٢

(٢) سورة طه ٢٩ - ٣٢

أما في العصر العباسي فعرفوا المعنى السياسي للوزير ، كما كان الفرس يعرفونه ، إذ أطلقوه على من يقوم مقام الملك أو الخليفة في تصريف شؤون الدولة ، يقول ابن خلكان (١) إن أبا سلمة الخلال أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يُعرف بهذا الاسم ، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها .

وقد كان أبو سلمة وزيراً لأبي العباس السفاح ، وهو أول من اتخذ لنفسه وزيراً من الفرس ، فلما قتله استوزر فارسياً آخر هو خالد البرمكي ، وما زال خالد وزيره حتى مات السفاح وتولى أبو جعفر المنصور ، فعينه والياً على إقليم فارس ثم الموصل .

وكان للمنصور وزيران أحدهما عربي هو ابن عطية الباهلي ، والآخر فارسي هو أبو أيوب المورياتي الخوزي ، ثم جاء المهدي فاستوزر يعقوب ابن داود .

وأما الرشيد فقد استوزر يحيى بن خالد البرمكي ، وفوض إليه تفويضا كاملا أن يُصرف شؤون الدولة قائلا : « قد قللتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنق إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ما ترى (٢) » . ولم يلبث أن دفع إليه خاتم الخلافة ، فاجتمعت له الوزارتان ، فصار هما وبكرمه موئل القاصدين .

وكان أولاده الخمسة وبشوم رؤساء بالدولة في عهد الرشيد ، ثم

(١) رقيات الأعيان ١/١٢٩

(٢) الوزارة والسكاتب الجهشيارى ١٣٤

تنازل يحيى عن الوزارة لابنه جعفر ، ولم يأفل نجم البرامكة إلا حينما
أوقع بهم الرشيد سنة ١٨٧ هـ .

ثم استوزر المأمون الفضل والحسن ابني سهل ، وثابت بن يحيى .
الرازي ، وكان كل وزير من هؤلاء وغيرهم يحشد في الدواوين من
يستطيع حشده من بني جنسه .

وتجلى هذا منذ عهد المنصور ، إذ بدأ الفرس يكثرون في الوظائف ،
ويحلون في مناصب يجب أن يحل فيها العرب ، حتى ليقال إنه أول
خليفة استعمل مواليه وغلماؤه وصرفهم في شؤونه ، وقدمهم على العرب ، وكثر
ذلك بعده . فزالت رياسة العرب ، وضاع بأسها ، وذهبت مراتبها (١) .
حتى إن شيخاً أعرابياً استأذن ليدخل على أبي جعفر المنصور فلم يؤذن
له ، على حين أن الخراسانية تدخل وتخرج فتسخر به ، فقال له رجل
يعرفه : كيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة ؟ فقال الأعرابي (٢) :

أَكثَرُ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ لَا يُدْرَى مِنْ أَى خَلْقِ اللَّهِ حِينَ يُلْقَى .
وَحَلَّةٌ تُنْشَرُ ثُمَّ تُطَوَّى وَطَبْلَسَانٌ يُشْتَرَى فَيُغْلَى .
لَعَبْدٍ عَبْدٍ ، أَوْ لِمَوْلَى مَوْلَى يَا وَيْحَ بَيْتِ الْمَالِ مَاذَا يُلْقَى .

كان الوزير ينوب عن الخليفة في تصريف شؤون الدولة كلها دون
توجيه منه ، أو ينفذ ما يملكه الخليفة عليه ، وذلك أن الوزارة في العصر
العباسي كانت نوعين : النوع الأول وزارة التنفيذ ، وهي التي يقتصر
فيها الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة ، فهو إذن وسيط بينه وبين
الموظفين والشعب ، والنوع الثاني وزارة التفويض ، وهي التي يعهد فيها

(١) الوزراء والكتاب لجيشيارى ١٣٩ - ١٥٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ٢١٠٠

ومروج الذهب ٤٠١/٢

(٢) الأغانى ١٨/١٤٨

الخليفة إلى الوزير بالنظر في شؤون الدولة والتصرف فيها بغير رجوع إليه ، وليس للخليفة إلا تولية العهد ، وعزل من يوليهم الوزير ، وكان يحيى بن خالد البرمكي وزير تفويض الرشيد ، ثم خلفه ابنه جعفر . وإذ كان منصب الوزارة منقولاً عن الفرس اتسم بعدة مظاهر فارسية ، فكان الذي يختار للوزارة يرتدي زياً خاصاً ، ثم يمثل بين يدي الخليفة في حفل رسمي ، كما كان الفرس يفعلون .

وكان الوزراء الفرس يحاكون سلفهم في بعض المظاهر التي لا عهد للعرب بها ، فالفضل بن سهل يقعد على كرسي مُجَنَّب ، ويحمل فيه عند دخوله على المأمون ، فإذا اقترب من المأمون ووقعت عينه عليه وُضع الكرسي ، وترجل الفضل ، وحُمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون ، ثم يسلم الفضل ويعود إلى كرسيه فيقعد عليه ، وهو في ذلك يذهب مذهب الأكاسرة (١) .

وهو الذي أقتنع المأمون بأن يستبدل بالسواد — شعار العباسيين — الخضرة ، ويكتب إلى عماله أن يجعلوا أعلامهم وقلائسهم خضراً ، وقد كانت الخضرة شعار كسرى والمجوس (٢) .

وإذا كان خلفاء بني العباس قد حرصوا على عربيتهم واستندوا إليها في أول أمرهم ، فقتل بعضهم وزراءهم من الفرس ، فإن هذا يدل على أمر آخر هو سريان النفوذ الفارسي والخوف من هواقبه ، وحسبنا أن نوجز البواعث التي حملت الرشيد على الفشل بالبرامكة ، لنستبين الدلائل على نفوذهم ، وعلى حنقه من سلطانهم .

(١) الوزراء والكتاب ٤٠١

(٢) إل حمر السابق ٣٩٦ .

ونحن نستبعد من هذه البواعث ما زعمه بعضهم من علاقة العباسية بنت المهدي أخت الرشيد بجعفر البرمكي وزواجه بها سرا ، لأنها قصة بينة الاختراع والاختلاق ، ونرى أن أقرب تعليل إلى الصواب هو ما ذهب إليه ابن خلدون (١) ، فقد فُتد قصة العباسية ونفاها ، وانتهى إلى أن الفتك بالبرامية كان نتيجة لأسباب شتى ، من الممكن حصرها في استئثارهم بالسلطة والنفوذ واستمالة الناس واجتذاب الأشراف ، واغترارهم بما نالوا من ثراء وجاه ، وإسرافهم في العطايا والهدايا ، وتغافلهم أو غفلتهم عما للخليفة من حقوق وسلطان ومظهر واجب للمراعاة .

يقول ابن خلدون : إنما نكبت البرامية ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمرها مراتب الدولة وخطتها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، يقال إنه كان بدار الرشيد ن ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة . . . فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدائنة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، ونخضعت لهم الرقاب ، وقُصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء ، وصيرت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية .

وأفاضوا العطاء في رجال الشيعة وعظماة القرابة ، وطوقوهم المنن ،
وكسوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العاني ، ومُدِّحوا بما لم يمدح
به خليفتهم ، وأسنوا الجوائز لعُفَاتِهِمْ (١) ، واستولوا على القرى
والضياع ، حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة ، وأغضبوا أهل
الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادم الوثير
عقارب السعاية

ولقد رويت أخبار شتى عن سرفهم وثرانهم وسفهم في العطاء فيها
مبالغات ، منها قول معاصري خالد البرمكي : لم يكن يرى لجليلس خالد
ابن يحيى البرمكي دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها
له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت
سحرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها إما من نتاجه أو من غير نتاجه (٢)
وقال الرشيد وهو يسمع ضجة في مجلس يحيى بن خالد : ما هذا ؟
فقيل : يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين ، فقال : فعل الله به
وفعل ، يلعمه ويسبه ، استبد بالأمر دولي ، وأمضاها على غير رأيي ،
وعمل بما أحبه دون محبتي . وتكلمت أم جعفر ينحو من كلامه ، وثلبته
أكثر مما بثلبه أحد (٣) .

(٢) بيوت للاندن

لم يعرف في صدر الإسلام والدولة الأموية نظام البيوت الخاصة
بالامتثان على الخلفاء ، وكان بنو أمية يقيمون في قصورهم ، ويقف
الناس على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو ينصرفوا .

(١) المغاة : جمع عاف وهو طالب العطاء

(٢) الوزراء والسكتاب ١٧٣ .

(٣) الوزراء والسكتاب ١٧٨

فلما تولى بنو العباس ، وبني المنصور قصره جعل فيه بيوتاً
للأذن ، فجرى خلفاؤه على سنته .

(٣) النجمون

كذلك جَدُّ النَجْمُون ، وكان لهم شأن في الدولة العباسية ورأى
أحياناً في توجيه السياسة وفي الحروب ، وهم الذين أشاروا على المعتصم
بتأجيل فتح عمورية إلى أن ينضج التين والعنب ، لكنه خالفهم ،
وانتصر ، فسخر بهم أبو تمام في قوله (١) :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكُتُبِ في حَلَّةِ الحدِّ بينَ العَدِّ واللَّعبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُّ الصفائفِ في

متونهن جلاء الشكِّ والرَّيبِ (٢)

والعلم في شُهْبِ الأرماعِ لامعةٌ

بين الخميسين لاني السبعة الشُّهْبِ (٣)

أين الرواية أم أين النجوم وما صاغوه من زُخرفٍ فيها ومن كذب
تَحَرُّصاً وأحاديثاً مَلْفَعَةً ليست بنبيعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبَ (٤)

ثم هزىء بتكهنهم قبل ذلك فقال :

وخوفوا الناس من دهيةٍ مظلمةٍ إذا بدا الكواكب الغريب ذواللُنبِ (٥)

(١) الديوان ٤٥/١

(٢) بيض الصفائح : المراد السيف .

(٣) شهب الأرماع : أسننها . السبعة الشهب : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة
وعطارد والقمر . الخميس : الجيش .

(٤) التحرص : السكيب . النبيع : شجر صلب يثبت في رموس الجبال تتخذ منه القوس .

الغرب : شجر يثبت على الأنهار ليست له قوة .

(٥) دهية : دامية . كانوا قد زعموا أن طلوع ذلك الكوكب فتنة عظيمة وتغير وحللك .

وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهى غافلة مادار فى قلبك منها وفى قطب
لو بينت قط أمرا قبل موقعه لم تُخفِ ما حلّ بالأوثان والصلب

(٤) نظام البريد

كلمة البريد لها عدة معان :

أولها الرسول أو الشخص الذى يحمل الرسائل ، جمعه برُد ، وفى الحديث الشريف : لا أخيسُ بالعهد ، ولا أخيسُ البرد ، أى لا أحبس الرسل الواردين إلى ، وقوله صلى الله عليه وسلم : إذا أبردتم إلى بريدنا فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم .

وثانيها الدابة التى تحمل البريد .

وثالثها مسافة معينة بين سكتين أو منزلتين من منازل البريد قدرها أربعة فراسخ أو فرسخان ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ظهر إحداهما لبطن الأخرى ، فالبريد إذن ثمانية وأربعون ألف ذراع .

ورابعها الرسالة نفسها .

أصل هذه الكلمة :

١ — ذهب الزمخشري إلى أن كلمة بريد فارسية أصلها (بريدہ دم) أى محلوف الذهب ، لأن بغال البريد كانت عند الفرس محلوفة

(١) مرتبة . بكسر التاء أى مدبرة . الأبرج العليا : بروج المياه التى أوغها الحسل وأنهرها المطر .

(٢) لسان العرب وتاج العروس مادة برد

الأذنان علامة لها ، ثم سمي الرسول الذي يركبها بريدًا ، وسميت المسافة التي بين السكتين (١) بريدًا (٢) .

لكنني لم أجد في أساس البلاغة للزمخشري هذا النص .

وذهب إلى مثل هذا ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث) (٣) .

كذلك يذكر (المعجم في اللغة الفارسية) أن البريد هو القاصد أو حامل الخطاب ، وأنه نقل إلى العربية (٤) .

٢- لكنني أرجح أنها عربية الأصل لأن مادة (برد) قديمة متنوعة في المعاجم العربية ، ولأنها دلت على الرسول بين اثنين منذ العصر الجاهلي و صدر الإسلام ، قبل أن يتصل العرب بالفرس ذلك الاتصال الذي مكنهم من نقل نظام البريد المرتب على البغال

وحسبنا قول امرئ القيس :

على كل مقصوص الدنان معاود بريد السرى بالليل من خيل بربر
فهو يذكر هنا الحصان أو البغل المقصوص الليل المستخدم في سرى الليل من خيل البربر .

وقول مزرد بن خرار يمدح عرابة الأوسى :

فهرتك عراب اليوم أمي وخاتي وناقى الناجى إليك بريدته
أي فدتك أمي وخاتي وناقى المسرعة إليك سيرا في البريد .

(١) السكة موضع يقيم به أشخاص مرتبون معهم بغال .

(٢) تاج العروس ولسان العرب مادة برد .

(٣) صبح الأعشى ٣٦٧/١٤

(٤) المعجم في اللغة الفارسية الدكتور محمد موسى هندوى .

نظام البريد :

كان للفرس نظام معين للبريد هو تقسيم المسافات إلى مراكز ، وفي كل مركز أشخاص ويغال ، فيحمل الشخص رسالة ويركب بغلا من بغال البريد ، ويسرع به ، فإذا ما وصل إلى الموضع الخاص بالبريد في طريقه سلم له الرسالة وعاد ، وينقلها هذا إلى ثالث ، وهكذا .

وقد نقل العرب عن الفرس هذا النظام ، وذكر أبو هلال العسكري في كتابه (الأوائل) أن أول من وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم ، وعرفهم ما يريد ، فوضعوا له البريد .

وقيل إن هذا حدث في زمن عبد الملك بن مروان بعد أن انتصر على خصومه .

لكن أبا هلال العسكري ذكر أن عبد الملك أحكمه .

وقد روى عنه قوله لابن الدُّعْدِغَةِ : وليتك ما حضر بابي إلا أربعة : المؤذّن فإنة داعي الله تعالى ، فلا حجاب عليه ، وطارق الليل ، فشر ما أتى به ، ولو وجد خيرا لنام ، والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تمحجبه . فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة ، والطعام إذا أدرك ، فافتح الباب ، وارفع الحجاب ، وخل بين الناس والدخول (١) فلما جاءت الدولة العباسية كان للبريد ديوان في بغداد ، وله محطات كثيرة على طول الطرق ، لنقل الرسائل بين الخليفة وعماله في الأقاليم .

(١) صبح الأثر ١٤/٣٦٧ .

ثم صار صاحب البريد يراقب الولاية ويتجسس على الأعداء ،
وينقل الأخبار إلى الخليفة ، فهو عينه التي يبصر بها ما بعد عنه .
قال أبو جعفر المنصور : « ما كان أحوجني إلى أن يكون علي بابي
أربعة نفر لا يكون علي بابي أعف منهم ، فقيل له : من هم يا أمير
المؤمنين ؟ قال : هم أركان الملك لا يصلح إلا بهم ، كما أن السرير
لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، أما أحدهم فقاوض لا تأخذه في الله لومة
الائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث
صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فيأني عن ظلمها غني ، والرابع
(ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة آه آه ،
فقيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إليّ يخبر
هؤلاء على الصحة » (١) .

وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضر موت أنه يكثُر
الخروج في طلب الصيد ، فكتب إلى الوالي : « ثكثك أمك ، وعَدَمَتك
عشيرتك ، ماهذه العُدَّة التي أعددتها للنكابة في الوحش ؟
إننا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ،
سلّم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان ابن فلان ، والحق بأهلك مذموما
مذخوراً » (٢) .

وكتب صاحب البريد إلى هارون الرشيد يذكر له أن الفضل بن
يحيى البرمكي واليه على خراسان تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في
أمور الرعية ، فلما قرأ الرشيد الكتاب رمى به إلى يحيى البرمكي ليقرأه .

(١) تاريخ الطبري ٢٩٧/٩ ، ٣٤١

(٢) مروج الذهب ٢٣٢/٢

وليكتب إلى ابنه الفضل كتابا يردعه عما هو فيه (١) .
وفي كتاب صبح الأعشى للقلقشندي تفصيل لأطوار البريد
وأحواله في مختلف العصور (٢) .

(٥) السيف

لم يكن العرب يعرفون هذه الوظيفة أيام النبي والخلفاء الراشدين
أو بني أمية ، فلما اتصلوا بالفرس نقلوها عنهم ، لأنها وظيفة فارسية
قدمة .

(١) معجم الأديب ٨/٢٠
(٢) صبح الأعشى ١٤/٣٦٦ - ٣٨٨

الفصل الثالث

آثار الفرس في العادات

حرص الأمويون وولاهم على الصبغة العربية ، فكان تأثيرهم بالفرس والروم إلى الحد الذي لا ينقلهم إلى أن يكونوا أشبه بهم ، فقد أولم الحجاج في خشان بعض ولده ، فسأل بعض الدهاقين عن ولائم الفرس ، فقال له الدهقان : شهدتُ بعض مَرَاذِيَةَ كَسْرِي وقد صنع لأهل فارس صنيعاً ، أحضر فيه صحافَ الذهب على أخونة الفضة ، أربعاً على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ، فإذا طعموا مُتَحَوُّوا المائدة بصحافها ووصائفها (١) .

فلم يعجب الحجاج هذا النظام الفارسي ، وقال : يا غلام ، انحر الجزر ، وأطعم الناس .

! وهذا يدلنا على أنه أراد أن يولم على طريقة العرب التي ألفها وألفوها ، وأن يبتعد عن هذا السرف الفارسي .

لكن العرب جعلوا يتأثرون بالعادات الفارسية شيئاً بعد شيء ، حتى جاء العصر العباسي ، فعظم تأثيرهم ، ونقلوا عن الفرس كثيراً من عاداتهم ووسائل ترفهم وطوهم ومجونهم .

(١) النيوز والمهرجان

١ - النيروز كلمة فارسية معناها اليوم الجديد ، وموعده الأيام الستة

(١) تاريخ ابن خلدون ١/١٤٥ .

الأوائل من أول شهر في سنتهم الشمسية ، وهو يوافق ٢٤ من آذار ،
ويوافق شهر بابيه القبطي ، أي أنه يوافق أول الربيع .

واليوم السادس من أيام النيروز يسمى النيروز الكبير ، لأن
الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه إلى مجالس أنسهم مع خاصتهم .

والنيروز أعظم أعياد الفرس وأجلها ، ويتميز على عيد المهرجان بأنه
استقبال السنة ، وافتتاح جباية الخراج ، وزمن تولية العمال واستبدالهم
وضرب الدراهم والدنانير ، وتذكية بيوت النيران ، ورش الناس
بعضهم بعضا بالماء ، وتقريب القربان ، وإشادة البنيان ، وما أشبه
ذلك (١) .

وقد كان لملوك الفرس نظام معين في النيروز ، يجلس الملك في
اليوم الأول فيقابل الناس ويحسن إليهم ، ويجلس في اليوم الثاني لمن
هم أرفع مرتبة ، وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، ويجلس في اليوم
الثالث لأساورته . . . ثم يختص ولده وصنائه باليوم الخامس ،
فيصل إلى كل واحد منهم ما يستحقه من رتبة وتكريم ، فإذا كان
اليوم السادس نُورَزَ لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح
لخلوته (٢) .

أما المِهْرَجَان فهو الأيام الستة الأوائل من أول شهرهم مِهْرَجَان ،
وهو يوافق أول الخريف ، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الكبير .

فالنيروز استقبال الربيع ، والمِهْرَجَان استقبال الخريف .

(١) التاج في أعلام الملوك ١٤٦ .

(٢) الآثار الباقية لبيروني ٢١٨ .

كان ملوك الفرس يأْمرون بإخراج ما في خرائنهم في النيروز والمهرجان من ملابس ، فتفرق كلها على بطانة الملك وخاصته ، ثم على بطانة البطانة ، ثم على سائر الناس على مراتبهم ... (١) وكانوا يتقبلون الهدايا في العيدين من طبقات شتى ، « والسنة في ذلك أن يُهدى الرجل ما يحب من ملكه إذا كان في الطبقة العالية ، فإن كان يحب مسكا أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب عنبرا أهدى عنبرا ، وإن كان صاحب بزّة ولبسة أهدى كسوة وثيابا ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدى نشابا ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وكان الشاعر يهدى الشعر ، والمخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطفرة .. وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إليه ما يؤثرنه (٢) . »

٢- بدأ اتصال العرب بالنيروز والمهرجان في آخر صدر الإسلام ، فقد كانت تُحمل إلى معاوية ومن بعده هدايا النيروز والمهرجان ، كما كانت تقدم إلى الأكاسرة ، وقد أنكرها علي بن أبي طالب ، ثم أبطلها عمر بن عبد العزيز .

وسواء أكانت هذه الهدايا قد ابتدأت أيام معاوية ، أم أن الحجاج ابن يوسف أول من رسمها في الإسلام حينما كان والياً على العراق ، فإن عمر بن عبد العزيز أبطلها إلى أن أعادها أحمد بن يوسف الكاتب في العصر العباسي الأول .

وفي هذا العصر شاع الاحتفال بالعيدين ، حتى إن الخلفاء والولاة كانوا يجلسون فيهما لتقبل التهنئات ، واستماع مدائح الشعراء ، وكان

(١) التاج في أخلاق الملوك ١٤٦ .

(٢) التاج في أخلاق الملوك ١٤٩ .

عبد الله بن طاهر يفرق ما في خزائنه من ملابس على بطانته ثم على سائر الناس ، كما كان يفعل الأكاسرة ، حتى لا يترك في خزائنه ثوباً واحداً ، وهذا من أحسن ما يذكر من فضائله (١) .

وصار من الشائع في قصائد الشعراء التعبير عن الربيع بالنيروز ، قال البحتري في مدح المهشم الغنوي :

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكا من الحُسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبّه النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كنّ بالأمس نوّماً (٢)

وقال عبد الصمد بن بابك للصاحب بن عباد :

لقد نشر النيروز وثبياً على الربا من النور لم تظفر به كف راقم
كأن ابن عباد سقى المزن نثره فجاد برشاش من الويل ساجم

وقال ابن الرومي في تهنئة عبيد الله بن عبد الله بيوم المهرجان (٣) :

ما رأيت مثل مهرجانك عينا أزدشير ولا أنو شروان
مهرجان كأنما صورته كيف شاءت مخيرات الأمان
وأدبيل السرور واللّهوفيه من جميع الموم والأحزان
لبست فيه حطى حلتها الد نيا وزاقت في منظر فتان (٤)

ثم جعل يصف الاحتفال والغناء والقيان .

(٢) الترف

حاكى الخلفاء العباسيون أكاسرة الفرس في الترف والسرف ، ووردت أخبار شتى تصور هذا السرف تصويراً لم يسلم من المبالغة. قالوا

(٢) ديوان البحتري ٢٣٤ .

(٤) زافت : إخطاك وتبغثت .

(١) التاج ١٤٩ .

(٣) ديوان ابن الرومي ٨٢ .

إن عرش المهدي يوم بيعته كان مكللاً بأنواع اللؤلؤ والياقوت ، وعلى رأسه قبة من الديباج ، وحوله غلامان ملتحفان بالذهب يحملان مظلتين من الريش مرفوعتين على رمحين مكسوين بعروق من الذهب ، يتلى منهما الياقوت والزبرجد والفيروز ، وعلى يمين العرش منبر مزخرف بالجواهر والديباج .

وقيل إن الرشيد كان ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم ، ويقدم على مائدته ثلاثون صنفاً من الطعام .
ولما تزوج زُبَيْدَةَ كانت هباته أواني من الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني من الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك .

ووصفوا عرس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل بأنه كان مظهراً صارخاً للسرف والترف . قالوا إن المأمون أعطها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مئة من رطل وثلاثان - ، وبسط لها فرشاً كان الحصيرة منها منسوجة بالذهب مكللاً بالدر والياقوت . . .

وذكر المسعودي (١) أن مجلس الخليفة المتوكل جمع مرة بين الشعراء والمغنين ، وقد مدح البحتري هذا الخليفة بقصيدته التي يقول فيها :

عن أي ثغر تبتسمُ وبأي طرفٍ نتحكم
حُسنُ يضيءُ بحسنه والحسنُ أشبه بالسكرم
قل للخليفة جعفر ال متوكل بن المعتصم

(١) مروج الذهب ٢٠٢/٨ .

أما الرعية فهي من أمّات صدك في حرم
فلما انتهى سار القهقري لينصرف ، فوثب أبو العنّيس الصيّمري
الشاعر فقال : ياأمير المؤمنين تأمر برده ، فقد عارضته في قصيدته
هذه ، فأمر المتوكل برده ، فجعل الصيمري ينشد قصيدة له على مثل
قصيدة البحتري وزنا وقافية ، أولها :

من أي سَلَح ترتطم ويأي كف تَلْتَسِدِمُ
ونال من البحتري .

فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، وفحص الأرض برجله ،
وقال : يُدْفَعُ إلى أبي العنيس عشرة آلاف درهم .
فقال الفتح بن خاقان : ياسيدي : البحتري الذي هجى وأُسمع
المكروه ينصرف خائباً ؟ .

قال المتوكل : ويدفع إلى البحتري عشرة آلاف درهم .
قال الفتح : ياسيدي ، فهذا البصري الذي أشخصناه من بلده ،
لا يشركهم فيما حصلوه ؟ .

قال : ويدفع إليه عشرة آلاف درهم .
فانصرفوا كلهم بعشرات الألوف بسبب الهزل .
وقالوا إنه كان في آثام أم الخليفة المستعين بساط كلفهم صنعه
مئة وثلاثين مليوناً من الدراهم ، به نقوش للحيوانات والطيور .
وذكروا أن شاعراً مدح إحدى الأميرات فملاّت فمه بدرّ باعه
بعشرين ألف دينار .

وروا أن قصر الخليفة المقتدر بالله كانت به شجرة من الفضة
وزنها خمس مئة ألف درهم ، تقوم ، وسط بركة مستديرة صافية
الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن فروع صغار كثيرة عليها
طيور من كل نوع مفضضة ومذهبة ، وبعض قضبان الشجرة من ذهب
وبعضها من فضة ، ولها ورق مختلف الألوان ، يهتز مع النسيم ، وإذا
ماهب النسيم صفرت الطيور المذهبة والمفضضة . وقالوا إن قصر المقتدر
كان به أحد عشر ألف خصي .

ويتصل بهذه المباني أن الوزراء - ولا سيما البرامكة - كانوا يتغالون
في الترف ومظاهر النعمة والثراء ، فقد نشر الحسن بن سهل على
الطبقة الأولى من حاشية المأمون ليلة زفاف بنته بوران بنادق المسك ،
ملئت على الرقاع بالفضياع والعقار ، مسوغة لمن تقع في يده أن يمتلك
ما كتب بها ، وفرق على الطبقة الثانية بدرّ الدنانير في كل بكرة
عشرة آلاف ، وفرق على الطبقة الثالثة بدرّ الدراهم كذلك (١) . . .

وقد حكوا عن خالد بن يحيى أنه لم يكن له جليس إلا وقد بنى
له داره ، أو اشترى له ضيعة ، أو وهب له أمة ، أو أدى عنه مهر
زوجته ، أو منحه دابة (٢) .

وذكروا أن الوزير المهلبى كان لا يأكل إلا بملاعق الذهب ، ولا يأكل
بالمعلقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على مائدته زهاء ثلاثين ملعقة ،
وكان يحب الورد ، فاشترى له منه في ثلاثة أيام بألف دينار ، فألقاه
في بركة كبيرة بداره ، وللبركة فوارات تنفض الورد فيتساقط على
رعوس الجالسين مع الوزير في مجلسه .

(١) معلقة ابن خلدون ٤٨٩ . . (٢) الوزراء والكتاب ١٧٣ .

وإذا كانت هذه الأخبار كلها لم تسلم من المبالغة فإنها صورة للحياة المترفة التي كان يحيها الموسرون .

وليس أدل على أن الانطلاق في ميدان السرف كان من نتائج الحضارة والتأثر بالفرس وغيرهم من العجم ، من أن العرب بالبادية عاشوا وهم يجهلون هذه المظاهر .

يدل على ذلك هذه القصة التي لا تخلو من مبالغة أيضا ، وهي أن ناهض بن ثومة الكلبي - وهو شاعر بدوي كان يحيها في العصر العباسي - تحدث أنه وفد على حَلَب ، فمر بقرية رأى بها دوراً متباينة ، وناسا يقبلون ويدبرون عليهم ثياب تحكى ألوان الزهر ، فقال في نفسه : هذا أحد العيين الأضحى أو الفطر ، ثم تاب ماعزب عن عقله ، ثم أتاه رجل فأخذه بيده ، وأدخله داراً قوراء ، بها شاب يتنلى شعره على منكبيه ، والناس حوله سباطان ، فقال في نفسه : هذا الأمير الذي حُكى لنا جلوسه للناس وجلوسهم بين يديه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، فجذب رجل يده ، وقال : اجلس ، فإن هذا ليس بأمير . قال : فمن هو ؟ قال له : عروس . فقال ناهض : وأكُلَ أماء ، رب عروس رأيت بالبادية أهون على أهله من أحقر شيء (١) .

ثم دخل رجال يحملون هَنَات مَنُورَات ، وضعوها أمامنا ، وتحلق القوم عليها حلقاً ، ثم جاءوا بخرق بيض ألقوها بين أيدينا ، فظننتها ثياباً ، وهممت أن أسأل القوم منها خرقة أقطعها قميصاً ، فلما بسطها

(١) أحقر شيء عروس عن التعبير الأصل الذي آثرت إغفاله .

القوم بين أيديهم إذا هي تتمزق سريعاً ، وإذا هي فيا زعموا صنف
من الخبز لا أعرفه .

ثم أتينا بطعام كثير بين حلو وحامض وحرار وبارد ، فأكثرت
منه وأنا لا أعلم ما في عقبه من التَّخَمِّ والبَشَمِ (١) ، ثم أتينا بشراب
أحمر فقلت لأحاجة لي فيه ، فإني أخاف أن يقتلني . . .

ثم هجم علينا شياطين أربعة ، أحدهم قد حلق في عنقه جعبة فارسية
مُسْنَجَةٌ الطرفين دقيقة الوسط مشبوحة بالخيط شبها منكرًا ، ثم يندب
الثاني فاستخرج من كفه هنة سوداء وضعها في فمه وحرك أصابعه على
أحجرية فيها ، فأخرج منها أصواتا عجيبة ، ثم بدا ثالث يصفق بمرآتين
معه ، فخالط بصوته مايفعله الرجلان ، ثم جعل الرابع يقفز كأنه
يشب على ظهور العقارب ، ورأيت القوم يحذفونه بالدراهم . . .

ثم جاء شاب بخشبة عينها في صدرها بها خيوط أربعة ، استخرج
من خلالها عوداً فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها وحركها بخشبة في
يده ، فنطقت ، وإذا هي أحسن قينة رأيتها ، وغنى عليها فأطربني ،
حتى استخفني من مجلسي ، فوثبت فجلست بين يديه ، وقلت : بلبي
أنت وأمي ماهله الدابة فلست أعرفها للأعراب ؟ وما أراها خلقت إلا
قريباً ؟

فقال : هذا البربَط ، فقلت : بلبي أنت وأمي ، فما هذا الخيط
الأسفل ؟ قال : الزبير ، قلت : فما الذي يليه ؟ قال : المثني ، قيلت
خالث ؟ قال : المثلت ، قلت : فالأعلى ؟ قال : اليم ، فقلت : آمنت

(١) التخم : جمع تخمة . البشم : التخمعة .

بالله أولاً ، وبك ثانياً ، وبالربط ثالثاً ، وبالجم رابعاً (١) .

(٢) كثرة الجوارى

شُرقت القصور بالجوارى من أجناس شتى . كان العنصر الفارسي أكثرها عدداً ، ونَسَلَتْ هؤلاء الجوارى للعرب ، وكثر نسلهن ، حتى إن أكثر خلفاء بني العباس من أمهات غير عربيات ، وتناسى العرب في العصر العباسي ماجرى عليه بنو أمية من زراية بأبناء الإمام . ولا شك أن نظام التسرى كان عظيم الآثار في الحياة الأسرية وفي الحياة العامة ، وقد سبق أن الفرس عاضدوا المؤمن على أخيه الأمين لعدة بواعث ، منها أن أمه أمة فارسية .

(٤) نظام الغناء والقيان

سبق أن العرب عرفوا في جاهليتهم الغناء الفارسي ، وبعض آلات الموسيقى ، لكن هذه المعرفة كانت سطحية محدودة . أما في العصر العباسي فقد تنوعت المعرفة واتسعت وعمقت ، فازدهر الغناء ، وتطور ، وارتقت الموسيقى ، وتنوعت الآلات ، وتزعم المغنين في أول الدولة العباسية فارسيان هما إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ، وكانا يجمعان إلى غنائهما المطرب الشعر والظرف وتعليم الجوارى الغناء ، واقتدى بهما من بعدهما من المغنين .

١ - وكان ملوك الفرس يحنجون عن الندماء في مجالس الغناء باستارة ، فحاكاهم من بني أمية معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليان وهشام ومروان بن محمد . فكان بينهم وبين الندماء ستارة .

وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة ، سوى خواص جواريه .

فأما الباقون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يحتجبون عن المغنين والندماء ، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه ما طن في سمعه غناء منذ أفضت إليه الخلافة إلى أن فارق الدنيا ، فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الغناء ، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل .

وأما في الدولة العباسية فإن أبا العباس السفاح كان يظهر للندماء في أول خلافته ، ثم احتجب عنهم ، وكان يطرب وبتتهج ويصيح من وراء الستارة ، ويقول للمغني : أحسنت والله ، أعد هذا الصوت ، يعاد له مراراً .

كذلك كان أبو جعفر المنصور لا يظهر لتدبير قط ، بل يجلس وراء الستارة ويسمع الغناء .

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء ، متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم .

٢ - وقد كان للمغنين شأن رفيع في الدولة ، لأن الخلفاء والأمراء مشغوفون بالغناء ، ولأنهم حاكوا الأكاسرة في تقربهم ، فجعلهم هارون الرشيد طبقات ، كما جعلهم أردشير بن بابك وأنوشروان ، فكان إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وزلز في الطبقة الأولى ، وكان سليم بن سلام الكوفي وعمرو الغزال في الطبقة الثانية ، وكان العازفون في الطبقة الثالثة (١) .

يقول الجاحظ في حديثه عن طبقات الندماء والمغنين في مجلس ملوك الفرس : « وكان الذي يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهلُ الحداقة بالموسيقىات والأغاني ، فكانوا بإزاء هؤلاء نصب خط الاستواء .

وكان الذي يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبعطائه الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقىات .

وكان الذي يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحاب الوتج والمعازف والطنابير .

وكان لا يزمر الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين ، وإن أمره الملك بذلك راجعه واحتج عليه (١) .

٣ - قد كان الخليفة المعتمد مشغولاً بالطرب والغناء والموسيقى ، دخل عليه جماعة من ندمائه ، فسأل عبد الله بن خرداذبة (والد الجغرافي أبي القاسم عبيد مؤلف المسالك والممالك) عن نشأة الموسيقى والغناء وتطورهما ، فأجاد في وصف حالهما بالبلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : قلت فأحسنيت ووصفت فأطنبت ، وأقمتَ في هذا اليوم سوقاً للغناء وعييداً للملاهي .

ثم سأله عن الصفات التي يجب أن تتوفر في المغني الحاذق فقال عبد الله :

المغني الحاذق يا أمير المؤمنين من تمكن من أنفاسه ، ولطف في اختلاسه (٢) ، وتفرغ في أجناسه .

(١) التاج ٢٣ الوتج : العود أو ضرب من الأوتار .

(٢) تمكن من أنفاسه : جمع نفسه .

ثم سأله عن أنواع الطرب ، فقال : الطرب على ثلاثة أوجه
يا أمير المؤمنين وهي : طرب مُحَرَّكٌ مستخفٌ للأريحية ، يحرك النفس
ودواعي الشيم عند السماع ، وطرب شَجَنٌ وحزن ، ولا سيما إذا كان الشعر
في وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمراثي لمن عُدِمَ من الأحباب ،
وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس ، ولا سيما عند سماع جودة
التأليف وإحكام الصنعة .

ثم شبه الذي لا يعرف الطرب ويتشاغل عنه بالحجر الصلد ،
وقال : قد قال جمهور من الفلاسفة المتقدمين وكثير من حكام
اليونانيين : من عرضت له آفة في حاسة الشم كره رائحة الطيب ،
ومن غلظ جسمه كره سماع الغناء فتشاغل عنه وعابه وذمه .

قال المعتمد : فما منزلة الإيقاع وأنواع الطروق وفنون النغم ؟

قال عبد الله : قد قال في ذلك من تقدم : إن منزلة الإيقاع من
الغناء بمنزلة العروض من الشعر ، وقد أوضحوا الإيقاع ووسموه بسمات ،
ولقبوه بالقباب ، وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول وخفيفه ، وثقيل
الثاني وخفيفه ، والرمل الأول وخفيفه ، والمزج وخفيفه .

وجعل يفيض في وصف الإيقاع ، ففرح المعتمد في هذا اليوم ،
ونخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضروا من ندمائته (١) .

٤ - ومن الطبيعي أن يقتضي ازدهار الغناء كثرة المغنيات والقيان ،
ولهذا كثرت بالكوفة وبغداد وغيرها ، وأعدت كثيرات منهن بيوتهن
لرواد العبت والمجون والخلاعة ، فتوافدوا عليها ، ليستمتعوا باللذات ،

متأثرين بالآراء الإباحية التي تزين التحلل من سلطان الدين ، والجرأة على حرمانه ، وتصور الاستمتاع باللذات المحرمة صورة مباحة لا إثم فيها .
وغلا بعض الأثرياء في تقدير أثمانهم ؛ حتى إن جعفر بن سليمان اشترى جارية بمئة ألف درهم ، وصالح بن علي اشترى أخرى بتسعين ألفا (١) .

وما من شك في أن الغناء والموسيقى والخمر والقيان كان أثرها عميقا في الأدب ، وفي أخيلة الشعراء ، وحسبنا أن كثيرا من الشعراء أغرموا بالمغنيات أو تغزلوا بهن ، كما قال ابن الرومي في وحيده المغنية (٢) :

يا خليلي تيمنى وحيدٌ	ففؤادي بها معنى عميدٌ
غادة زانها من الغصن قد	ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد	ين ذاك السواد والتوريد
فهي بردٌ بخدمها وسلام	وهي للعاشقين جهد جهيد
مالما تصطليه من وجنتيها	غير ترشاف ريقها تبريد
وغير بحسنها قال : صيفها	قلت : أمران : هين وشديد
يسهل القول أنها أحسن	الأشياء طرا ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين إليها	فشقي بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا	ها ، وقمرية لها تغريد
تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الأوصال وهي تجيد
طاب فوها وما ترجع فيه	كل شيء لها بذلك شهيد
في هوى مثلها يخف حليم	راجع حلمه ويغوى رشيد

(١) الأغانى ١٣/١٢٨ .

(٢) البرهان ٩٨ .

وحسان عرضن لي قلت مهلاً^١ عن وحيد محققها التوحيد
حَسُنْهَا فِي الْعَيُونِ حَسَنٌ جَدِيدٌ فَلَهَا فِي الْقُلُوبِ حُبٌّ جَدِيدٌ

(٥) الكلف بالخمير

اتسعت الحضارة ، واستفاض الشراء ، واشتدت مخالطة العرب
للفرس وغيرهم ، وكانت الخمر بالعراق خاصة كثيرة متنوعة ، وكانت
حاناتها متعددة ، فاشتهر بها كثير من الناس ، وكلف بها بعض الشعراء
كأبي نواس ، حتى قال فيها آلاف الأبيات ، وحتى افتتح بالخمريات
كثيراً من قصائده بدلاً من الغزل وبكاء الأطلال ، وسنتبين هذا من
الفصل الخاص بتأثير الفرس في موضوعات الشعر العربي ، وإن كنا
لا ننسى أن الخمر كانت شائعة بين العرب في العصر الجاهلي .

(٦) الكلف بالغلما ن

كان الفرس يستكثرون من الغلمان في قصورهم وودورهم ويستخدمونهم
في أغراض شتى ، ويزينونهم بما تتزين به الإناث ، فحاكاهم العرب
في ذلك .

ومن الغلمان طائفة مُخَنَّثَةٌ انتشروا في الكوفة أول الأمر منذ
امتلات بجند خراسان الذين ناصرُوا بني العباس ، إذ كان الجند قد
استقدموا معهم المخنثين لاستخدامهم ، جرياً على تقليد فارسي قديم ،
لأن كل مانوي كان يصطحب غلاماً أمرد ، ويستخدمه في شؤونه .

وكان للمخنثين بالكوفة مظهران ينافيان الأخلاق العربية : أحدهما
التشبه بالنساء في اللبس والخضاب وتزجيج الحواجب والعيون وإطالة

الشعر والتحلل بالذهب ، والآخر تغنيهم بالشعر الفاجر الماجن في غير
نحرج أو استحياء من الناس (١) .

(٧) تنوع الأزياء

كان من النظم الفارسية أن يلبس أهل كل طبقة لبسة خاصة بهم
لا يلبسها غيرهم ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عرف من زيه صناعته
وطبقته ، وكان الكتاب يلبسون زيهم المقصور عليهم (٢) .

وفي العصر العباسي تعددت الأزياء مشاكلة للوظائف والطبقات ،
كما كان الفرس يفعلون ، وتزيياً بعضهم بملابس فارسية .

لبس الخلفاء العمائم على القلانس ، ولبس القضاة القلانس
الكبار ، ونوع الكبراء العمامة ، وجعلوا لها أحجاماً تطابق مكانتهم
الاجتماعية كما كان الفرس يفعلون ، فللخلفاء عمه ، وللفقهاء عمه ،
وللبقالين عمه ، وللأعراب عمه ، وللروم والنصارى عمه ، ولأصحاب
التشاجى عمه . ولكل قوم زي ، فللقضاة وللشُرطة ولأصحاب القضاة زي ،
وللشُرطة زي ، وللكتاب زي ولكل طبقة من أصحاب السلطان
زي . . . (٣) .

وقيل إن المنصور كان أول من لبس القلنسوة ، وتدل بعض النقود
التي ضربت في عهد المتوكل أنه كان يرتدى الملابس الفارسية .

(١) الأغاني ١٦٩/٤ .

(٢) الوزراء والكتاب ٤١٣ .

(٣) البيان والتبيين ١١٤/٣ التشاجى : التحازن

الفصل الرابع

آثار الفرس في الزندقة

١ - دخل الفرس في دين الله ، وحذقوا اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، وتفوقوا فيها ، لكن آثار دينهم القديم وعاداتهم الأولى لم تنزل عاقله بنفوسهم ، فأثرت أحياناً كثيرة في عقائدهم وعاداتهم الجديدة دون قصد منهم ، وبقيت آثار لغتهم وآدابهم كامنة في صدورهم ، أو مدونة في بعض كتبهم ، أو متداولة فيما بينهم في خواتمهم ، فلما قامت قائمتهم ، وتألقت نجومهم ظهر ما كان خافياً ، وحاولوا إعادة مجدهم وإحياء علومهم وآدابهم (١) .

ذلك أن كبارهم ومثقيفهم لم يقنعوا بانتقال الملك من بني مروان إلى بني العباس ، ولم يكفهم ما نالوا من نفوذ سياسي في السلوة الجديدة ، فطمعوا في أن يكون لهم ملك فارسي في مظهره وفي حقيقته ، ملك يستردون فيه سلطانهم ولختهم ودينهم ، وكانت وسائلهم إلى تحقيق أملهم تعتمد على الأقلام تارة ، وعلى الألسن تارة ، وعلى الثورات والحروب تارة ثالثة .

من هذه الوسائل محاولة بعضهم إضعاف الإسلام بنشر الزندقة ، المستمدة من ديانات الفرس القديمة زرادشتية ومأنوية ومزدكية .

(١) قصة الأدب الفارسي ١٠١ حامد عبد القادر .

وأغلب الظن أن المانوية كانت أكثرها تأثيراً في عقول بعض الناس وقلوبهم في العصر العباسي ، وقد سبق في التعريف بالمانوية أنهم دعاة إلى الشك في الدين والتواني في العمل ، والامتناع عن الزواج والنسل ، لأن العالم شر ما دام الظلام يمتزجاً بالنور ، فيجب أن يفنى هذا العالم ، ليعود النور إلى صفائه . ومن تعاليمهم الكف عن ذبح الحيوان حماية له من الأثم ، وهم جبرية يدينون بأن أفعال البشر صادرة من إله الخير أو من إله الشر ، أو عن النور والظلمة (١) .

وإذا كان بهرام بن هرْمُز قد قتل مائى وصلبه في القرن الرابع الميلادي ، وتعقب أتباعه بالقتل ، فإن بعضهم فروا إلى بلاد الترك ، وما زالوا هناك إلى أن فتح العرب فارس ، فعادوا إلى إيران ، وظهروا في عهد الدولة الأموية بالعراق وبالكوفة خاصة ، يدل على هذا أن والي الكوفة خالداً القسري (١٠٥ - ١٢٠ هـ) كان يتعقب المانوية والزنادقة والمجان ، حتى إنه حرم الغناء ، لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق ، ثم أحابه بعد أن اشترط ألا يحضره سفيه أو عربية (٢) .

ثم تكاثروا في العصر العباسي بأماكن شتى ، حتى إنه كان في بغداد وحدها حوالي ثلاث مئة من المانوية في عصر ابن النديم (٣) (القرن الرابع) ، وجعلوا ينشرون مذهبهم ، ويصوبون إلى الإسلام سهامهم . لكن خلفاء بني العباس جَدُّوا في تعقبهم ، وجعلوا في التشكيل بهم ، وشجعوا العلماء على مجادلتهم والردود عليهم ، كالمنصور والمهلدي

(١) الفهرست ٤٧٢ والحيوان ٤/٤٤١ .

(٢) الأغاني ٢/١١٩ .

(٣) الفهرست .

والهادى والرشيده والمأمون والمعتمد ، وكانوا لا يترددون في الفتك من تثبت إدانته منهم .

ولقد استحدث الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) منصباً جديداً لمطاردتهم هو منصب (صاحب الزنادقة (١)) ولم ينس أن يوصي ابنه موسى الهادي بقوله :

« يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب مالى - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومسّ الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحويلاً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا نكاح الأختوات والبنات ، والاعتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق لتنتقلهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرّد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فلما تولى موسى الهادي ومضت من حكمه عشرة أشهر قال :

« أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عيناً نظرف (٢) » .

لكنه مات بعد شهرين من قوله هذا ، فلم ينكل بالمانوية كما أراد . روى أن أحد المانوية وهو يزدان بن باذان حجج ، فنظر المسلمين يهرولون في الطواف ، فقال : ما أشبههم إلا بيقر تدوس في البئير - الجرن - فقال العلاء بن خداداد للخليفة الهادي :

(١) الطبري ١٠/١٠ .

(٢) الطبري ١٠/٤٣ .

لنا أبا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر يشبه الكعبة بالبَيْسَر
ويجعل الناس إذا ماسعوا حُمراً تلوس البُرِّ والذُّوسر (١)

فقتله الهادي وصلبه سنة ١٦٩ هـ .

وكان المأمون يمتحنهم بأن يظهر لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتفلوا
عليها ويبرأوا منه ، فمن أبي قتله ، وفي أيام الخليفة جعفر المقتدر بالله
(٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) لحق المانوية بخراسان ، خوفاً على أنفسهم ، ومن
بقى منهم بالعراق ستر أمره .

٢ - أما كلمة زندقة فقد اختلف كثير من الباحثين في أصلها
وفي دلالتها الأولى ، ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أنه كان بين طبقات
المانوية طبقة تسمى طبقة السباعين ، وهم الأحرار الذين لم يلتزموا
تعالم المانوية القاسية من زهد وتبشيف ورهينة ، وطبقة تسمى
الصديقين - المخلصين المؤمنين - وهم الذين يلتزمون تعالم المانوية ،
ويؤثرون الزهادة والصيام والتغلب على الشهوات ، ويتركون اللحم
والخمر والزواج ، وكلمة (صديق) العربية تستعمل في العبرية بلفظها
ومعناها ، وهي بالأرامية والسريانية زديق .

ومن الثابت أن الفارسية الفهلوية تأثرت بالأرامية ، وحرفوها
بعض التحريف ، فنطقوها زنديق ، ثم نقل العرب الكلمة عن الفرس
وكسروا زايها لتنسجم مع كسرة الدال .

كانت كلمة (زنديق) تطلق أول الأمر على المؤمن المخلص من

(١) الذوسر: حقل، البَيْسَر: حقل، البَيْسَر: حقل

أتباع مائى ، لكن الزرادشتيين نظروا إلى المانوية على أنهم ملاحدة
خوارج على الزرادشتية فأطلقوا الكلمة على كل الملاحدة ، وهذا هو
المعنى الذى مازال يفهم من الكلمة فى العصور الإسلامية ، كالذى روى
عن أبى يوسف : ثلاثة لا يسمون من ثلاثة : من طلب النجوم لم يسلم
من الزندقة ، ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر ، ومن طلب
غرائب الحديث لم يسلم من الكذب (١) .

٣ - ولقد ظهرت الزندقة فى العصر العباسى فى مظهرين : أحدهما
الزندقة فى العقيدة ، والآخر الزندقة فى المظهر والسلوك .

(١) الزندقة فى العقيدة

أما الزنادقة الحقيقيون فهم الذين كانوا يدينون بإله النور وإله
الظلام ، متأثرين بالمانوية خاصة وبالزرادشتية والمزدكية عامة .
وكانوا ينشرون عقيدتهم فى أول الأمر سراً ، ثم جعلوا يذيعونها
جهرأ فى كتب يترجمونها ، وكتب يؤلفونها ، وآراء يزوجونها فى الشعر
العربى الذى يُروى ، وأحاديث يفترونها على رسول الله .
وفى أوقات الحرج كانوا يعتصمون بالثقيفة ، فيبْتَظَاهِرُونَ بالإسلام
أو النصرانية أو المجوسية لِيَسْلَمُوا مِنَ الْعِقَابِ .

أما فى فترات التسامح أو نخفاء أمرهم على الدولة واطمئنانهم على
أنفسهم ، فلإنهم كانوا يترجمون كتباً فى الزندقة من الفارسية إلى
العربية ، كما فعل ابن المقفع وأبان اللاتقى ، أو يجهرون بذهبهم ،
ويعملون فرادى وجماعات مثل بشار وابن المقفع وعبد الكريم بن أبى

(١) قصة الأدب الفارسي ٥٩ ونجر الإسلام ١٢٧ والفهرست ٤٧٩

القَوَّجاء وابن مُنادز وصالح بن عبد القلوس وَحَمَّاد الراوية وحماد
عَجْرَد وحماد بن الزُّبَيْران ويحيى بن زياد ومُطِيع بن إِيَّاس .

من هؤلاء المترجمين لكتب الزندقة عبد الله بن المقفع وأبان
اللاحق ، ترجم الأول كتاب مَزْدَك وغيره من كتب المانوية ، ويقال
إن زندقته كانت سبب قتله ، قال له والى البصرة : والله يا ابن الزندقة
لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة (١) ، وقال الخليفة : ما وجدت
كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع (٢) ، وترجم الثاني عدة كتب منها
كتاب مزدك وكتاب عن بوذا .

ومن الذين جهروا بحقيقتهم في الشعر بشار بن بُرْد ، فقد روى أنه
كان على مذهب المجوس ، وهذا هو السبب في تفضيله النار على التراب
وتفضيله إبليس على آدم في قوله :

الأرض سافلةٌ سوداء مظلمةٌ والنار معبودةٌ مُدُّ كانت النار (٣)
وقوله :

إبليس أفضلٌ من أبيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار
النار عنصره وادم طينته والطين لا يسمو سمو النار

ورد عليه صَفْوَان الأنصاري بقصيدة منها :

زعمت بأن النار أكرم عنصرا وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند (٤)
وتُخَلِّقُ في أرحامها وأرومها أعاجيبٌ لا تُحصى بخطولا عقدا (٥)

(١) الوزراء والكتاب ١٧٠

(٢) وفيات الأعيان ١٨٧

(٣) الأغاني ٢٠/٣ والبيان والتبيين ١٦/١

(٤) يعني أن النار كاملة في الحجارة والزند

(٥) الأروم : جمع أرومة وهي الأصل ، العقد : ضرب من الحساب .

كذلك سِرُّ الأرض في البحر كله وفي الغَيْبَةِ العَنَاءُ والجبل الصُّلْدُ
ولا بد من أرض لكل مُطَيِّرٍ وكل سُبُوح في الغمائر من جُدِّ (١)
إلى أن يقول :

مفاسِحُ للطين الذي كان أصلنا ونحن بنوه غيرَ شك ولا جَحْدُ
فذلك تدييرٌ ونفحٌ وحكمةٌ وأوضحُ برهان على الواحد الفرد (٢)
ونرجح أن تقيمتهم كانت أحياناً تخفى حقيقة بعضهم على بعض ،
يدل على هذا قول أبي نواس :

كنت أتوهم أن حماد عَجْرَدٌ إنما يُرْمَى بالزندقة لمجونه في شعره ،
حتى حُبِسْتُ معه في حبس الزنادقة ، فإذا هو إمام من أئمتهم ، وإذا له
شعر مزاج بيتين بيتين يقرأونه في صلاتهم (٣) ، ويدل عليه أن
بشاراً هجا حماد عجرد بقوله :

يابن نِهْيَا رأسٌ على ثَقِيلٍ واحتمال الرموس خطب جليل
فادعُ غيري إلى عبادة رَبِّي من فإني بواحد مشغول

فقال حماد : ما يغبطني من بشار إلا تجاهله بالزندقة ، يوهم
الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ، ليظن الجهلة أنه لا يعرف
الزندقة ، لأن العامة تقول مثل ذلك ، وهو لا حقيقة له ، وبشار أعلم
بالزندقة من ماني (٤) .

(٤) الفائر : جمع فمير وهو الماء الكثير . الجد : يضم الجيم وتضمها شاطيء النهر .
أى لا بد لسكل سابح من شاطيء .
(٥) البيان والتبيين ٢٧/١
(١) الأغانى ٧٤/١٣ وما بعدها
(٢) الأغانى ٧٦/١٣ .

ويظهر أن الشعراء الزنادقة أحسوا بحاجتهم إلى الاتحاد والتأخي ، لأن العقيدة الشاذة تجمعهم ، ولأن في تأنيهم نوعاً من الأناقة والاطمئنان ، فكانوا يجتمعون على الشراب للمنادمة وقرص الشعر ، ويكادون لا يشترقون ، وكانوا يتهاجون جادين وهازلين ، ويضطرب بعضهم لهجاء بعض ، وأحياناً يتفاسمون ما لهم ، فلا يستأثر أحدهم على صاحبه بما ، هكذا كان يفعل مطيع بن إلياس ويحيى بن زياد الحارثي وابن المقفع والبة بن الحباب (١) .

وكان حديثهم لا يخلو من مجون وخلاعة وتجريح للأعراض ، مر مطيع بن إلياس بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدathan ، فقال لهما : فيم أنتم ؟ قال : في قلف المخصنات . قال : وهل في الأرض مخصنة تقلقنا ؟ !

على أنه كان من الزنادقة من أسلم فخلّف دينه القديم وراءه ، وكان منهم من تاب وأناب وصح دينه وتناه .

يمثل النوع الأول عبد الله بن المقفع ، أسلم في أواخر حياته ، وكان إلى ليلة إسلامه حريصاً على أن يبيت ليلته على دين ، ذلك أنه قضى حياته إلا بضع سنوات على دين آباءه المجوس ، فلما اعتزم على الإسلام قال له عيسى بن علي عم الخليفة المنصور : ليكن إسلامك في مجتمع من القواد ووجوه الناس ، فاحضر غداً .

وفي عشية اليوم نفسه حضر طعام عيسى ، فجلس يأكل ويترجم على عادة المجوس ، فقال له عيسى : أتترجم وأنت تعتزم الإسلام في الغد ؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين .

وما من شك في أنه قبل أن يسلم كان مجوسياً ، وكان يبتث المجوسية فيما يترجم ويؤلف من كتب ، لكنه بعد إسلامه لم يعرف عنه شيء من هذا القبيل ، فلعل التهمة جائزة أريد بها التنكيل به ، لأن لها سنداً من ماضيه الذي انفصل عنه ، ومن شأن التهم ألا تفرق بين ماض وحاضر ، وألا تتبين أو تتحرى .

ويمثل النوع الثاني أبو العتاهية في حياته الأولى ، فقد كان زنديق العقيدة في أول أمره ، ثم ندم على ما فرط منه ، وصار من أعلام الداعين إلى التقوى والزهد والخوف من الله ، لكن رواسب من مذهبه القديم مازالت تطفو على تعبيره ، كقوله :

الخير والشر مُزَادٌ وَمُنْتَقَصٌ فالخير مُنْتَقَصٌ والشر مُزَادٌ
فالخير ليس بمولود له ولد لكن له من بنات الشر أولاد

ومعنى هذا أن العالم كله شر ، لأن الخير دائماً في نقص ، ولا يلد خيراً ، على حين أن الشر دائماً في تمام ، لأنه يلد شراً ، ثم إن الخير له من بنات الشر أولاد ، وهذه فكرة مانوية .

وقال :

الخير والشر عاداتٌ وأهواءٌ وقد يكون من الأحباب أعداء
كل له سعيه والسعي مختلفٌ وكل نفس لها في سعيها شاه
لم تقسح في دواعي النفس معصية إلا وبينى وبين النور ظلماء

وهذا صريح في أن أفعال الخير صادرة من النور ، وأفعال الشر صادرة من الظلمة .

ويبدو أن أبا العلاء المعري - على أنه لم يتزندق - متأثر في بعض آرائه بالمانوية وفيها عناصر بوذية كما تقدم ، كما أخذ نفسه بالزهد

والعزوبة ، ودعوته إلى ترك الزواج والتناسل ، وامتناعه عن أكل
الحيوان وما ينتج منه ، ونظرته إلى العالم على أنه شر يجب الخلاص
سه ، من هذا قوله إن العالم مجبول على الأذى والشر :

وفائدة النوم الخروج بأمله عن عالم هو بالأذى مَجْبُولُ

وقوله لست الناس لم يخلقوا :

خير لآدم والخلق الذي خلقوا من ظهره أن يكونوا قبل ما خلقوا

وسخطه على الحياة وتحقيرها في قوله :

أصاح هي الدنيا تشابه مَيْتَةً ونحن حواليتها الكلابُ النوايحُ

فمن ظل منها آكلاً فهو خامسٌ ومن راح عنها ساغباً فهو رابعٌ

ونصحه بترك الزواج والنسل :

نصحتك لا تتكحُ فإن خفتَ مأثماً فأعرِسْ ولا تنسُلْ فذلك أحزمُ

ونبهه عن أكل السمك واللحم والبيض والطيور وعسل النحل وشرب

اللبن ، لأن ذبح الحيوان ظلم ، واغتصاب نتاجه ظلم :

لا أفجع الأم في الرضيع ولا أشرك هذا الغرير في اللبنِ

واعتناقه العجبر في قوله :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياى ، فهل لى بعد تخيبر؟

(٢) الزنادقة الشكوية

وكان من أثر الزنادقة أن كثر المجان والخلعاء ومن لا يرحون

حرمات الدين ، وإن لم يتزندقوا ، وأطلق عليهم اسم الزنادقة ، كإبراهيم

ابن سيّار ، فإنه كان يُرمَى بالزندقة ، ولم يعرف عنه قول في الدين ،

وإنما رى بها لخلاعته ومجونه ، وكادم حفيد عمر بن عبد العزيز .
كان ماجناً سكيراً ، يروى عنه قول :

اسقني واسق غصبينا لا تبغ بالنقد ديننا
اسقنيها مزة الطعسم تريك الشين زينا

فضربه المهدي ثلاث مئة سوط على أن يقر بزندقته ، فقال : والله
ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشياً تزندق ؟ لكنه طرب
غلبني ، وشعر طفح على قلبي ، وأناقتي من قرش ، أشرب النبيذ ،
وأقول ما قلت على سبيل المجون ، ثم هجر الشرب والمجون (١) .
ومن هؤلاء أبو نواس ، وله في الجرأة على الدين شهرة وضروب ،
كقوله :

بكرت على تلومني فأجبتها إني لأعرفُ مذهب الأبرار
فدعى الملام فقد أطعت غوايتي وصرفت معرفتي إلى الإنكار
ورأيت إتسالي اللداذة والموى وتمجلاً من طيب هدى الدار
أخرى وأحزم من تنظر آجل علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أوفى النار !

كذلك من آثارها أن اتخذ بعض الناس من التظاهر بهذه الخلاصة
وسيلة لوسمهم بالظرف ، وإن لم يكونوا من الزندقة الدنيوية في شيء ،
كمحمد بن زياد ، فقد كان يتظاهر بالزندقة ظرفاً ، فقال فيه
الشاعر (٢) :

(١) الأغانى ١٠/١٤

(٢) الأغانى ١٥/١٧

يا بن زياد يا أبا جعفر أظهرتَ ديننا غير ماتخفي
مُزَنِّدَق الظاهر باللفظ في باطنِ إسلام فتى عفت
لستَ برنديقٍ ولكننا أردتَ أن توسم بالظرف

تعقيب

على أن المجون لم يكن طابع العراق ، والزندقة لم تسكد لتقرب من
أن تكون مرضاً شبه عام ، وإنما كان المجون محدوداً في دائرة خاصة ،
وكانت الزندقة في العقيدة سمة آحاد أو بضع عشرات من الناس ،
ولولا قلة عدد المجان والزنادقة ما سجلت الكتب أسماءهم وأحداثهم ،
فمن الخطأ أن نصم العراق في العصر العباسي بأن المجون طابعه ، أو بأن
الزندقة شعاره .

١ - وكيف نغفل عن جمهرة الشعب ، وهم مؤمنون حراس على دينهم ؟
وهل من الإنصاف أن نتناسى تعقب الدولة إياهم وثقتيلها من
تثبت زندقته ؟

٢ - ثم كيف نتغاضى عن جمهور العلماء وهم أصحاب جند وورع
سواء منهم علماء الدين أو علماء اللغة والأدب ؟

٣ - وهل من العقول أن نتناسى المعتزلة وهم الذين وقفوا للزندقة
والملاحدة بالمرصاد ، يفسدون عليهم تدبيرهم ، ويردون إليهم أضاليلهم ،
وينفخون عن الإسلام بأقلامهم وألسنتهم ؟

وللمعتزلة مؤلفات شتى في إبطال ما كانت ترجف به الجهمية
والرافضة والثنوية والدهرية ، وطالما ناظروا الزنادقة وأبطلوا دعاوهم ،
كما يحدث التاريخ عن واصل بن عطاء ، فيروى عمر الباهلي أنه اطلع

على الجزء الأول من كتاب (ألف مسألة) الذى ألفه واصل للرد على
المانوية (١) ، وكقول زوجة واصل إنه كان إذا جن الليل صفّ قدميه
للصلاة وأمامه لوح ودواة ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس
فكتبها ، ثم عاد إلى صلاته (٢) ، وكان أبو الهذيل العلاف قد ألف
ستين كتاباً فى الرد على الزنادقة (٣) .

كذلك حمل عليهم الجاحظ وناقشهم وفنّد مزاعمهم فى كثير من
كتبه ورسائله .

ولم يكتف المتدينون من العلماء بالمناقشة والرد وإبطال أراجيف
الزنادقة ، بل حرصوا على قتلهم ، فهذا واصل بن عطاء يفرى بقتل
بشار فى قوله :

أما لهذا الأعمى الملقب المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟

أما والله لولا أن الغيلة سحّية من سجايا الغالية لنسست إليه من
يبيحُ بطنه فى جوف منزله (٤) .

٤ - كذلك عرف العصر العباسى كثيراً من المتصوفة ، وكان
للتصوف فيه شأن عظيم ، والمتصوفة أبعد الناس عن المجون وعن
الزندقة . على أن العراق وبخاصة بغداد والكوفة والبصرة كانت عامرة
بالأحناف والحنابلة ، وهم ثقافة حماة للدين ، وكان الحنابلة يتشددون
فى مقاومتهم للمنكر ، وينكرون بالخارجيين على الإسلام .

(١) النية والأمل ٢٠

(٢) النية والأمل ١٩

(٣) النية والأمل ٢٥

(٤) البيان والبيان ١٦/١

٥ - وليس من الحق أن نصف عصراً ما بالجد المطلق ، ولا أن نسمي
عصراً ما باللغو المطلق ، ولا من الحق أن نصور مجتمعاً ما بصيغة
نفي منه ، لأن هذا تعميم لا يصح أن يتجاوز نطاق التخصيص .

وهؤلاء نفر الذين اشتهروا في العراق بالزندقة سواء أكانت في
العقيدة أم في المظهر ما هم إلا قلة في مجتمع كبير ، قلة منحرفة في
كثرة لا تشاكلهم في الدين والأخلاق والنزعات .

وهل من الصواب أن نصف مجتمعنا العربي المعاصر بالمجون والخلاعة
لأن نفراً من الناس يشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويخادنون
ويراقصون ويرتكبون ما ياباه الدين ؟

كذلك من الظلم للمجتمع العراقي في العصر العباسي أن نصوره
مجتمعاً منحلاً ، إباحياً مستهيناً بالدين ، حتى في بغداد نفسها ، كما
صوره الدكتور طه حسين في كتابه حديث الأربعاء .

الحق أن العصر العباسي كان ذا ألوان ونزعات شتى ، وفي بغداد
نفسها كان الإلحاد والمجون والزندقة أنصلاً لونا ، وأقلها عدداً ،
ولكن شلوذها كان السبب في شهرتها ومعرفة أصحابها ، لأنها خرجت
على المألوف ، ومصادمة للمجتمع ، ومن شأن الشاذ أن تذيب أخباره
ويتناقلها الناس .

٦ - على أن هذا الغلو في التحلل من العقيدة ومن المثل العليا
اقتضى نزوعاً آخر يقاومه ، فنشأت جماعة من العلماء والأتقياء تصد
الناس عن الاستجابة للزندقة ، وتحجب إليهم التدين ، وترغبهم في

الآخرة ونعيمها ، وتزهدهم في متع الحياة الدنيا ، وتحلّوهم عقاب الله في الآخرة .

ولقد استطاعت هذه الطائفة بما أوتيت من قوة الإيمان ونصاعة البيان أن تعوق تيار الإلحاد ، وأن تهدي الناس إلى الحق والخير .
ولا ننكر أن الخلفاء والولاة ساعدوا دعاة التدين ، وقربوهم إليهم ، فكان في هذا وفي ذلك تشجيع لهم وتزكية لأقوالهم .

ويقتضينا الإنصاف أن نذكر أن بعض الشعراء قاوموا نزعة الزندقة والإباحة والخلاعة ، وزعيمهم في هذا أبو العتاهية النبطي الأصل .

والحق أنه لم يبتدع الشعر الزهدي ، لأن الأدب العربي عرفه قبله ، ولكنه زاد على ما سبق به ، وفصل تفصيلا ، وأكثر إكثارا ، وألح على الناس في التنفير من اللذة وفي الترغيب في الطاعة والاستقامة وفي التخويف من الموت والعذاب ، كقوله (١) :

طلبتك يا دنيا فاعذرت في الطلب فما نلت إلا الغم والمم والنصب
فلما بدا لي أنني لست وأصلا إلى لذة إلا بأضعافها تعب
وأسرعت في ديني ولم أقض بغيري هربت بديني منك إن نفع الهرب

ولما استنشده الخليفة المأمون أجود ما قاله في الموت أنشده قوله (٢) :

أنساك مخياك الماتا فطلبت في الدنيا الثباتا
أو ثقفت بالدنيا وأنست ترى جماعتها شتاتا ؟

(١) ديوان أبي العتاهية ٢٥

(٢) الديوان ٥٣

وعزمت منك على الحياة وطولها عزمًا بثباتا ؟
يا من رأى أبويه فيسمن قد رأى كانا فماتنا
هل فيهما لك عبرة أم خلّت أن لك انفلاتنا ؟
ومن الذى طلب التفلّست من منيته فساتنا ؟
كلّ نصبحه النيسة أو تبينه بيانا

على أن التزهيد فى الدنيا ، ومقاومة الإلحاد ، والدعوة إلى التقوى
صلوت عن بعض الذين قضاوا ردها من حياتهم فى خلاعة ومجون ، أ
ثم تابوا إلى الرشاد ، مثل أبى نواس فى قوله :

أشقى ما بآل قلبك ليس ينقى كأنك لاتظن الموت حقا
ألا يابن اللين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
ومالك - فاعلمن - فيها مقام إذا استكلت آجالا ورزقا
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

الفصل الخامس

أبشار الفرس في الشعوبية

تمهيد :

أقبل الفرس على اعتناق الإسلام ، وجعل إقبالهم يتزايد عاماً بعد عام ، حتى جاء العصر الأموي وأكثرهم مسلمون ، وكانوا يعيشون مع العرب ويخالطونهم ويرتبطون بهم برابطة الولاء (١) .

وكان عندهم كبيراً منذ القرن الأول للهجرة ، يدل على هذا أن الموالى بالكوفة كانوا أكثر عدداً من العرب ، وكان أكثرهم من الفرس ، قدموا إلى الكوفة أسرى حرب ، ودخلوا في الإسلام ، ثم أعتقهم مالكوم العرب ، فكانوا موالى لهم ، ويدل على هذا أن عدد القتلى في موقعة الحرة من الموالى - فرس وروم وغيرهم - بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة ، على حين كان قتلى الأنصار نحو ألف وخمسمائة ، وقتلى قريش كذلك (٢) ، هؤلاء الموالى وبخاصة الفرس حنقوا على العرب عامة وعلى بنى أمية خاصة .

أما حنقهم على العرب فراجع إلى أن العرب قوضوا دولتهم ،

(١) قد يكون الولاء نتيجة للمقاييس التي سبب العبد إلى سيده الذي أعتقه أو إلى قبيلته ، وقد يكون نتيجة لإسلام أصمى على يد عربي عاهده على أن يكون مولى له ، وقد يكون ثمرة لإسلام الأصمى مطلقاً سواء أكان عبداً لعربي أم لا ، وسواء أسلم على يد عربي أم لا ، لهذا سمي الأعمام بالموالى ، لأن العرب فتحوا بلادهم عنوة ، وكان لهم استرقاقهم ، فإذا تركهم أحراراً تكأنتهم فاعتقوهم ، فالموالى إذن هم المعتقون .

(٢) أدب السياسة في العصر الأموي ٤٣٦ .

واحتلوا بلادهم ، وجعلوهم أتباعاً لهم ، ثم استعلى بعض العرب عليهم .
وهم لم يطيقوا هذا الاستعلاء .

وكانت أبرز ضروب الاستعلاء واضحة في أعمال بعض الحكام
والساسة وبعض العرب الذين ما زالوا متسمين بطابع الجاهلية .

وقد تعددت مظاهر هذا الاستعلاء ، فمنها ترفع العرب عن تزويج
بناتهم للذين أسلموا من فرس وروم ، نخطب أحد الموالى بنتاً من أهراب
بنى سُليمان وتزوجها ، فغضب محمد بن بشير الخارجي ، ورأى أن هذا
عار لحق بالعرب ، فركب إلى والى المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ،
وشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، ولم
يكتف بهذا ، بل ضربه مثنى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ،
وطابت نفس محمد بن بشير بهذا العقاب فقال (١) :

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم تَرِثَ الحكومة من بعيد
وفي المثلين للمولى نكالا وفي سلب الحواجب والخود
إذا كافأهم بينات كسرى فهل يجند الموالى من مزيد ؟
فأى الحق أنصف للموالى من اضهار العبيد إلى العبيد ؟

ومن هذه المظاهر احتقار بعض العرب لأبناء الإمام ، فكانوا
يصفون ابن الأمة من عربى بأنه هَجِين ، ومعنى هذا أنه مشوب النسب
معيب ، لأن الهجنة هي الكلام الذى يعيب قائله ، والهجين اللثيم ،
والعربى المولود من أمة ، أو من أبوه خير من أمه (٢) .

وكان بنو أمية - والدولة قوية - لا يستخلفونهم ، بدعوى أن
العرب لا ترضى أن تخضع لهم (٣) .

(١) الأغاني ١٤/١٥٠ . (٢) اللسان والقاموس مادة هجن . (٣) العقد الفرید ٣/٢٩٧ .

فلما ضعفت النولة ، وهدأت النعرة ، تولى بعضهم كيزيد ابن الوليد وأخيه إبراهيم ، ومروان بن محمد .
ومن عجب أن جهر بتحقيير أبناء الإمام عبد الملك بن مروان على مسمع من ابنه مسلمة - أمه أمة - وتمثل بشعر يفض من شأنهم ، فرد عليه مسلمة بشعر يرفع من أقدارهم ، فسرَّ عبد الملك ، وقبيل رأسه ، وأمر له بمئة ألف (١) .

وبلغ التعصب بنافع بن جبَّير أنه كان إذا مرت به جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا : عربي ، قال ، وابلدناه ، وإذا قالوا : مولى ، قال : هو مال الله ، يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء .

ويدكرون عن نافع هذا أنه قدَّم مولى ليصل به ، فسئل عن ذلك . فقال : أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

وفي العقد الفريد أمثلة شتى على هذه الشاكلة ، كنداء العرب لهم بالأسماه والألقاب ، لا بالكُنَى ، وكننيتهم عن محاذاة العرب في الصف وهم يمشون ، وإبعادهم عن الصلاة على الميت إذا وجد عرب يصلون عليه (٢) .

وأما حنقهم على بنى أمية بخاصة فمرجعه إلى أسباب عدة .

١ - أنهم الحكام الذين يمثلون العرب العاديين على مُلْك الفرس والروم ، وأنهم يؤثرون العرب بالولايات والوظائف ، ويختصونهم بالتقريب والإيثار ، ويقصون الموالي عن الحكم والتكريم .

٢ - ثم إن بعض ولاية بنى أمية أساءوا معاملة الموالي ، فالحجاج

(١) راجع المرأة في الشعر الجاهل لمؤلف ١٣٩ ، ٤٠٨ .

(٢) العقد الفريد ٤ / ٣٦٣ - ٣٦٨ .

أمر بالأل يوم الناس في الصلاة بالكوفة إلا عربي (١) ، وتقى النبط من
واسط لما نزل هناك .

٣ - على أن الموالى نخشوا على مكائنتهم وأرزاقهم لما عربت دواوين
الخراج ، والذي يعني هنا ما يتصل بتعريب ديوان فارس ، فإن
الحجاج لما أمر بتعريبه ضاق كتاب الفرس ، كما ضاق من قبلهم
كتاب الروم ، ونخشوا أن ينضب معين رزقهم ، وأن يفقدوا مظهراً
من مظاهر حاجة العرب إليهم ، فقالوا لصالح بن عبد الرحمن - وهو
الذي عرب الديوان ، وكان يعرف العربية والفارسية - كيف تصنع
بدهونه وششونه ؟ فقال : أكتب عُشراً ونصف عشر ، فقالوا له :
وماذا تصنع بويّد ؟ قال : أكتب أيضاً . فقال بعضهم : قطع الله أصلك
من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، ثم بدلوا له مئة ألف درهم ،
على أن يظهر عجزه عن تعريب الديوان ، فأبى ، لهذا قال عبد الحميد
ابن يحيى « لله در صالح ، ما أعظم منته على الكتاب » يريد الكتاب
العرب .

٤ - وقد كان من أسباب كراهيتهم لبني أمية أن كثيراً منهم
كانوا متشيعين منذ عهد علي بن أبي طالب ، وأخذ عددهم يتزايد
ويتضاعف (٢) . فهم يكرهون الأمويين ، لأنهم معتصبون للخلافة وهي
في نظرهم حق العلويين ، ولعل هذا كان من حوافزهم إلى مؤازرة الثورات
والثائرين ، ولعل كثيراً منهم اصطنع التشيع ليتخذ وسيلة إلى تقويض
الحكم العربي .

(١) المقدم الفريد ١/١٠٧

(٢) راجع أدب السياسة في العصر الأموي للمؤلف ص ٣٤

لكن جمهرة العرب لم يقيموا علاقاتهم بالعجم من فرس وغيرهم على هذه النعرة ، بل كانوا يرون في العجم الذين خفق على بلادهم لواء الإسلام إخوة لهم في الدين ، ولعلمهم وجدوا في هذه النظرة قريبة إلى الله ومثوبة ، ووجدوا فيها امتثالا لقوله تعالى :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (١) » وقوله : « إِن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) » وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

ولقد كان لهم أعظم أسوة في معاملة النبي وكبار الصحابة للموالى وتسويتهم بالعرب ، وهم يعلمون أن عمر تمخى في آخر لحظة من حياته أن سألوا مولى حنيفة حتى ليعهد إليه بالخلافة ، ويعلمون أن جماعة من أصحاب عليّ مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستمّل من تخاف خلفه من الناس . فقال لهم : أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور (٣) ؟

ذلك أنهم رأوا معاوية يختص أشراف العرب بعطائه ، فأرادوا من عليّ أن يصنع مثله ، ولم يكن عليّ يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل ، فكان هذا من أقوى الأسباب في تقاعدهم عنه (٤) .

وكان أكثر المسلمين لا يحتقرون الموالى ، ولا يترددون في أخذ

(١) سورة الحجرات ١٠

(٢) سورة الحجرات ١٢

(٣) شرح نهج البلاغة لأبي الخديد ١ / ٨٢

(٤) المرجع السابق ١ / ١٨٠ .

العلم عنهم ، كما أخطوا عن الحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وابن جريج ، وابن سيرين ، وعطاء بن يسار ، وغيرهم ، وكلهم موال ، ويذكر ابن خلكان أن الحسن البصرى كان ينتقد خلفاء بنى أمية ، ويعيب يزيد بن المهلب ، فجاءه يزيد فى رهط من قومه ، وهم أحدهم بقتل الحسن ، فغضب يزيد وقال : أغمد سيفك ، فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا (١) .

أصداؤها فى العصر الأموى

حنق الفرس على الدولة الأموية ، لأنها عربية تكل شؤونها إلى العرب ، ولأنها لم تنظر إلى الفرس نظرة التقريب والتقدير ، ونقموا من العرب أن بعضهم تعالوا عليهم ، وعتوهم أتباعا وأقل منهم شأنًا وأدنى أصلا وحسبًا ، مخالفين ما يدعو إليه الإسلام من إخاء ومساواة . لكن الفرس لم يستطيعوا فى العصر الأموى أن يجهروا بشعوبيتهم ، إذ كان بعضهم يدين للعرب بالسيادة والفضل ، لأنهم أهل الدين ، وكان بعضهم يداجى ويكتم ما بنفسه خشية من العرب ، وإن لم يدين لهم بفضل .

وكان من الطبيعى أن يشادى بعض الفرس بتحقيق المساواة التى شرعها الإسلام وحققها النبى وخلفاؤه الراشدون .

ثم شرعت أصوات فارسية ترتفع ، فتقابل تعالى العرب بمثله . وتباهى بماضى الفرس وسعة ملكهم وعظمة حضارتهم وثراء بلادهم ، وتميز بعض هذه الأصوات بالجرأة على العرب والتشديد بهم فى رمز ومواربة .

ويظهر أن شعراء العرب هم الذين بدأوا بالتهجم على الموالى في العصر الأموي ، فقد مرت أبيات لمحمد بن بشير في تحقيرهم وأنفته من إصهارهم إلى عربى ، وفي شعر جرير والفرزدق جرح لهم وزرابة بهم (١) فلما مضى من عمر الدولة الأموية نحو نصفه ، بدأ نجم الأعاجم يتألق وبخاصة منذ عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) وكان لهذا التألق عدة أسباب ، إذ اشتهر بالعلم والورع كثير ممن وللتهم أمهات غير عربيات ، وكان بعض أمراء بنى أمية من أمهات فارسيات كيزيد بن المهلب وأخيه إبراهيم ، ويزيد هو القاتل :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان
ومن هؤلاء الأمراء مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان بنو أمية قد بدأوا يخففون من زرايتهم بالموالى ، لأنهم كثرة يحشون منهم على الدولة ، ولا سيما أنهم ضالعون مع الشيعة ، والدعوة الشيعية تنتشر في خراسان ، والفرس يهشون لها .

وفي هذا الوقت كان بعض الموالى من الفرس قد أجادوا الشعر العربى كزياد الأعجم مولى عبد القيس ، وأبى العباس الأعمى مولى بنى الدليل ، ويزيد بن ضبة مولى ثقيف ، وإسماعيل بن يسار .

وليس من الطبيعى أن يطبق هؤلاء ما يلقون من تحقير وإبعاد ، فشرعوا ينفسون عن أنفسهم ، فيباهون بمجد الفرس وعظمتهم ، وينددون بالعرب تنديداً مستورا ، ويتهجمون عليهم في ملح خاطف . والأمثلة على هذا كثيرة ، منها أن هشام بن عبد الملك دعا لإسماعيل

(١) أدب السياسة في العصر الأموي ٤٧٥

ابن يسار لينشده ، وكان لا يتوقع منه غير المدح ، فلذا به يسمع مباحاة
بالفرس كقوله :

أصلى كريمٌ ومجدي لا يُقاسُ به ولي لسان كحذُ السيف مسمومٍ
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قرم يتاج الملك معوم
مَنْ مثلُ كسرى وسابور الجنودِ معاً والمُرْمزانِ لفخرٍ أو لتعظيم
هناك إن تَسألِي تُنبئِي بأن لنا جرثومة قهرت عِزَّ الجرائمِ
لفغضب هشام وسبه ، وأمر به فألقى في بركة حتى كاد نفسه
تخرج ، ثم نفاه إلى الحجاز (١) .

ولم يكن لإسماعيل بن يسار يقنع بهذا الفخر وما يمثله ، بل جعل
يتهجم على العرب كقوله :

فاتركي الفخر يا أمّامَ علينا واتركي الجور وانطقي بالصوابِ
واسألِي إن جهلتِ عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقابِ
إذُ نربُّ بناتنا وتلدسو ن سفاها بناتكم في الترابِ (٢)
وكان أشعب في الساميين ، فقال له : صدقت والله ، أراد العرب
بناتهم لغير ما أردتموهن له . قال لإسماعيل : وما ذاك ؟ قال أشعب : دفن
العرب بناتهم خوفاً من العار ، وربيتموهن لتسكحوهن ، فضحك القوم ،
وخجل لإسماعيل .

كذلك كان يزيد بن ضبة يفاخر بالفرس ، كقوله :

ألم تر أننا لما ولينا أمورا خرقت فدنت سدنا
ولينا الناس أزمانا طوالا وسسناهم ودسناهم وقدنا
ألم تر من ولدنا كيف أشبى وأشبينا وماهم قعدنا (٣)

(١) الأغاني ٤ / ٤٠٨ قرم : سيد . معوم : معم والمراد متوج .

(٢) الأغاني ٤ / ١٢٠ . (٣) أشبي : ولد له ولد كيس .

وفد أنشد أمام الوليد بن عبد الملك شعرا يفخر فيه بالفرس ، فلم ينسكروه عليه .

ونلاحظ أنهم كانوا في العصر الأموي كثيراً ما يكتفون بالفخر .
فإذا ما أرادوا التعرض للعرب اعتمدوا على الكناية والرمز بهند وأمامة
ونحوهما .

أصدائها في العصر العباسي

انتهى العصر الأموي ، وصوت الموالى خافت ، فلما جاء العصر
العباسي علا صوتهم ودوى ، إذ اتسع المجال أمامهم ، واطمأنوا إلى
حريتهم المكفولة ، واستباحوا تسامح الدولة ، واستمتعوا بنفوذ عظيم في
قصور الخلفاء ودواوين الحكام ، بل كانت الوظائف الكبار مقصورة
على الفرس .

وإذا كان قليل جداً من الموالى قد تولوا بعض أعمال عامة في عهد
بنى أمية ، فإن توليتهم في عهد بنى العباس صارت القاعدة والأساس ،
فأكثر من ولأهم المنصور موالٍ ، ثم حاكاه من جاءوا بعده ، وقد كان
المؤمن يؤثر الفرس جَهرةً ، ويشك في ولاء العرب له كما تقدم .

لهذا شَرِّقَتْ قصور الخلفاء بالموالى من رجال ونساء ، وغص الجيش
بهم ، حتى إن الفضل بن يحيى البرمكي اتخذ جنوداً من خراسان سباهم
العباسية ، جعل ولائهم للعباسيين ، بلغ عددهم خمس مئة ألف ، وقدم
منهم إلى بغداد عشرون ألفاً ، ثم جاء المعتصم فاستخدم الترك ، وآثرهم
على الفرس ، فتنافس الترك والفرس على السلطان ، وصار بأسهم بينهم

شديداً ، لكن الترك انتصروا ، ففقد الفرس والعرب مكانتهم ونفوذهم (١) .

كانت الحالة السياسية والاجتماعية مواتية للفرس في العصر العباسي . فجهروا بشعوبيتهم في غير تعريض ولا كناية كما سنبين . على أن بعض أبناء الفرس مازالوا يشعرون بحاجتهم في العصر العباسي إلى الاحتماء بالولاء وبالانتساب إلى العرب ، كان لعلي بن الخليل الكوفي صديق من الدهاقين يعاشره ويبره ، فغاب عنه مدة طويلة ، ثم عاد إلى الكوفة وقد أصاب مالمأ ورقعة ، وقويت أحواله ، فادعى أنه من تميم ، فجاهه علي بن الخليل ، فلم يأذن له ، ولقيه فلم يسلم عليه ، فقال بهجوه :

يروح بنسبة المولى ويصبح يدعى العربا
فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طلبا

إلى أن يقول :

جحدت أباك نسبتة وأرجو أن تُفسد أبا (٢)

وكذلك هجا أبو العتاهية والبة بن الحُباب لما ادعى نسبه في

العرب ، ودعاه إلى أن يعتصم بنسبه في الموالى مثله :

أو الب أنت في العُرب كمثل الشَّيص في الرُّطب
هلم إلى الموالى الصَّيب مد في سعة وفي رَحَب
فأنت بنا لعمُر اللد ، أشبه منك بالعرب (٣)

(١) أدب السياسة في العصر الأموي ٤٩٠ .

(٢) الأغاني ١٣/١٨ .

(٣) الأغاني ١٦/١٤٩ .

١ - فخر شعراء الفرس وتهجمهم على العرب

علت أصوات فارسية تفخر بمجد الفرس وعظمتهم ، وتجهر
بتحقير العرب ، وتعيبرهم الفقر والمجذب وشظف العيش والجهل
والفوضى ووآد البنات ، وتذكرهم بأنهم كانوا عملاء كسرى أو حراسا
على قوافله التجارية القادمة إلى بلادهم .

من فخرهم قول بشار بن برد :

وَنُبِّئْتُ قوما بهم جِنَّةٌ يقولون : مَنْ ذَا ؟ وَكُنْتَ الْعَلَمُ
ألا. أيها السائلى جاهدا ليصرفنى أنا أنف الكرم
نَمَتَ في الكرام بنى عامر فروعى ، وأصلى قريش العجم
ويسأله المهدي : من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها في
الفرسان ، وأشدّها على الأقران ، أهل طخارستان .

ويقول أيضاً :

وهجاني معشر كلهم حنق دام لهم ذاك الحمق
ليس من جرّم ولكن غاظهم شرفى العارض قد سدّ الأفق
من خراسان وبيتى فى الثرى ولدى المسعاة قرعى قد سَمَق
وكان يتبرأ من ولاءه للعرب ، ويحض الموالى على نيل ولاهم فى قوله :
أصبحت مولى ذى الجلال ، وبعضهم مولى العريب ، فجدّ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعّال ومن قريش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر
وقد لامة شريف من بنى زيد على دعوته الفرس لنيل ولاهم ،
وقال له : قد أفسدت علينا موالينا ، ندعوم إلى الانتفاء منا ، وترغبهم
فى الرجوع إلى أصولهم ، وإلى ترك الولاة ، وأنت غير معروف الأصل .

فقال له بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ، وانصرعي أزكى من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يود أن يستبدل نسبه بنسبك (١) .

كذلك قال المتوكلي (٢) وهو من شعراء الخليفة المتوكل وندبه :

أنا ابن الأكارم من نَسْلِ جَمٍّ وحالز إرثِ ملوك العجم (٣)
ومحيى الذى باد من عزمهم وعقوى عليه طِوالِ القنم
وطالب أوتارهم جَهْرَةً فمن نام عن حقهم لم أنم
معى عَلمُ الكابيان الذى به أرتجى أن أسود الأمم (٤)
فقل لبنى هاشم أجمعين هلموا إلى الخَلع قبل التدم
ملكناكم عَنوَةً بالرما ح طغناً وضرباً بسيفِ تخلم
وأولاكم الملكَ آباؤنا فما إن وفيتم بشكرِ النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضبابِ ورعى الغنم
فإني سأعلو سرير السلوك بحد الحسامِ وحرفِ القلم

ولما أنعم الله على مهييار الديلمي الفارسي بنعمة الإسلام سنة ٣٩٤ هـ

قال قصيدة يشيد فيها بالإسلام ، ويهجن قومه بعبادة النار :

تبدلتُ من ناركم ربها وخُبتُ . مواعدها الخُلدَ طيبا
لكنه كان يفاخر بنسبه الفارسي ، ويخلطه أحياناً بفخره بالإسلام

كقوله :

أصجبتُ في بين نادى قومها أم سعدِ فمضتُ تسألُ بي
سرهما ما علمتُ من خُلُقِي فأرادتُ علمها ما حسبي

(١) الأغال ٢/٤١ .

(٢) مسجم الأدياء ١/٣٢٣ .

(٣) جم : يعنى جمشيد ملك الفرس .

(٤) الكابيان : نسبة إلى كابة وهو حداد فارسي رفع علم الثورة .

لا تخال نسباً يخفضني أنا من يرضيك عند النسب
فوى استولوا على الدهر قتي ومشوا فوق رموس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أب مثل أبي ؟
قد قبستُ المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبي
وضممتُ الفخر من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

أما أبو نواس فقد تهجم على العرب بوسيلة أخرى ، هي تهكمه
الكثير بطريقة العرب في التقديم لقصائدهم بالغزل وبكاء الأطلال ،
ودعوته الملحة إلى بدء القصائد بالخمريات .

وقد يُظن أن هذا لون من التجديد أراد أن يلون به الشعر العربي ،
لكن هذا الظن لا يلبث أن يتوارى إذا ما لاحظنا سخريته بالعرب ،
وتهوينه من شأن قبائلهم ، وقد كان يستطيع أن يجدد بغير تنذر
وسخرية وتحقير ، كما فعل المتنبي حينما عجب من الشعراء المتكلفين
للحُب ، إذ افتتحوا مدائحهم بالغزل ، فهو على حق في عجبه ، وهو لم
يتعد العجب إلى الحملة على العرب ، قال المتنبي (١) :

إذا كان مدح فالنسيب المقدمُ أكلُ بليغ قال شعرا متيسم ؟

وشتان بين هذا وقول أبي نواس (٢) :

تبكى على طلل الماضين من أسدٍ لا دَرٌ ذرُّك قل لي مَنْ بنو أسد ؟
لاجف دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد
كم بين ناعت خمير في دساكرها وبين باله على نُوى ومُنْتَصِد

(١) شرح ديوان المتنبي ٢/٢٤٩ .

(٢) ديوان أبي نواس ٢٦٦

وقوله (١) :

صفة الطلول بلاغة القسَمِ فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله (٢) :

لا تبيك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقوله (٣) :

دع الأطلال تسفيها الجنوبُ وتبكي عهدَ جنتها الخطوب
ونخلُ لراكب الوجناء أرضاً تحثُّ بها النجيبه والنجيب

.....

وهذا العيش لا نعيمُ البوادي وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى وأين من الميادين الزروب ؟

ولما حبسه الرشيد لتهتكه ومجونه قال (٤) :

أعرشك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزدى به نعتك الخمر
دعاني إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعي أن ترد له أمرا
فتعماً أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مسلكا وخرأ

٢ — مؤلفات الفرس في التهجم على العرب

ألف الفرس كتباً شتى في الانتصار لأنفسهم ، بعضها في الإشادة
بمناقبتهم ومناقب المعجم (٥) عامة ، وبعضها في الانتقاص من العرب
وذكر مثالبهم .

(١) الديوان ٣٢٣ .

(٢) الديوان ٢٦٥ .

(٣) الديوان ٢٤٤ .

(٤) الديوان ٢٨٢ .

(٥) الفهرست ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٥٥ .

ومن الضرب الأول كتاب فضل العجم على العرب ، وكتاب
انتصاف العجم من العرب لسعيد بن حميد البختكان ، وكتاب فضائل
الفرس لأبي عبيدة معمر بن المثنى .

ومن الضرب الثاني كتاب المثالب نعلان الفارسي الذي جرح فيه
العرب ، وتناول القبائل كلها بالثلب ، وكتاب المثالب الكبير ،
وكتاب المثالب الصغير ، وكتاب أبيهاف بغايا قريش في الجاهلية ،
ألفها الهيثم بن عدي ، وكتب أخرى ألفها سهل بن هارون رئيس بيت
الحكمة ببغداد ، وكتاب لصوص العرب ، وكتاب أدعياء العرب لأبي
عبيدة معمر بن المثنى ، وكتاب مثالب العرب والإسلام ليونس بن أبي
قروة ، وقد شخص به إلى إمبراطور الروم ، فأعطاه جائزة (١) .

وإنه لمن الخير الكثير أن هذه الكتب وأمثالها قد فقدت ، ولم
يبقى منها إلا فقرات أو رسائل قصار نثر عليها في بعض كتب الأدب
مثل كتاب العرب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد
الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة .

والعجب أن المأمون لم يجد بأساً في مؤلفات سهل بن هارون القيم
على بيت الحكمة في عهده ، ولا في مؤلفات معاصريه ، لأن بعض
الشعوبية كانوا من خاصته .

وعند خصوم العرب إلى كل فضيلة من فضائلهم فمسخوها مسخاً
وشوهوها تشويهاً ، وتنقصوا من أقدارهم في كثير من شؤون الحياة .
فعايبهم بتخلفهم في أفانين الحرب ، وأنواع السلاح ، وسخروا

(١) الأغانى ٧٦/١٣ وأمال المرتضى ٨٩/١ .

من مواقفهم الخطابية إذ يكثرون من الإشارة بأيديهم أو بمحاضرهم (١) وعصيتهم وقبيحهم .

وأنكروا عليهم فصاحتهم وبراعتهم الخطابية ، وقالوا إن الأمم كلها تستطيع الخطابة ، حتى الزنج الأغنياء يستطيعون أن يطيلوا الخطب ، ثم زعموا أن الفرس واليونان والهنود أقدر على الخطابة الممتازة بالأفكار والتعبير الجيد .

من أمثلة ذلك قولهم :

« لم تنزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ، ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها ، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات مثل صناعة الديباج ولعبة الشطرنج ورمانة القبان ، ومثل فلسفة الروم في ذات المخلوق ، والقانون ، والاصطرلاب »

ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصمها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة ، إلا ما كان من الشعر ، وقد شاركها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض ، فما الذي تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هي كالذئب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً (٢) .

٣ — اختلاقتهم أقاصيص وأحاديث نبوية

ثم إن بعضهم حاربوا العرب بأسلحة أخرى أشد خفاء ، وأسرح نفاذاً ، وأسهل تصديقاً ، فالذي يقرأ كتاباً في مفاخر العجم أو في

(١) الحضرة ، المعاصم والمقرعة والمكازة والقضيب . (٢) المقصد الفريد ٢/٢٥٥ .

مثالب العرب يتراءى له الشك فيما يقرأ ، وكثيراً ما يعرضه على موازين من عقله وخبرته وثقافته فيرفضه ، عمد بعض المتعصبين على العرب من الفرس إلى طريقة جديدة لا يعترضها شك أو رفض ، هي أنهم اختلقوا أخباراً وأقاصيص تنتقص من أقدار العرب ، فسروا بها بعض الأمثال ، وشرحوا بها بعض الشعر ، وأطالوا بها الأخبار .

وكذلك فعلوا في الحديث الشريف ، فوضعوا من الأحاديث ما يرفع من قدرهم (١) . كزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : « وإن تقولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (٢) » فقبل من يستبدل بنا؟ فضرب على منكب سلمان الفارسي ، وقال : هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لثاله رجال من فارس .

وكزعمهم أن العجم ذكرت عند رسول الله فقال : « لأنابهم أوثق منى بكم » ، وزعمهم أن رسول الله قال : « سيأتى ملك من ملوك العجم فيظهر على المبدائن كلها إلا دمشق » . وقال : « لا تسبو فارساً ، فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلاً أو آجلاً » .

كذلك ادعوا أن رسول الله أخبر بظهور أبي حنيفة وافتخر به ، فقال : إن آدم افتخر بي ، وأنا أفتخر بـيرجل من أمتى اسمه نُعمان وكنيته أبو حنيفة ، هو سراج أمتى ، وقوله : إن سائر الأنبياء يفتخرون بي وأنا أفخر بأبي حنيفة من أحبه فقد أحبنى ، ومن أبغضه فقد أبغضنى .

على أن الزنادقة من الفرس حاولوا تحت ستار الإسلام الذى اعتنقوه ظاهرياً أن يفسدوا عقائد المسلمين بطرق شتى ، منها وضع أحاديث

(١) الإصابة وتيسير الوصول وابن عابدين ورسائل البلقاء .

(٢) سورة محمد ٣٨

سبوية نبلبل المسلمين وتدعهم من أمور دينهم في حيرة ، كالذى فعله عبد الكريم بن أبي العوّجاء ، وقد اعترف حين قتله المنصور بأنه وضع أربعة آلاف حديث افتراها على الرسول .

يقول ابن الأثير : فلما يشس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة ، أخذوا في وضع الأحاديث المكلوبة وتشكيك ضعفة العقول في دينهم بأنور قد ضبعتها المحدثون ، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والظعن عليه ، وألقوا إلى كل من وثقوا به أن لكل عبادة باطنا ، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك ، ولا حرم عليهم شيئاً ، وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات ، وإنما هي قيود للعامة ، ساقطة عن الخاصة ، وكانوا يظهرون التشيع ليستروا أمرهم ، ويستميلوا العامة ، وتفرق أصحابهم في البلاد ، وأظهروا الزهد والعبادة ، ليغفروا الناس بذلك وهم على خلافه وتفرقت هذه الطائفة في البلاد ، وتعلموا الشعبذة والنارنجيات والنجوم فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد .

٤ - ادماؤهم التوحيد وتقديس الكعبة

لجأ الفرس إلى وسائل أخرى يبدو ظاهرها بعيداً عن الشعوبية وعن الانتقاص من قدر العرب ، ولكنها في حقيقتها منافسة للعرب في شرفهم بأنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وفي فخرهم بأنهم سكنة بيت الله منذ رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده إلى اليوم .

فزعم الفرس أن لأجدادهم سابقة إلى التوحيد ، ليُفضّلوا العرب
الذين كان أجدادهم عبدة أصنام ، وزعموا أن بعض سلفهم كانوا
يحججون إلى الكعبة ، ويهاونون إليها وهم يريدون بهذا أن يشاركوا العرب
في هذا الفخار . يقول المسعودي : وقد كان أسلاف الفرس يقصدون
البيت الحرام ويطوفون به تعظيماً له ولجدهم إبراهيم عليه السلام ،
وتمسكاً بهديه ، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك ، وهو جد
أردشير بن بابك ، وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه
كرجوع الروانية إلى مروان بن الحكم ونظفاه العباسيين إلى العباس
ابن عبد المطلب .

فكان ساسان إذا أتى البيت الحرام طاف به وزمزم على بشر إسماعيل ،
فقليل إنما سميت زمزم لزمزته عليها هو وغيره من فارس ، وهذا يدل
على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البشر ، وفي ذلك يقول
الشاعر في قديم الزمان :

زمزمت الفرس على زمزم وذلك في سالفها الأقدم
ويقول شاعر فارسي بعد ظهور الإسلام :

ومازلنا نحج البيت قديماً ونُلقي بالأباطح آميناً
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به وزمزم عند بشر لإسماعيل تُروى الشاربينا

وقد كان ساسان أهدي إلى الكعبة غزالين من ذهب وجواهر وسيوها
وذهباً كثيراً فقلفه في زمزم .

وأضاف الفرس إلى هذه المزاعم زعماً آخر يصلهم بالأنبياء ، فقد
(تيارات ثقافية)

ذكر المسعودى (١) أن الناس تنازعوا في أنساب الفرس ، ويفهم من هذا التنازع أنهم يرجعون إلى سام بن نوح أو إلى يوسف بن يعقوب أو إلى لوط[ؑ] أو إلى إسحاق[ؑ] بن إبراهيم[ؑ] ، وأرادوا أن يضيفوا على هذا الزعم ثقة الناس ، فنحطوا جريراً شعراً يردد هذا الفخار .

٥ - في المنصب الكبيرة

من الطبيعي أن تهب أعاصير الشعوبية على المناصب الكبار فتزعزعها أحياناً أو تعصف بها أحياناً .
وقد كانت الوزارة والقيادة أكثر تعرضاً لهذه الهزات ، وبخاصة في العصر العباسى الأول ، إذ رأينا بضعة من الوزراء يُقتلون ، وأغلب الظن أن تنافس الكبار من سادات العرب وأشراف الفرس ، وتعصب بعضهم على بعض ، كان من أسباب العزل والقتل ، فصار من المألوف أن يعيش الوزير متخوفاً على حياته ، وأن يرفض بعضهم منصب الوزارة حينما يعرض عليه ، حتى إنه لا عجب في أن ودَّ الشاعرُ لعدوِّ ممنوحه أن يكون وزيراً :

إن الوزير وزير آل محمد أودى ، فمن يشنأك كان وزيراً
وحسبنا هذه الأمثلة :

١ - كان أبو أيوب المورياتى وزير المنصور جالساً في الديوان يصرف شؤونه ، فأتاه رسول الخليفة ، فامتقع لونه ، وطارت عصفير رأسه ، وذعر ذعراً شديداً ، فسأله الجاحظ ومن حضر ، فقال لهم : لو علمت ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ما يترون من تمكن^٢ حالى (٢) .

(١) مروج الذهب ١/١٩٦ .

(٢) الحيوان ٢/١٣٢ .

٢ ... وعرضت الوزارة على أحمد بن أبي خالد بعد أن قتل المأمون وزيره الفضل بن سهل ، فرفض ، وقال : لم أر أحدا تولاهما وسلمت حاله .

٣ ... وكان نعيم بن أبي حازم العربي يتنافس مع الفضل بن سهل الفارسي في مجلس المأمون ، فأثنى الفضل على العلويين ، وأيد نقل الخلافة إليهم ، فقال له نعيم : إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ، ثم تحثال عليهم فتصير ملكا كسرويا (١) .

٤ ... وكان الأفشين القائد الفارسي للمتنصم وكان أبو دلف العجلي القائد العربي ، وكان الأول يكره العرب أشد الكره ، وكان أبو دلف يمشى دروبته ، ويعتمد على مكانته في عمّجل وغيرها من ربيبة ، ويستحق إشادة الشعراء بكرمه وشجاعته ، وهم الأفشين بقتله لولا أن أحمد بن دؤاد قاضي المأمون والمتنصم سارع إلى الأفشين وهدده .

٦ ... الثورات الانفصالية

كذلك تجلت الشعوبية في ثورات انفصالية تام بها الفرس ، ليقوضوا الحكم العربي ، ويسترجعوا ما كان لهم من استقلال ، وهذه أمثلة منها :

١ ... لما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني سنة ١٣٧ هـ (٧٥٥ م) هاج جنده واستلوا سيوفهم ، واعتزموا على الأخذ بشأره ، لكن المنصور استرضاهم بالمال ، وأقنعهم بخيانة أبي مسلم وفساد طوبته ، فانصرفوا راضين .

لكن الثورة لأبي مسلم لم تلبث أن قامت في العام التالي بالجزيرة وفارس إذ هب أهل فارس بقيادة سونباز المجوسى للأخذ بشأري مسلم واستطاع الثوار أن يستولوا على البلاد ما بين الرى ونيسابور ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء إلى أن أحمدم منصور الثورة ، وأخضع الثوار .

٢ - ولقد يكون من محاولة الثأري لأبي مسلم أن ثار في سنة ١٤١ هـ جماعة من خراسان هم الراوندية (١) ، وهم يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم حلت في زعيمهم عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل ، واجتمعوا حول قصر المنصور في الهاشمية (٢) ، فجعلوا يقولون : هلمنا قصر ربنا ، ويطوفون به ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم وقبض على اثنين منهم ، وسجنهم ، فغضب الآخرون وهجموا على السجن ، وأخرجوا أصحابهم ، فخرج المنصور لإخماد فتنتهم ، وكاد يقتل لولا أن أنقله القائد العربي العظيم معن بن زائدة الشيبالي ، وجاءت قوات الجيش فحملت على الثوار وقتلتهم جميعاً .

٣ - ثم ثارت المقتنعة في عهد المهدي سنة ١٥٨ هـ و ١٦٠ هـ - أتباع هاشم بن حكيم المعروف بالمقتنعة - لأنه كان يخفي قبح وجهه ودمامة خلقه بقناع من ذهب - وزعموا أن روح الله ظهرت في آدم ثم في نوح ثم في أبي مسلم ثم في المقتنعة ، وادعوا أن الدين اعتقاد لاعمل ، وكان عددهم كبيراً ، ولكن المهدي انتصر عليهم ، وهؤلاء هم الذين يسمون (المبيضة) لأنهم اتخذوا اللباس الأبيض شعاراً لهم .

(١) الراوندية بلد قرب قاشان .

(٢) الهاشمية مدينة أسما أعوه أبو العباس .

٤ - وما كاد المهدي يفرغ من القضاء على المقتنعة أو المبيضة حتى دوى ندير ثورة المحمرة في إقليم جرجان ، وهي طائفة اتخذت اللباس الأحمر شعاراً لها ، وكانت لها تعاليم هي خليط من المزدكية والمائوية ، نشرتها بين الناس في خراسان وغربي فارس والعراق .

نهض المهدي ليقضي على هذا المذهب الهدام الذي نشر الرذيلة ، وقصم الروابط الأسرية وأسقط من هيئة الحكومة ، وززع الثقة في النظام الديني والاجتماعي ، وأباح اختطاف الأولاد والنساء ، وتلوع المهدي بالقسوة في محاربة المحمرة حتى قتل قواهم ، وأراح الشعب من شرورهم .

٥ - في عهد المأمون ثار بابك الخرمي (٢٠١ - ٢٢٢ هـ) وهو من كورة في شمال فارس ، ودعا الناس إلى اعتناق مذهبه الإباحي من خمر ونكاح للمحرمات واجترأ على المناكر واللذات ، وكان - كما يقول ابن النديم - يزعم لأتباعه أنه إله ، ولاشك أن مذهبه امتداد أو إحياء للمزدكية .

عرف المأمون خبره ، فعزم على مطاردته ، والقضاء عليه وعلى مذهبه الهدام ، فندب لحربه يحيى بن معاذ ، فلم يستطع أن يغلبه ، فاختار قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد ، فعجز أيضاً ،

فرماه بقائد ثالث فهزمه بابك وأسره ، ثم قتل القائد الرابع مكتوبة الأصحاحية ابن حميد الطوسي ، ويدد عسكره ، فرثاه أبو تمام بقصيدة من عيون قصائده يقول فيها :

كلنا فليجل الخطب وليتقدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها علتر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر

ففي "مات" بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وقد كان قوت الموت سهلاً فردة إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
واستفحل أمر بابك ، وكثر أتباعه من أهل الجبال من همدان
وأصبهان وما سبذان وغيرها ، وشغل المأمون عنه بالدولة البيزنطية ،
ثم مات المأمون ، وكتب قبل موته يوصي أخاه المعتصم بالقضاء على
بابك « والخرمية فأخزهم ذا حزيمة وصرامة وجلد ، واكتنفه بالأموال
والسلاح والجنود من الفرسان والرجال ، فإن طالت منهم فتجرد لهم
بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدّم النية فيه ،
راجياً ثواب الله عليه (١) » .

لم يتوان المعتصم في القضاء على بابك الذي عظم شأنه في أذربيجان
حتى همدان ، فاختر قائداً تركياً هو المعروف بالأفشين ، وسيره إليه
سنة ٢٢٠ هـ ، وجعل الأفشين يحارب بابك سنتين حتى انتصر عليه
سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ هـ) وفر بابك إلى أرمينية ، فقبض عليه أحد
أمرائها وسلمه إلى المعتصم ، فاستراح العباد ، وفرح الخليفة ، حتى إنه
لما اقترب من سامرا كان الخليفة يرسل إليه كل يوم حلة شرف وهدايا
ثمينة ، ثم تلقاه هو وأشراف الدولة ، وأمر بقتل الثائر ، وصلب جسده ،
وقطع رأسه وأرسلها إلى مدن خراسان .

ويقال إن بابك هزم ستة قواد ، وذبح خمسة وخمسين ومثني
ألف ، وأسر ثلاث مئة وثلاثة آلاف رجل وست مئة وسبعة آلاف
امراه ظلوا في أسره حتى خلصهم الأفشين (٢) .

(١) الطبري ١٠/١٢٤ .

(٢) الطبري ١٠/١٣٦ - ٣٣٢ .

٦- ثم لم تلبث بعض الثورات أن نجحت ، ونشأت دويلات انفصلت عن الخلافة .

قامت الدولة الصفارية بإقليم سجستان ، وطمع يعقوب الصفاري أن يستولى على بغداد والعراق ، فخرج إليه الخليفة المعتمد بجيش كبير وانتصر الخليفة في مدينة واسط سنة ٢٦٢ هـ وعاد يعقوب بعد الهزيمة إلى فارس .

وكان قيام الدولة الصفارية الخطوة الأولى في استرداد الفرس استقلالهم .

ثم قامت الدولة السامانية فأسقطت الصفارية وأسقطت الزيارية بطبرستان وحكمت من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ .

وفي أثناء ذلك عظم شأن آل بويه أمراء الديلم منذ سنة ٣٢٠ هـ في خلافة الراضي ، وعظم بالشرق نفوذهم ، وصاروا خطراً على الخلافة العباسية ، ثم اتسع ملكهم حتى استولى معز الدولة البويهي على بغداد في خلافة المستكني سنة ٣٣٤ هـ ، ومكثوا يحكمون العراق وفارس من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ . (٩٤٦ - ١٠٥٥ م) . وكان فتحهم بغداد أشنع نذير بوأد الخلافة وتحقير الخلفاء ، إذ خلع معز الدولة الخليفة المكتفي وسمل عينيه وسجنه ، وولى الفضل ابن عمه الذي لقب بالمطيع لله ، ثم تجرأ الفرس والترك على الخلافة والخلفاء بالعزل والتقتيل والتمثيل ، واستأثروا بالسلطة ، ولم يبق للخليفة إلا أنه رمز ديني ضعيف ، أو ظل من صرح كانت تشرئب إليه الأعناق .

ردود العرب على الشعوبية

١ - لم يتخافل الشعراء العرب عن هذا التهجم ، فجعلوا يقابلونه
بتهجم مثله ، وحسبنا أن نمثل ببعض ما قالوا ، لأن موضوع هذا الفصل
مقصود على أثر الفرس في الشعوبية .

قال فارسي في فخره بالفرس وتنديده بالعرب :

بهاليلُ غسرٌ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا ، لا من عربينة أو عسكل (١)
هم راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا لا راضة الشاه والإبل
فرد عليه عربي بقوله :

لا تَقُلْ إنك من فارس في معدن الملك وديوانه
لو حَدَّثْتُ كسرى بلدا نفسه صفعته في جوف إيوانه

وقد تعصب الفرس للراوية أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وقدموه
على الأصمعي الراوية العربي ، وحاول إسحاق الموصلي الفارسي الأصل
أن يرفع من قدره ، ويحط من قدر الأصمعي عند الفضل بن الربيع
بقوله :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإن العلم عند أبي عبيده
وقدمه وآثره عليه ودع عنك القرئيد بن القرئيد (٢)

ولم يكتف بهذا ، بل أوغر صدر الرشيد على الأصمعي ، واتهمه
بنكران الصنيعة ، وضعة النفس ، وزكّي أبا عبيدة ، وما زال يلس

(١) بهاليل : جمع بهلول وهو السيد . غر : جمع أهر وهو المشهور . ذؤابة : أعل . عربينة
وعسكل : قبيلتان عربيتان .

(٢) يريد بالقرئيد الأصمعي .

للأصمعي عند الرشيد وعند الفضل حتى وضع مرتبته ، فبعثوا إلى أبي عبيدة يستقدمونه (١) .

لما حدث ذلك هجا الأصمعي البرامكة بقوله :

إِذَا ذُكِرَ الشُّرْكَ فِي مَجْلِسِ أَضَاعَتِ وَجْوهِ بِنِي بَرْمَكِ
وَإِنْ تُلِيَتْ عَنْدهُمْ آيَةٌ أَتَوْا بِالْأَحَادِيثِ عَنْ مَزْدَكِ

ثم جعل المتنبي على العجم ، وسخر منهم ، وضاق بهم وقال إنهم عبيد يحكون العرب ساداتهم ، ويعيشون في ثرف ، وقد كانوا في سابق أمرهم أجلافا ، فلا صلاح للعرب مادام هؤلاء العجم يحكونهم ، قال في قصيدة يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي :

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمَلُوكِ وَمَا تَفْلِحُ حُرْبٌ مَلُوكَهَا عَجَمٌ
لَا أَدَبٌ عَنْدهُمْ وَلَا حَسَبٌ وَلَا عَهْدٌ لَهُمْ وَلَا نَعْمٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتَهَا أُمٌّ تُرْعَى بِعَبْدِ كَأَنَّهَا غَمٌ
يَسْتَحْشِنُ الحَزْنَ (٢) حِينَ يَلْمَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظَفَرِهِ القَلَمِ (٣)

٢ - وانبرى لتفنيد مزاعم الفرس والرد عليهم علماء من العرب ، كابن قتيبة في كتابه (العرب) (٤) والجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) (٥) .

من هذا قول ابن قتيبة : وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى أغرى

(١) الأغانى ١٠٧/٥

(٢) الخز : التحرير .

(٣) ديوان المتنبي ٢٢٠/٢ .

(٤) رسالة لفرها مع (رسائل البلغاء) الأستاذ محمد كرد علي صفحة ٢٧١ .

(٥) الجزء الثالث خاصة .

الناس بمشائم الناس ، وأهجمهم بمثالب العرب وحاله في نسبة حال نكره
أن نذكرها ، وهي مشهورة (١)

ولما امتدت الشعوبية إلى الأندلس ألف ابن غرسية رسالة في التهجم
على العرب ، فرد عليه يحيى بن مسعدة وأبو جعفر أحمد البكنسي
وأبو الطيب القروي وغيرهم (٢) .

من رد الجاحظ على الشعوبية قوله : «وجملة القول أنا لانعرف
الخطب إلا للعرب والفرس ، فأما الهند فإنما لهم معان مدونة وكتب
مخلدة ، لانضاف إلى رجل معروف . . . وللليونانيين فلسفة وصناعة
منطق ، وكان صاحب المنطق - أرسطو - نفسه بكى اللسان ، غير
موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ، ومعانيه ، وهم
يزعمون أن جالينوس - الطبيب الفيلسوف - كان أنطق الناس ، ولم
يذكره بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفي الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للمعجم ،
فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد رأي ، وطول خطوة ، وعن
مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب .

وكل شيء للعرب فإنما هو بنسبة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست
هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجابة فكرة ولا استعانة ، وإنما
هو أن يصرف وهمة إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح
على بشر ويحلوا ببعير . . . فتأنيبه المعاني أرسالا وتثالث عليه الألفاظ
انثيالا ، ثم لا يقيد على نفسه ، ولا يتركه أحداً من وكده .

(١) رسائل البلقاء ، ٢٧١ .

(٢) الجزء الثالث من نواذر المخطوطات للأستاذ عبد السلام هارون .

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلمون ، وكان الكلام
الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقيس ... وهو عليهم
أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ ، ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم
كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قبله (٢) .

والذي نستخلصه من كلام الجاحظ أنه لا ينكر أن العرب في
جاهليتهم لم يكن لهم علم وفلسفة كما كان للهنود واليونان ، ولم ينكر
أن الفرس كان فيهم خطباء ، لكنه وصف خطباءهم بالتفكير الطويل
والإعداد المثاني ، واللزاسة للكتب ، وإذا فقد تميز العرب بفصاحة
اللسان ، ومواتاة البليبة ، وإسعاف الخاطر .

٣ - وإذا كان الفرس الشعوبيون قد اختلقوا أحاديث نبوية
تشيد بهم ، وترفع من أقدار علمائهم ، فإن العرب قابلوا سلاحهم هذا
بمثله ، فاخترعوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله تختصم بالتسكير
والتفوق ، منها قول النبي (ص) : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي
ولم تنله موثقي » ، وقوله : « إذا اختلفت الناس فالحق في مضرة » .
وقوله : « أحبوا العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان
أهل الجنة في الجنة عربي » .

٤ - وربما كان من مقابلة العرب للفرس بسلاح من جنس سلاحهم
مارووه عن ابن المقفع في تفضيل العرب على سائر الأمم ، إذ روى أن
جماعة اجتمعوا بالمرتبذ ومعهم ابن المقفع ، فسألهم ابن المقفع : أي الأمم
أعقل ؟ فنظر بعضهم إلى بعض ، وظنوا أنه يقصد الفرس ، فقالوا :
فارس . فقال ابن المقفع : ليسوا بذلك ، لأنهم ملوكوا كثيراً من الأرض

(١) البيان والبيتين ٣٧/٣ أرسالا : أنواجبا . لا يدرسة : لا يعلمه .

وغلّبوا على كثير من الخلق ، لكنهم لم يستنبطوا بعقولهم شيئاً . قالوا : الروم ، فقال : أصحاب صنعة : قالوا : الصين ، فقال : أصحاب طرفة . قالوا : الهند ، فقال : أصحاب فلسفة . . . قالوا له : فقل ، فقال : العرب . فضحكوا ، فقال : إني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذا فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة ، إن العرب حكمت على غير مثال مُثل لها ، ولا آثار أُثرت ، أصحاب إبل وغم ، وسكان شعر وأدم بجود أحدهم بقوته ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء ويفعله فيصير حجة ، ويُحسّن ما يشاء فيحسن ، ويقبح ما يشاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم ممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألستهم ، وبهم افتتح الله دينه وعلافته إلى الحشر ، فمن وضع حقهم فقد خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصم (١) .

٥ - على أن بعض المنصفين من أبناء الفرس لم يرتضوا نزعة الشعوبية ، فنهضوا ليقاوموها ، ويردوا على دعائها .

من هؤلاء الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ (١٠٧٤ - ١١٤٣ م) فقد كان مغرماً باللغة العربية يفضلها على سائر اللغات ، ومؤثراً للعرب يرفعهم إلى أسمى الدرجات ، لأنه ربط ربطاً وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يخشى من الشعوبية على البلاد التي أسلمت واستعربت ، لأن الذي ينشق على العرب اليوم سينشق على الإسلام في الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ المشترك والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة في حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضاً ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ،

(١) المقادير الفريد ٢/ ٥٠ .

وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأشم الذي يتربص به أعداء الإسلام
أيما تربص .

قال الزمخشري في مقدمة كتابه المفضل : والله أحمد على أن جعلني
من علماء العربية ، وحملني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي أن
أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لقيف الشعوبية وأنحاز ،
وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين (١)
والمشق (٢) بألسنة الطاعنين .

ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون
أن يخفضوا مآرفع الله من منارها — حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة
كتبه في عجم خلقه ولكن في عربيه — لا يبعثون عن الشعوبية معاندة
للحق الأبلج ، وزيفاً عن سواء المنهج ... والذي يقضى منه العجب حال
هؤلاء في قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتصافهم ، وذلك أنهم لا يجدون
علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمى تفسيرها وأخبارها
إلا وافتنقاره إلى العربية بين لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع (٣) .

وجهر بتفضيل العرب في قوله (٤) : العرب نبع صلب المعاجم ،
والقرب مثل للأعاجم (٥) . وفي قوله (٦) : فرقك بين الرطب والمعجم (٧)

(١) الرشق الإصابة بالمكروه .

(٢) المشق : سرعة الطعن .

(٣) شرح المفضل ١/٣-١٦ .

(٤) نوايع الكلم ٧ .

(٥) النبع : شجر صلب تتخذ منه مقى . العرب : شجر ضعيف رخو .

(٦) نوايع الكلم ٣٨ .

(٧) المعجم : نواة التمر .

هو الفرق بين العرب والعجم ، وطج بالعرب وبأخلاقهم ، وسخر من الشوبية في قوله (١) :

وقل هل فشا في الأرض غير لسانهم
به عج في أمصارها كل منبر
على ظهرها لم يخلق الله أمة
أجل رسول منهم وبئسهم
وقل للشعوبيين إن حديثكم
لكم مذهب فسل بغر مثله
لسان فُشوا الضوء واليوم شامس ؟
وطنت به في المخافقين المدارس
تناسبهم في خصلة أو تلابر
أجل كتاب فاعتبر يا منافس
أضاليل من شيطانكم ووساوس
أشايب حنق لا الرجال الأكابر

وله في هذا المجال جهاد مشكور (٢) .

عاقبة الصراع

١ - الحق أن ثورات الفرس المتعاقبة أظهرت ما كان المجوس يضمرون للإسلام من شر ، وأن كثيراً منهم كانوا يعتقدون الإسلام رياء وخدعة ، ويتربصون الفرص لإعادة ملكهم والعودة إلى دينهم ، وما ثورة بابك والمقنع الخراساني وغيرهما إلا دليل واضح على ذلك .

وقد انتهى الصراع الجسدي بتغلب الفرس والترك على العرب في شؤون السياسة والحكم ، أما العرب فقد ظلوا منتصرين بدينهم ولغتهم ، إذ عني الإسلام على المجوسية ، وبقيت العربية سائدة ، حتى إن الفرس كانوا يقبلون على تعلمها ، ويتنافسون في إجادتها ، ويرون أنه من نقص المروعة التكلم في بلد عربي بالفارسية (٣) ، وحسبنا أن العربية كانت

(١) ديوان الزمخشري ٦١ مخطوط .

(٢) الزمخشري . للمؤلف .

(٣) عبود الأخبار ١/٢٩٦ .

هي اللغة الرسمية واللغة الأدبية والعلمية ، في العصر العباسي الأول -
وأن أكثر الكتاب في ذلك العصر يرجعون إلى أصل فارسي ، وأن كثيراً
من العلماء اللين دونوا اللغة ووضعوا قواعدها ورووا أديها كانوا من
الفرس .

٢ - على أن هذه التيارات لم تكن كلها شراً محضاً ، فقد حملت
بعض الخير ، إذ رأت الشعوبية كل شيء للعرب بمجد ، من نسب عربي ،
ولغة عربية ، ورأي عربي ، وعادات عربية ، فأخذ الشعوبيون يعرضون
هذا للنقد والتحليل ، عرضوا أنساب العرب للنقد ، كالذي فعل
أبو عبيدة مع غلوه ، فكان يرد على قوم ينتسبون للعرب ، فيبين
أن النسبة كاذبة مختلفة ، وفي كتاب الأغاني عن أبي عبيدة من
هذا كثير .

وعرضوا اللغة العربية للنقد ، فسيبويه في كتابه يخطئ العرب
في بعض أقوالها ، ويدعي العرب أن البلاغة ليست إلا فيهم ، فيرد
الشعوبية بأن هناك أمماً أخرى لها بلاغة ، ولها نخطب ، ولها حكم ،
لا تقل عن العرب ، وينبهون على أن عادات العرب ليست المثل الأعلى
للعادات ، ففيها الحقير المرذول ، والعجيد المحمود .

كل هذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه وهي :
عرض ما للأمم الأخرى من كل ذلك لتكون المقارنة أتم ، فتعرض
الكلمات الفارسية بجانب الكلمات العربية ، والحكم الأجنبية بجانب
البلاغة والحكم العربية ، والنظام الفارسي ، والأدب الأجنبي بجانب
النظام والأدب العربيين ، وهذا - من غير شك - مفيد للعلم والعقل (١) .

الفصل السادس

أبشار الفرس في مفردات اللغة

تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع التعرف واللهو والطرب ، وتعددت الأزياء والقُرُش والأثاث والآنية ، وكان كثير من هذا غير معروف للعرب ، فسموها بأسمائها الفارسية أو اليونانية أو الهندية .

على أن العربية لم تعد ملكا للعرب وحدهم في هذا الوقت الذي شرقت فيه وغربت ، بل صارت لهم وللشعوب التي أسلمت وأقبلت على تعلم لغة الإسلام ، ولاشك أن هؤلاء المستعربين لا يتعصبون للغة العربية كما يتعصب لها أبناؤها ، ولاشك أنهم أسرع ذكراً للكلمات من لغاتهم تؤدي ما بنفوسهم من بعض المعاني ، أو تدل على أشياء ليس في العربية دلالات عليها ، أو فيها دلالات لم تجر على ألسنتهم .

لهذا اتسع المجال لدخول كلمات أعجمية في اللغة العربية أكثرها فارسي .

لكن العرب في نقلهم عن الفرس وغيرهم لم يسلكوا طريقة واحدة في التعريب ، فقد نطقوا بعض الكلمات على أصلها ، وصقلوا بعضها الآخر صقلا يلائم نطقهم ، كما أنهم أحياناً رجعوا إلى لغتهم فتوسعوا في دلالاتها .

تناظر عربي وفارسي في مجلس يحيى بن خالد البرمكي ، فقال الفارسي للعربي : « ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا في تسمية ، ولقد

ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم ، حتى إن طبيختكم
وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ، لم تغيروا منه شيئا ،
كالإسفيداج ، والسكياج ، والدوغياج والسكنجبين والخلنجين
والجلاب والرزانج والأسكدار ، ومثل هذا كثير (١) . فسكت
العربي ، فقال له يحيى : « قل له اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة
بعد ألف كانت قبلها ، لانحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم .

من الكلمات الفارسية العربية في العصر الأموي والعباسي :

الجوسق : القصر ، أصله كوشك أى صغير ، قال النعمان بن عبدى
— وكان عمر بن الخطاب قد ولاه ميسان ، كورة بين البصرة وواسط :-
لعل أمير المؤمنين يسوؤه تناؤمنا في الجوسق المنهدم
الصبهد : مثل الأمير في العرب ، قال جرير :

إذا افتخروا عدوا الصبهد منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا
الكرد : معناه بالفارسية العنق ، وأصله كردن ، وقد جاءت

الكلمة في شعر جرير :

وكنا إذا القيسي نب عتوده ضربناه دون الأثيين على الكرد (٢)
وجاءت في قصيدة للعمالي بمدح الرشيد :

من يلقه من بطل مشرد في زغبة محسكة بالسرد
تحول بين رأسه والكرد (٣)

(١) الاسفيداج : رماد الرصاص . السكنجبين والسكياج : طعام من لحم وزيت وبيض
طيب الرائحة . الخلنجين : الخلنج يفتح الخاء شجرة تصنع منها السهام . الجلاب : ماء الورد .
الرزانج والرزانة : دفر يوى للحساب ، وجريدة يومية . الأسكدار : صاحب البريد ،
وحقيقته ، وصندوق البريد . الدوغياج : اللبن الخائر .

(٢) نب : صلح . العتود من أولاد المزم ماضي وقوى . الأثيان : الأذنان .

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٢ سرند . غالب . زغبة : دوح لينة واسعة محسكة .

الخُسْرَوَالِي : الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، نسبة إلى عظامه
الأكاسرة ، قال الفرزدق :

لَيْسَ الْفِرْنَدُ الْخُسْرَوَالِيُّ فَوْقَهُ مشاعر من خَزَّ الْعِرَاقِ الْمَقُوفُ (١)

آب : ماء ، روسبيد : بيضاء الوجه .

قال يزيد بن مُفَرِّغِ الْحَمِيرِي :

آبَ اسْتُ نَيْبِدَ اسْتُ عَصَارَاتِ زَبِيبَ اسْتُ

سُمِّيَ رُوسَبِيدَ اسْتُ (٢)

مَسْتِي : سُكْرٌ وَإِدْمَانٌ

بَايَخَسْتُ : مَوْطُوعَةٌ بِالْأَقْدَامِ

قال أسود بن أبي كريمة :

لَزِمَ الْعُرَامُ نَوِي بُكْرَةً فِي يَوْمِ سَبْتِ

فَتَايَلَتْ عَلِيمَ مَيْلَ زَنْسِكِي بِمَسْتِي

قَدْ حَسَا الدَاذِي صِرْفًا أَوْ عَسَارًا بَايَخَسْتُ (٣)

الْفُسْتُقُ : ثَمْرَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، قال الراجز :

وَلَمْ تَدُقْ مِنَ الْبَقُولِ الْفَسْتُقَا

النَّيْرُوزُ : عيد الربيع عند الفرس ، قال الهمثري :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلَقُ يَخْتَالُ ضَا حَكَ من الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَشْكَدَ أ

(١) أي ليس الحرير الخسرواني مشاعر فوقه المزين من حرير العراق .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٣ است : فعل من أفعال الكينونة في الفارسية . روسبيد : مكوثة من رووهو الوجه وسبيد بمعنى أبيض ، والمراد أنها مشهورة ، يريد أن النبيذ ما هو إلا ماء لأنه عصارة الزبيب .

(٣) البيان والتبيين ١/١٤٣ الفرام : جمع حريم وهو الدائن المطالب : زنسكي بالفارسية زنجي . داذي : نبت له حب كالشمير يضاف إل الخمر فيزيد فعلها .

وقد نبه الفيروز في غسق الدجا أوائل وردكن بالأمس نوّما
المِهْرَجَان : عيد الخريف عند الفرس ، قال ابن الرومي :
يَمُنُّ اللهُ طَلْعَةَ المِهْرَجَانِ كُلُّ يَمُنُّ عَلَى الأَمِيرِ المِهْجَانِ
آذريون : معرب آذركون أى لون النار يطلق على ورد أحمر
الورق أو أصفره مع سواد وسطه فيهما ، قال ابن المعتز :
كسَانُ آذريونها والشمس فيه كساليه
مَدَاهِنٌ من ذهب فيها بقايا غاليه
يَرٌ : بمعنى الكأس المملأى ، قال إبراهيم الموصلى :
إذا ما كنت يوما في شُدَاهِ (١) فقل للعبد يسقى القوم يَرًا
فإن السقى مكرمة ومجد ومدفأة إذا ما خفت قرًا
آبٌ سَرْدٌ بمعنى الماء البارد ، قال العَمَّانِي :
لما هوى بين غياض الأُسْدِ وصبار في كف المزبر الورد
آلى يذوق الدهر آب سرد

باغ : بستان ، قال البيهقي :
لا تنكرن إذا أهديت نحوك من علومك العُسر أو آدابك التثفا
فقيم الباغ قد يهدى لصاحبه برسم خدمته من باغه التحفا
ذكر الجاحظ أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم
الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البيطيخ الخريز ،
ويسمون السميطة الرزدي ، ويسمون المصصوص المزوز ، ويسمون
الشطرنج الإشرنج ، وكذلك أهل الكوفة فإنهم يسمون المسحاة
بال ، ويسمون الحوك البادروج .

(١) شناه : تبليل واضطراب .

وأهل البصرة إذا التقت أربعة طرق يسمونها مَرَبَعَة ، ويسمونها أهل الكوفة الجِهار سوك ، ويسمون السوق والسُوَيْقَة وازار ، والقشاه خيارا(١) النخ والخربز والرزدق وغيرها كلمات فارسية .

على أننا إذا رجعنا إلى « المعرب » للجو اليتي وإلى « شفاء الغليل » للشهاب الخفاجي وجدنا مئات من الكلمات الفارسية ، مثل : فِرْجُون (المِحْصَة) وكمك وغموذج (أصله غمودة أي مثال) وديدبان (طليعة وربيثة) ودمسكوه (بناء يشبه القصر حوله بيوت تكون للملوك) ، ووزرْجُون (أصله زرْكون أي لون الذهب والمراد الخمر) وسرَق (أصله سره أي جيد والمراد الحرير) ولَوَزِينِج (نوع من الحلوى) ومارستان (أصله بهارستان أي مكان الشفاء) ومهندس وهنسة وإيوان وأستاذ (الماهر بصنعتة) وأيزار (هو التابل) وبرَق (أصله بره وهو الحَمَل) وأزاد (نوع من العمر) وبرنكان (كساء) وبنترقه (بمعنى خضارة وحراسة) واشتقوا منها « المبْدِرِق بمعنى الخفير » ، وبارجاه (بواب السلطان) قال الحجاج لعل ابن أصمع جد الأصمعي : « قد وليتك البارجاه » ، وبيرم النجار (العتلة) وبادق (أصله بأذه) أي باق ، « والمراد الخمر الحمراء » ، وبيدق (أصله بيئذه وهو رجل الحرب) ومنه جاءت الكلمة العامية بزيادة أي راجل ، والجردق والجردقة بالذال والذال (أصله كرده وهو الخبز الغليظ) والجورب (أصله كورب) والجوالق (أصله كواله) والصمج (القناديل ، الواحدة

(١) البيان والتبيين ١/١٩ السيمط . الأجر المرصوس ، والرزدق أصله بالفارسية ومنه ومعناه السطر والصف من النخل وغيره ، المرصوس : لحم ينقع في الخل ويطبخ . الباذروح ربحاله معروفة .

صَمَجَة (والطُّسْت والطَّاجِن (المغلى) والفالوذج والفالوذق والغالوز
(حلواء من لب الحنطة) والبوتقة والزونيخ والبابونج والإسفيداج
والأسطوانة والإقلم والقرمطق (أصله كرمه ، وهو شبيه بالقباء) ، دعا
أبو الفرات الحسن ، فلما وضع الطعام جاء الغلام وعليه قرطق أبيض
فقال الحسن : أخذت زى العجم .

الفصل السابع

آثار الفرس في العلوم والتأليف

الفرس أصحاب ملك قديم وحضارة عريقة ، ومعرفة بالعلوم ، فهم ورثوا الأشوريين والبابليين في الرياضيات والطبيعات ، ونقلوا إلى لغتهم كثيراً من علوم الهنود ، ونقلوا من اليونان علوماً شتى منذ بعث سابور بن أردشير إلى بلاد اليونان يستجلب كتباً ، ويأمر بنقلها إلى الفارسية ، وقد حفظها في خزائنه ، وشجع على نسخها ودراستها .

ثم فر إلى فارس طائفة من الفلاسفة الوثنيين حينما اضطهد جوستنيان الوثنية ، وأغلق هياكلها ومدارسها ، فاستقبلهم كسرى أنوشروان ورحب بهم ، وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية ، ويؤلفون كتباً في الفلسفة والعلوم ، ويدرسون في معهد الدراسات الطبية والفلسفية الذي أنشأه كسرى أنوشروان بمدرسة جنديسابور (٥٢١ - ٥٧٦ م) ، فشاعت العلوم اليونانية بفارس كما شاعت من قبل علوم الهند والصين .

فلما اتصل العرب بالفرس ترجم بعض الفرس إلى اللغة العربية كتباً شتى في العلوم والتاريخ والسير والموسيقى والأخلاق ونظام الحكم ، وكان بعض الكتب المترجمة يونانية الأصل ، وبعضها فارسي الأصل ، لكن الذي يعنينا هنا هو النوع الثاني .

ولقد بدأت ترجمة التاريخ من عهد مبكر ، لحاجة الخلفاء إلى

معرفة نظم الحكم الفارسي وأساليبه ، فقد كان في مكتبة هشام ابن عبد الملك بن مروان كتاب في تاريخ الفرس وسياستهم ، ترجم من الفارسية إلى العربية (١) .

وكان الوزراء البارزون في العصر العباسي فرساً ، ولكنهم برعوا في اللغة العربية والأدب العربي ، فجنّوا في نشر الثقافة الفارسية ومراجعتها بأدب العرب ، وربما كان من بواعثهم على ذلك أنهم أرادوا مباهاة العرب بما لهم من ثقافة وأدب .

وقد اشتهر البرامكة بتشجيعهم على نشر الثقافة الفارسية بالمال والتقريب ، إذ أوصاهم والدهم يحيى بن خالد بقوله :

« لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسفلة الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهي بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشرف والشكر فيهم أكثر (٢) » .

ولقد كان كتابهم من الفرس .

على أن الفضل بن سهل نقل - قبل أن يكون وزيراً - كتاباً من الفارسية إلى العربية بمشورة من يحيى البرمكي ، فأعجب به ، ودعاه إلى الإسلام لينال ما يستحق من مناصب .

أما أهم ما نقلوه عن الفرس من علوم فهو التاريخ والسير والفلك والموسيقى والغناء .

وأشهر النقلة نوبخت وابنه الفضل الذي نقل من الفارسية كتاباً في النجوم وغيرها ، وعلى بن زياد التميمي ويكنى أبا الحسن ، نقل

(١) تراث فارس ٩٢ ترجمة الدكتور محمد كفاقي وزملائه .

(٢) الوزراء والكتاب ٢١٥ .

من الفارسية كتاب زيح الشهريار ، والحسن بن سهل كان من المنجمين
والمترجمين ، وإسحاق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة بأخبار نامه ،
وعبد الله بن المقفع ترجم كتاب التاج في سيرة كسرى أنو شروان
وكتاب « خداينامه » وهو تاريخ الفرس من مبدأ ملكهم إلى نهايته ،
وسماه (تاريخ ملوك الفرس) وكتاب (آيين نامه) أى نظم الفرس
وعاداتهم ، وكتاب (مزدك) .

وما ترجم أبان بن عبد الحميد كتاب (سيرة أردشير) وكتاب
(سيرة أنو شروان) وكتابا عن مزدك وكتابا عن بوذا .

كذلك ترجم آخرون عهد أردشير ، وكتاب موبد موبدان ، وكتاب
أدب الحرب ، وتوقيعات كسرى .

وقد استقى المؤلفون تاريخ الفرس من الكتب التى ترجمها ابن المقفع
وغيره فالمسعودى يذكر أنه قرأ بمدينة « اضطخر » سنة ٨٣٠٣ كتابا
عظيما فى أخبار ملوك الفرس وسياستهم وأحوالهم لم يجدها فى كتبهم
التي قرأها من قبل مثل « خداينامه » « وآيين نامه » و« كهنامه » وغيرها .
وعند حمزة الأصبهاني ثمانية كتب فى تاريخ الفرس استمد منها
ما كتبه فى تاريخهم ، منها « سير ملوك الفرس » ترجمة ابن المقفع .

ونجد فى كتاب « التاج » المنسوب إلى الجاحظ اقتباساً كثيراً جداً
من نظم الفرس وعاداتهم وسلوكهم ، يخالطه اقتباس من المأثور عن
العرب فى الجاهلية والإسلام .

وليس من شك أن الفرس الذين ترجموا من الفارسية إلى العربية ،
والذين ألفوا فى العربية مؤلفات شتى فى أنواع المعرفة ، كان لهم نصيب
عظيم فى توجيه الحركة العلمية والسير بها إلى الإمام .

وحينما نقول إن لهم نصيبا عظيما فإنما نعترف بأثارهم ونشيد
بفضلهم ، ولا نتناسى الطبرى والزمخشري والرازي والبخارى والبيروني
والفارابي ، وابن سينا وغيرهم ممن سنذكر أسمائهم .

لكننا لانسب الفضل كله إلى الفرس فنغبط العرب حصهم من
الفضل كما فعل ابن خلدون ومن ساروا على أثره .
ولكني سأرجئ مناقشة هذه القضية إلى ما بعد .

الفصل الثامن . آثار الفرس في النثر الفنى

إقبال الفرس على اللغة والأدب :

منذ أواخر القرن الهجرى الأول تساندت عدة عوامل على فسح المجال لأبناء الفرس والمتأثرين بأدبهم ليظهر تأثيرهم فى الأدب العربى شعره ونثره ، فلما استقام الملك لبنى العباس ، وتبوأ الفرس فيه مكاناً عليا ، ازداد مجال تأثيرهم اتساعاً ، وازدادت مظاهرهم فى الأدب وضوحاً .

ذلك أن كثيراً من كتاب الدولة كانوا فرساً ، فقد كتب عبد الحميد ابن يحيى لبنى أمية ، وكان منصب الكاتب يقتضيه أن يكون واسع الثقافة ، متجدد المعرفة ، لأنه يعرض على الخليفة أو الوالى ما يرسل إليه ، ويكتب عنه ما يرسل منه ، فلم يكن بد للكاتب من إجادتهم العربية ومعرفةهم بالأدب الفارسى ، لهذا ألموا بحكم العرب وحكم الفرس ، ووقفوا على تاريخ العرب وتاريخ الفرس ، وجمعوا بين حكم الخلفاء الراشدين وأحكم بن صيني ، وحكم بزرجمهر وكبرى أنوشروان .

يدل على تنوع ثقافتهم قول الجاحظ فى بيان عيوبهم « إن الواحد منهم يتوهم إذا عرض جُبته وطول ذيله وعَقَص على نعه صدغه ، أنه المتبوع لا التابع ، ثم الناشئ منهم إذا حفظ من العلم مَلَحَه ، ورَوَى لبزرجمهر أمثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع

أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه . . . أنه الفاروق الأكبر في التلبير . . فيسكون أول طعنه على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر طرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، . . . ثم يشيد بسياسة أردشير بابكان وتدبير أنوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حذر العيون وتفقدته المسلمون رجع بذكر السنن إلى المعقول ، ومحكم القرآن إلى المنسوخ ، ونفى مالا يدرك بالعيان ، وشبهه بالشاهد الغائب (١) .

ثم إنه كثر في العصر العباسي أبناء الفرس العلماء بالعربية والفارسية ، وكان في العصر نفسه عرب يعرفون الفارسية ، وهؤلاء وأولئك كان لهم شعر ونثر فيه أفكار فارسية في قوالب عربية .

من الطائفة الأولى ابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وموسى بن سيار الأمواري ، يذكر الجاحظ (٢) أنه كان قصاصاً من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، يجلس في مجلسه المشهور به فتتعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يفسرها للفرس بالفارسية ، فلا يدرى بأي لسان هو أبين .

وهناك كثير من أبناء الفرس كانوا قد برعوا في اللغة العربية وأجادوا الأدب العربي ، فأبو مسلم الخراساني كان يحفظ كثيراً من الشعر ، وأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالشعر والأخبار والجدل ، وكان الهرامكة ذوى بلاغة عربية مشهورة ، يقول سهل بن هارون في

(١) دم أخلاق الكتاب ٤٢ من ثلاث رسائل لجاحظ نشرها يوشع فنكل .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٨ .

وصف يحيى بن خالد البرمكى وابنه جعفر : لو كان كلام يتصور
دراً ، أو يحيله المنطق السرى جوهراً لكان كلامهما ، والمنطقى من
لفظهما .

وقد عهد الرشيد إلى وزيره يحيى بن خالد البرمكى أن يشاركه في
التوقيعات ، فتحول التوقيع إلى منصب ، ومن توقيعات جعفر بن يحيى
البرمكى لعامل كثر التظلم منه : « قد كثر شاكوك . وقل شاكوك ،
فإما اعتدلت وإما اعتزلت » . ومن توقيعاته على طلب مستمنح وصله
مرات من قبل : « دع الضرع يدرك لغيرك كما در لك » .

وقد ذاع عن البرامكة تشجيعهم للبلغاه ، وحياتهم للشعراء ،
ونحبيهم إلى بنى جنسهم أن يتفوقوا في اللغة العربية ، ليسلحهم في
الوظائف الكبار كما يتبين من أخبارهم في كتاب (الوزراء والكتاب)
وغيره .

ومن الطائفة الثانية الشاعر العباسى كلثوم بن عمرو المشهور
بالعتابى ، فهو عربى من تغلب ، نهل من ثقافة الفرس ، واستهوته معانيهم ،
فنقل بعض كتبهم إلى العربية ، ولما سئل عن حرصه على النقل قال :
إن المعاني في كتب العجم ، واللغة والبلاغة للعرب .

أولاً — مظاهر في الفن الفنى

(١) القصص

ترجم كثير من الفرس الذين خلقوا اللغة العربية كتباً شتى من
الفارسية إلى العربية ، يهنا منها الآن كلية ودمنة الذى ترجمه
ابن المقفع ، وقصة رسم واستفديار التى ترجمها جبلة بن سالم (١) ،

وهزار أفسانه - ألف خرافة - وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة .
وكتاب خرافة ونزهة ، وكتاب اللب واللعب ، وكتاب فرود
وغيرها .

أما كلية ودمنة فإنه قد نقل في أيام كسرى أنوشروان من الهندية
إلى الفهلوية ، وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عشر الأستاذ هرتل
Hertel على بعض الأصول الهندية الأولى ، كما عشر غيره على بعض
أبواب من الكتاب مفرقة ، ويرجعون أن باب « بعثة برزويه » وباب
« ملك الجرذان » من زيادات الفرس ، وأن في الكتاب فصولا زائدا
ابن المقفع (١) .

ولا شك أن كلية ودمنة أول كتاب يقص على ألسنة الحيوان
قصصا مفصلة متداخلة ، ويورد على ألسنتها حكما وأمثالا وعظات .

ثم ألقت كتب شتى على غرارها مثل (الصادح والباغم) لابن
المبارية ، و « سلوان المطاع » لابن ظفر ، « فاكهة الخلفاء ومناظرة
الظرفاء » لابن عربشاه ، وهي مطبوعة كلها .

وقد نظم أبان الملاحق ، وابن المبارية كتاب كلية ودمنة شعرا ،
وإذا كان الأول لم تبق منه إلا مقطوعات فإن الثاني بقي وطبع ، فمن
نظم أبيان للكتاب قوله :

هذا كتاب كذب ومحنة	وهو الذي يدعى كلية دمنة
فيه دلالات وفيه رشد	وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم	حكاية عن ألسن البهائم

ذالك الحكاء يعرفون فضله والسخطاء يشتهون هزله
وهو عن ذلك يسير الحفظ لئذ على اللسان عند اللفظ (١)
وأما ألف ليلة وآيات فقد ذكر المسعودى أنه فارسي كله ، وتبعه
ابن النديم (٢) .

ثم تعددت الآراء في أصل الكتاب ، فمن قائل : إن أصله فارسي ،
وقائل إن أصله هندي ، وذهب إلى أنه حكايات فارسية وهندية ،
وهناك من رأى أنه كتب كله في العصر العباسي على أثر انتشار أخبار
الفرس ، وأقاصيصهم على السنة العامة ، ثم زيدت عليه قصص أخرى
في أماكن وأزمنة مختلفة .

وبالغ بعض الباحثين فتنى عن الكتاب أى أثر فارسي أو هندي
ثم أيد المسعودى في روايته عالم ألماني مستشرق ، وذهب العالم
الإنجليزي (لين) إلى أن الكتاب كله بقلم كاتب واحد عاش بين
سنة ١٤٧٥ و ١٥٢٥ م .

وقسم العالم الألماني (مولر) الكتاب قسمين :

قسم كتب في مصر وقسم كتب في بغداد .

وقسمه بعضهم ثلاثة أقسام :

قسم نقل من الأصل الفارسي (هزار أفسانه) ، وقسم كتب في
بغداد ، وقسم ثالث كتب في مصر .

(١) في كتاب الأوراق المصون مخطوط طائفة من نظم أبان لكتاب .

(٢) مروح الذهب والفضة .

وعقب المستشرق البلجيكي (شوفان) بأن القصص التي كتبت في مصر تولى كتابة بعضها يهود .^{٢١}
وأغلب الظن أن أرجح هذه الأقوال هو أن الأصل الأصيل للكتاب القصص الفارسية ، وهي التي ترد فيها أسماء وأحداث فارسية ، مثل شهرزاد وشاه زمان ، وبه قصص هندية مثل قصة التاجر العارف بلغة الحيوان .

وهذا القسم الفارسي المخالط بدخيل من الهندي يصور ميل الأمتين إلى تضخيم الخيال ، والتصديق بمعجائب المخلوقات وغرائب الأحداث ، كالأسماك الكبيرة الحجم المختلفة الشكل ، وطير الرُخ العظيم الحجم . ثم ترجمت هذه القصص إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، ثم زيد عليها بعد ذلك قصص في بغداد وفي القاهرة .

وقد تأثر العرب بألف ليلة وليلة ، فألفوا قصصاً على غرارها ، وأضافوها إليه ، بعضها كتبوه في بغداد ، وبعضها كتبوه في القاهرة . ثم ألفوا قصصاً أخرى ، كما فعل الجهشيارى إذ ألف كتاباً فيه ألف سمر من أسرار العرب والعجم - الفرس - والروم ، واجتمع له أربع مئة ليلة وثمانون ، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة ، ولكن المنية عاجلته قبل إكماله ، وقد رأى ابن النديم منها عدة أجزاء (١) .

وكذلك ألفوا قصصاً عن أخبار العرب وحروبهم في الجاهلية مثل قصة البراق ، وقصة عنصرة ، وسيف بن ذى يزن ، ثم ألفوا قصصاً إسلامية مثل قصة مجنون ليلى والظاهر بيبرس .

(٢) الحكم والأخلاق

ترجم كثير من الفرس الذين حلّقوا اللغة العربية وبعض العرب اللّدين حلّقوا الفارسية كتباً شتى من الفارسية إلى العربية ، في الحكم والأخلاق والسلوك ، فترجم ابن المقفع كتاب (الأدب الكبير) وكتاب (الأدب الصغير) وكتاب خدائنامة في سير ملوك الفرس ، وترجم أبان اللاحق الرقاشى سيرة أردشير وسيرة أنوشروان ، وترجم آخرون كتاب أردشير في التدبير ، وثوقيعات كسرى ، وكتاب أدب الحرب . وكانت هذه الكتب المترجمة مَعِيناً يستقى منه المثقفون من العرب والفرس ، حتى إن الشعبوية كانوا يقولون : من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروئند - صناعة المديح - ومن احتاج إلى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمشكلات ، والألفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فليُنظر في سير الملوك (١) . وهم يريدون تاريخ ملوك الفرس

ومن هنا ترددت حكم الفرس وآراؤهم السلوكية منسوبة إلى أردشير ويزدجرد وبهرام وسابور وأنوشروان وبزرجمهر وغيرهم ، ترددت في البيان والتبيين وحيون الأخبار والعقد الفريد وماشاكلها من كتب الأدب العربي ، وأكثرها يلائم الطبع العربي اللّدى يميل إلى الإيجاز والتركيّز ، وإن خالفته حيناً في دلالتها على كد الفكر وطول التروى والتدبير والإعداد والافتراض العقلي اللّذى لا يصدق الواقع ، لأن هذا نمط مغاير لكلام العرب المنبعث عن بدنه وارتجال .

(١) السان والتبيين ١٤/٢ .

من الأفكار الجديدة التي تدل على التعمق في التفكير والتأثر
بالعلوم العقلية قول ابن المقفع في الأدب الكبير :

١- إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يفضبك ذلك ، فإنما هو أحد
رجلين ، إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من
عدوك ، لشر يكفه عنك ، وعورة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها
لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك .

وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس
وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ؟ .

٢- ومنها قوله :

اخزن عقلك وكلامك إلا عند إصابة الموضع ، فإنه ليس في كل
حين يحسن كل الصواب ، وإنما تمام إصابة الرأي والقول بإصابة
الموضع ، فإن أخطأك ذلك أدخلت المحنة على علمك حتى تنأى به -
إن أتيت به - في غير موضعه ، وهو لا بهاء له ولا طلاوة له ليعرف
العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

٣- وكذلك قوله :

اعلم أن المُلْك ثلاثة : مُلْك دين ، ومُلْك حزم ، ومُلْك هوى ،
فأما ملك الدين فإنه إذا أقام للرعية دينهم ، وكان إدينهم هو الذي
يعطيهم الذي لهم ، ويلحق بهم الذي عليهم ، أرضاهم ذلك وأنزل
الساخط منهم منزلة الراضى في الإقرار والتسليم .

وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ، ولا يسلم من الطعن والتسخط ،

ولن يضر طعن الضعيف مع حزم القوى .

وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

(تيارات تعاقبية)

(أ) ومن حق الملك ألا يُحدّث على طعامه بحديث جد ولا هزل ، وإن ابتداءً بحديث فليس من حقه أن يعارض بمثله ، وليس فيه أكثر من الاستماع لحديثه والأبصار خاشعة ، ولشيء ما كانت ملوك ساسان إذا قدمت مواعدهم زمزموا عليها ، فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع ، فإن اضطروا إلى الكلام كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي قصدوا .

(ب) فأما كل ما أمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته فمن أخلاقه ألا يشارك أحداً فيه ، كذا حكى عن أنوشروان ومعاوية بن أبي سفيان ، وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد ما يقرب من هذا . ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك لم يكن شيء أحب إليهم من أن يفعلوا شيئاً تعجز عنه الرعية ، أو يتزبوا بزى ينفون الرعية عن ثلثه ؟ .

فمن ذلك أردشير بن بابك — وكان أتبل ملوك بني ساسان — كان إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد في المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبهاً به ، وكان إذا ركب في لبسة لم يُرَ على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم فحرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص وإن بُعد في التشابه .

وهذا أبو أحيحة سعيد بن العاص كان إذا اعتم بمكة لم يعتم أحد بعمه مادامت على رأسه .

وهذا الحجاج بن يوسف كان إذا وضع على رأسه طويلة — قلنسوة عالية — لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثلها .

وهذا عبد الملك بن مروان كان إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد من الخلق خفاً أصفر حتى ينزعه .

(ج) ومن حق الملك إذا عطس ألا يَشْتَمَ ، وإذا دعا لم يؤمن على دعائه . وكانت ملوك الأعاجم تقول : حقيق على الملك الصالح أن يدعو للرعية الصالحة ، وليس بتحقيق للرعية الصالحة أن تدعو للملك الصالح ، لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح .

(د) ومن حق الملك أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، فإن الملك يحتمل كل منقوص ومأثوف (١) ، ولا يحتمل ثلاثة : صفة أحدهم أن يطعن في ملكه ، وصفة الآخر أن يلدع أسراره ، وصفة الآخر أن يخونه في سره .

فأما ماوراء ذلك فمن أخلاق الملوك أن تلبس خاصتها ومن قرب منها على ما فيهم ، وأن تستمع منهم إذا سلموا من هذه الصفات الثلاث . وكان كسرى أبرويز يقول : يجب على الملك السعيد أن يجعل همه كله في امتحان أهل هذه الصفات ، إذ كانت أركان الملك ودعائمه .

ثم ذكر في تفصيل طريقة كسرى أبرويز في امتحان رجاله في حفظ السر ، وفي حفظ المحرم ، وفي الطعن في المملكة .

(هـ) وكتب ابن المقفع لأبي جعفر المنصور كتاباً ألم فيه بما ينبغي على الخليفة أن يراعيه في سياسة الشعب (٢) .

من هذا وصاته بجند خراسان لأنهم جند لم يترك مثلهم في الإسلام ، وفيهم منعة ، وهم أهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج وكف عن النساء ، وذل للولاة ، ورأى ألا يؤلوا أحدهم

(١) المألوف : الرجل المسكروب .

(٢) رسائل البلاء ٤٩ .

منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وقال إن
فيهم مجهولين أفضل من بعض قادتهم ، فلو قُربوا وأحسن إليهم
كانوا عدة وقوة .

ومنه إشارته على الخليفة أن يوقت للجند وقتاً يعرفونه في كل
ثلاثة أشهر أو أربعة أو مابداله ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، وأن
تزداد أرزاقهم ، لأنهم يحتاجون إلى كثرة المال لغلاء السعر ، ورأى
ألا يخفى على الخليفة أمر من أخبار الجند وأسرارهم ، وأن يستعين
الخليفة على تحقيق ذلك بالنفقة ولا يضمن بالمال ، ويستعين بالثقة
النصحاء من رجاله .

وأوصى الخليفة بأهل الكوفة والبصرة ، لأنهم أقرب الناس إلى
متابعته ومعاونته ، وقال إن في أهل العراق من الفقه والعفاف والعقل
والفصاحة ما يندر أن يكون في غيرهم ، وما انتقص من أقدارهم
إلا الولاة الأشرار الذين تولوا عليهم . وعلل تعليلاً لطيفاً لإبعاد كثير
منهم عن شؤون الحكم في العصر العباسي بقوله :

« ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال
إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع
أهل العراق حيناً وقعوا من صحابة خليفة ، أو ولاية عمل ، أو موضع
أمانة ، أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يقصدوا حتى
يُلتمسوا ، فأبطل ذلك بهم أن يُعرفوا أو ينتفع بهم ، فنزلت الرجال عن
منازلها ، لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن
ما يقدرون عليه من الصمت والسكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد

نصنعاً ، وأحلى السنة ، وأرفق تلطفاً للوزراء ، أو تمحلاً لأن يثني عليهم من وراء وراءه .

وهو في قوله : « إن أهل النقص أشد تصنعاً ، وأحلى السنة ، وأرفق تلطفاً في معاملة الحكام ، وأبرع تحايلاً على أن يثني عليهم في غيابهم ، » هو في قوله هذا يصورُ نفسية طائفة من الانتهازيين اللين يحسون بنقص كفايتهم ، فيتسلقون رقاب الأكفاه بوسائل لا يعرفها الأكفاه .

ثم أوصاه بأهل الشام ، وأن يختار منهم من يرجو عنده صلاحاً أو وفاء ، لأن تقريبه لهم ينسيهم تشبيحهم لبني أمية ، ورأى ألا يعاملهم كما عاملوا هم أهل العراق من قبل إذ حرّموهم ، ونحوهم عن المنابر والمجالس والأعمال ، واعتذر لهم عما فرط من تأببهم على دعوة بني العباس بأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها . وأوصاه بأصحابه اللين هم بهاء فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، وأعوانه على رأيه ، وموضع كرامته ، والمخاصة من شعبه ، وحلّره السفلة والانتهازيين « ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره ، وقد غرّ عامة دهرة صانعا يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعيف مما يجرى على كثير من بني هاشم وغيرهم من سراوات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه ههنا الموضع رعاية رحم ، ولا فقه دين ، ولا بلاء في مجاهدة علو ، ولا عناية

حليث ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، وليس بفارس ولا خطيب ، ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء .

لم يقتصر التأثير على الترجمة ، والوقوف عند حد المعرفة ، بل نعدى ذلك إلى التلوق والمحاكاة والاقتباس .

(٢) الكلف بالمحسنات

اصطبغت الكتابة بمذهب الكلف بالحلى اللفظية والمعنوية حتى صارت الكتابة في القرن الثالث والرابع تكاد لا تخرج عن هذا المذهب ، ولم يكن كتاب العرب يكلفون بالصناعة هذا الكلف ، أو يقيمون فنهم عليها ، وقد اشتهر بهذا المذهب كتاب أكثرهم من الفرس ، وحاكاهم كتاب من العرب .

وزعيم هذا المذهب ابن العميد الفارسي ، وقد نشأ في بيئة فارسية ، وكان يجيد اللغة الفارسية ، ويجيد العربية ، وحاكاه صاحب ابن عماد ، وأبو بكر الخوارزمي ، ويديع الزمان الهمداني وشيهرهم ، ثم جاء الحريري فأمعن في الصناعة إمعاناً .

كذلك اتسمت الرسائل بالمقدمات والخواتيم وتنويعهما بحسب المقام ، والإكثار من ألقاب التعظيم والتفخيم .

وأول من استحدث ذلك عبد الحميد بن يحيى في آخر النوبة الأموية ، ثم حاكاه كتاب العصر العباسي ، وأغرق بعضهم في الكلف بالمقدمات وألقاب التعظيم لإغراقاً .

ولقد تبدو الصناعة اللفظية أقرب إلى القبول ، لخفتها أو لقلتها

أو لمهارة الكاتب التي لاتجعل الصناعة صارخة بالتكلف الثقيل ،
كقول بديع الزمان الهمداني في المقامة الأسدية :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغني من مقامات الإسكندري
ومقالاته ما يُصغى إليه النفور ، وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من
شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ،
وأنا أسأل الله بقاءه ، حتى أرزق لقاءه ، وأتعجب من قعود همته
بحالته ، مع حُسن آتله . . ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبال ،
وقطعت الجبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى
سلاحه ، فإذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه ، منتفخا في إهابه ،
كاشرا عن أنيابه ، بطرف قد ملء صلفا ، وأنف قد حشي أنفا ، وصدر
لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا نخطبُ مُلم ، وحادثُ مُهم ،
للاوتبادر إليه من سرعان الرفقة قتي :

أخضر الجلدة في بيت العرب يسلاً الدلو إلى عقد السكرب

فها هنا سجع لم يتخلف إلا قليلا ، وجناس ، وطباق .

وقد تبدو الصناعة ثقيلة متكلفة ، كقول الحريري في المقامة

السنجارية (١) :

« حدثنا الحارث بن همام قال : فقلت ذات مرة من الشام ، أنحو
مدينة السلام ، في ركب من بني ثُمَيْر ، ورفقة أولى خبير ومير ، ومعنا
أبو زيد السروجي (٢) ، عقلة العجلان (٣) ، وسلوة الثكلان ، وأعجوبة [

(١) سنجار : بلد بمراق العجم .

(٢) لينة إلى سروج بلد قرب حران .

(٣) محبس المتعجل .

الزمان ، والمشار إليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجار ، أن
أو لم بها أحد التجار ، فدعا إلى مأدبته الجفلى (١) . من أهل الحضارة
والفلا ، حتى سرت دعوته إلى القافلة ، وجمع فيها بين الفريضة
والنافلة .

فلما أجبنا مناديه ، وحلنا ناديه ، أحضر من أطعمة اليد واليدين (٢)
ما حللا بالضم وحلي بالعين ، ثم قدم جاما (٣) كأنما جمد من الهواء ،
أو جمع من الهباء ، أو صبغ من نور الفضاء ، أو قشر من اللدة البيضاء ،
وقد أودع لفائف النعيم (٤) وضخ بالطيب العميم ، وسبق إليه شرب
من تسنيم (٥) ، وسفر عن مرأى وسيم .

(٦)

ولا شك أن التصنع هنا أثقل من سابقه ، والتكلف أوضح ،
والتلاعب بالألفاظ أبرز .

على أن الحريري كان صاحب إبداع ومهارة ، لم يدع فنا من فنون
البيديع إلا استخلمه في مقدره حيناً وفي تكلف حيناً ، حتى إنه فاق الحد
في حيله .

فهو إلى الصناعة المتعددة والتلاعب الكثير مبتكر لحيل ليست من
علم البيديع ، وذلك أنه أنشأ خمس مقامات للأغاز هي الفرضية في

(١) الجفل : الدعوة العامة .

(٢) ما يقطع بيد وما لا يقطع إلا يدين .

(٣) الجام : الوعاء من زجاج .

(٤) لفائف : بجمع لفيفة وهي مالف من الخلوى .

(٥) تسنيم : عين بالهنة .

(٦) شرح مقامات الحريري الشريفي ١/١٠٤ .

مسألة توريث ، والنحوية في مئة لغز نحوي ، والطَّيْبِيَّة (١) في مئة لغز
فقهى ، والمَلَّطِيَّة (٢) في عشرين مقايضة كلامية (٣) ، والشتوية في
خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية في كل بيت لغز سوى بيت
المطامع وثلاثة أبيات ضمنها إعجاباً بنفسه .

وإنه لأعجب من هذا ما جاء في مقامات ست هي المغربية للعبارات
التي تقرأ رداً وطرذاً ، والقهقرية للرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن
آخرها بوجه ، والخيفاء للرسالة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى
مهملة ، والرَّقْطَاء للرسالة التي أحد حروف كلماتها معجم والآخر مهمل ،
والسمرقندية للخطبة العاربية من النقط ، والحلبية لعشر مقطعات من
الأبيات ، وأولها حروفها معجمة ، والثانية حروفها مهملة ، والثالثة
كلمة مهملة وكلمة معجمة ، والرابعة كل كلمتين بها مجنستان جناسا
تخطيا ، والخامسة يطرقي كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين ، والسادسة
لما أشكل من ذوات السين ، والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد ، والثامنة
لما يجرى عليه هذان الحرفان ، والتاسعة طبعاً الأفعال الناقصة ،
والعاشرة لما ورد من الكلمات به ظاء .

ولقد يقتضينا المقام أن نورد هنا ألواناً من حيل الحريري في
مقاماته ، ومنها الكلمات التي تقرأ طرداً وعكساً ، كقوله : لك بكل
مؤمل إذا لمّ ومثلك بدل

(١) نسبة إلى طيبة وهي المدينة المنورة .

(٢) نسبة إلى ملطية بلد بالجزيرة .

(٣) المقايضة هي الأساجي وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدي معنى كلام .

وقوله :

أَسْرُ إِذَا هَبَّ مِرًّا وَارَعَ إِذَا الْمِرُّ أَسَا
أَسْنَدُ أَخَا نِسَامَةَ أَيْنَ إِخْلَاهُ دَنَسَا
أَسْلُ جَنَابَ غَاشِمِ مَشَاغِبَ إِنْ جَلَسَا
أَسْرُ إِذَا هَبَّ مِرًّا وَارَمَ بِهِ إِذَا رَسَا

ومما يفرأ من أوله بوجه وآخره بوجه قوله (١) : « الإنسان صنيعة الإحسان » (عكسه الإحسان صنيعة الإنسان) « وشيمة الحر ذخيرة الحمد » (عكسه الحمد ذخيرة الحر) « وسوء الطمع يباين سوء الورع » (عكسه الورع يباين سوء الطمع) « وجزاء المذائح بثُّ المَنَائِحِ » (عكسه بثُّ المَنَائِحِ جزاء المذائح) .

ومن الرسالة التي حروفها أحدها معجم والآخر مهمل قوله (٢) :

أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحَبُّ ، وَبِعَقْوَتِهِ يُلَبُّ ، وَقَرَبِهِ تُحَفُّ ، وَنَأْيِهِ
تَلْفُ ، وَخُلُقُهُ نَسَبُ ، وَقَطِيعَتُهُ نَصَبُ ، وَغَرْبُهُ ذَلْقُ ، وَشَهْبُهُ تَأْتَلِقُ :
سَيِّدُ قَلْبٍ سَبِوقُ مُبْرٍ قَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزُوفٌ عَيُوفُ
مُخَلِّفٌ مُتَلَفٌ أَغْرُ فَرِيدُ نَابِهَ فَاضِلٌ ذَكِيٌّ أَنْوَفُ
مَعْلَقٌ إِذَا أَبَانَ طَبُّ إِذَا نَا بَهِجَا جَلُّ نَحْطَبٌ مَخُوفُ
مَنَاطٌ شَرْفُهُ تَأْتَلِفُ ، وَشَوْبُوبٌ حِبَائِهِ يَكِفُ ، وَنَائِلٌ يَدِيهِ فَاظُ .
وَشَحُّ قَلْبِهِ غَاظُ

ثم خلفت الحريري طبقات من الكتاب عجزوا عن اللحاق به ، فاستكروها المحسنات ، وأزهقوا أرواح المعاني ، ومسحوا الخيال .

(١) شرح مقامات الحريري ١/٢٩٤ .

(٢) الشرح ٣/٩٤ .

٤- الإغراق في عبارات التعظيم للملوك والأمراء والكبراء ، والتهويل في وصفهم بعلاء القدر وسعة الجاه ، إذ كان الفرس يجرون على هذا النسق ، ويغرمون بالتبجيل والتمجيد ، ويأمنون إلى خضوع الشعب للحكام وتلقاهم . ويتصل بهذا الإطناب في جمل الدعاء .

وقد حاكمهم أبناء العربية في هذين الاتجاهين .

كتب إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي مستعظماً :
« للأصيد الجواد ، الواري الزناد ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ،
الأشم الباذل ، اللباب الحلال ، من المستكين المستجير ، البائس الضير .
فإني أحمد إليك الله ذا العزة القدير ، ولي الصغير والكبير ، بالرحمة
العامة ، والبركة التامة .

أما بعد ، فاغتم واسلم ، واعلم إن كنت لاتعلم ، أن من يَرْحَمَ
يُرْحَمَ ، ومن يَحْرِمُ يُحْرَمَ ، ومن يُحْسِنُ يَغْنَمُ ، ومن يَصْنَعُ المعروف لا يندم .
وقد سبق إلى تغضبك عليّ ، واطراحك لي ، وغفلتك عني ، بما
لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أتنبه ولا أرقد ، فلست بحى صحيح ،
ولا بميت مستريح ، فررت بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ،
ولذلك قلت :

(وذكر ثلاثة أبيات من الشعر) .

فإن رأيت - أراك الله ماتحب ، وأبقاك في خير - ألا تزهد فيما ترى
من تضرعي وتخشعي ، وتذلي وتضعي ، فإن ذلك ليس لي بنجيزة
ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنع ولا تحذع ، ولكنه تدلل وتخشع وتضرع
من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع ،
له عز ورفعة وشرف .

الفصل التاسع

آبشار الفرس في الشعر

عرف الشعر في العصر الجاهلي شاعراً من الموالى هو سُحَيْمُ عَيْدِ بْنِ الْمُحَسِّنِ ، لكنه لم يكن فارسياً .

ثم عرف الشعر العربي في العصر الأموي عدداً قليلاً من الموالى ، فلما كان العصر العباسي كثر الشعراء من الموالى ، ولا سيما الفرس ، حتى زاحموا أبناء العرب وساووهم .

عرف من اللذين انتحلوا من أصل فارسي أبانواس ، ومروان بن أبي حَفْصَةَ ، ويشار ابن بُرْدٍ ، وسَلْمَا المَخَاسِرُ ، ومهيسارا النبيلمي ، وعرف من النبط أبا العتاهية ، ومن الروم ابن الرومي .

وحسبنا أن نردد النظر في (يتيمة الدهر للشعالي) لتتعرف عشرات من أبناء الفرس مهروا في قرض الشعر العربي ، نشأ بعضهم في ظلال الدولة البويهية في بغداد والعراق وواسط ، ونشأ بعضهم في ظلال الدولة الزيارية بطبرستان ، وعاش آخرون في رعاية الدولة الساسانية بخوارزم وخراسان .

وليس يعني هنا من اشتهروا بالمغرب والأندلس ومصر ، فإن هذه مناطق بعيدة عن العلاقات الفارسية العربية التي نتحدث عنها .

ولقد أضاف هؤلاء الشعراء ومن تأثر بهم من العرب ألواناً جديدة :

في الشعر العربي .

(١) التوسع في الغزل المكشوف

كان الغزل المكشوف معروفا منذ العصر الجاهلي في شعر الأعشى وسُحيم وأمرئ القيس وغيرهم ، لكنه كان ضيق النطاق ، وكان في كشفه يرتدى غلالة رقيقة من الحياء أو الكتمان ، ولم يشتهر به إلا قلة قليلة من الشعراء .

تلما جاء العصر العباسي اتسعت دائرته ، وكثر قائلوه ، وتحيروا للتعبير عن مشاعرهم كلمات عارية وألفاظا نابية ، وجهروا بما لم يجهر به سابقوهم ، فصار عاريا لا يتستر ولا يستحي .

وكان بشار بن برد أول من فتح باب الخلاعة على مصراعيه ، فجهر بما لا يصح الجهر به ، فأقبل الفتيان والفتيات على شعره إقبالا أنذر بالشر كقوله :

لا يؤيسنك من مخنرة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يسهل بعد ما جمحا

حقيقة أن العرب عرفوا الأدب المكشوف في الجاهلية ، وعرفوه في العصر الإسلامي ، فقد كان للأعشى وسُحيم وأمرئ القيس وطرفة شعر في الخمر وفي الغزل المحسني ، ثم كان الأنطال في العصر الأموي صاحب خمر وخمريات ، وكان عمر بن أبي ربيعة يتغزل في العصر الأموي غزلا حسيا ، وكان للوليد بن يزيد خمر ومحش .

لكن هؤلاء كان قلة ضئيلة ، وكانوا في أكثر الأحوال يتحززون في ألفاظهم وتعايبهم ، وقلما اصطنعوا التصريح الذي تنتقز منه النفوس .

أما في العصر العباسي فقد كان عدد المجان كبيراً ؛ وكانوا يعتمدون إلى اللفظ العارى ، والتعبير المكشوف ؛ والوصف المنفصل .
فهل كان هذا نتيجة محتومة لتطور المجتمع في نظم حياته ووسائل ترفيهه وراثته الواسع ؟ أو كان نتيجة لخلاط الفرس بالعرب ، وكثرة الموالى والإماء ، وما نقله الفرس إلى العرب من ضروب اللهو والترفيه ؟
الحق أنه كان نتيجة محتومة للأميرين معاً .

ذلك أن تطور الحياة ، وتنوع الترفيه ، وكثرة المال ليست هي السبب الوحيد في كثرة المجون والخلاعة والأدب المكشوف ، لأن المجتمع في الأقاليم الأخرى كالشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس قد تطورت حياته ، لكنه كان أكثر جدّاً ، وكان أحرص على التصون من المجتمع العراقي .

وإذن فقد كان الفرس أهم بواعث الخلاعة والأدب المكشوف ، لأن العرب لو لم يخالطوهم لكانت حلهم أشبه بإخوانهم في الشام ومصر .
ولقد يغنينا في هذا المقام أن تمثل بما حدث في الكوفة وحدها لتبين أثر الفرس في الزندقة والإباحية والمجون ، وما ينشأ عن هذا من غزلي حسي داعر ، فقد عاش بها نفر من الشعراء نشروا معجونهم فيها وفيما جاورها ، واشتهروا بعشق الجوارى والغلمان ، ووُسِمُوا جميعاً بالزندقة ، مثل مطيع بن إياس ، ووالبة بن الحُبَاب ، وأبو دُلَامة ، وحماد عَجْرَد ، ويحيى بن زياد ، ووفد على هؤلاء نفر آخر شاركهم في خلاعتهم كابن المقفع ، ومحمد بن الأشعث ، وكانوا جميعاً يترددون على دور القيان ، حيث يطلقون لأنفسهم العنان في ممارسة المجانة والفسوق في غير ماتحرج أو حياء . . .

انتقل بعضهم إلى بغداد وغيرها ونقلوا معهم فسوقهم ومجونهم
وغزلم العارى المكشوف .

وفى كتب الأدب ودواوين الشعراء ألوان شتى من هذا الغزل ، وحسبنا
أن نعرض بعض أمثلة مكسوة من غزلم المكشوف بالجوارى .

فالوزير المهلبى يقول فى جاريته (تَجْنِي) :

مَرَّتْ فسلم تشن طرفها تِيها يحسدها الغصن فى تشنيها
تلك (تَجْنِي) التى جُننت بها أعاذنى الله من تَجْنِيها
والصائبى يقول :

يا من بدت هُريانة قرأيت كسل الحسن منها
كسنت ثيابك صورة فسُتِرتِ بالتجريد عنها
ويقول :

إلى الله أشكر ما لقيتُ من الهوى بجارية أمسى بها القلب يلهج
إذا امتزجتُ أنفاسنا بالتزامنسا توهمت أن الروح بالروح تمزج
وقال الشريف الرضى فى جارية سوداء :

أحبك بالون الشباسب لأننى رأيتكما فى القلب والعين توأما
سواد يود البدر لو كان وقعه بجلدته أو شق فى وجهه فما
لبخض عند الصبح ما كان مشرقا وحَبَّ عند الليل ما كان مظلمًا
سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه فلم أدر من عزٍّ من القلب منكما

(٢) الغزل بالذكر

تقدم فى (العادات) أن الفرس كانوا يملأون قصورهم ودورهم
بالغلمان ، وكانوا يستخدمونهم فى كثير من الشؤون ، ويلبسونهم ملابس
الاناث ، ويحلونهم بحليهن ، وأن العرب حاكوهم فى هذا وذاك .

وتقدم أن السكوفة غصت بطائفة مخنثة من هؤلاء الغلمان ، منذ امتلأت بجند خراسان اللين ساعدوا على إقامة ملك بني العباس ، إذ كان الجنود قد جاءوا معهم بالمخنثين لا استخدامهم كما كان الفرس يستخدمونهم ، لأن كل مانوي كان يصطحب غلاماً أمرد ، ويستخدمه فيما يريد .

وكان هؤلاء الغلماء المخنثين بالكوفة مظهران غريبان على العرب : أحدهما التشبه بالنساء في الملابس والتزين كالخضاب وتزجيج الحواجب وإطالة الشعر والتحلل بالذهب ، والآخر التغنى بالشعر الماجن في غير تخرج أو استحيا .

ثم تكاثروا بالبصرة وبغداد بتأثير الفرس ، وكانوا ينتشون في حركاتهم وفي مشيتهم ، فصار الخلماء بالكوفة والبصرة وبغداد يستملحون مظهرهم ، فجعلت الجوارى يتشبهن بهم في اللبس والمظهر ، فأطلق عليهن لقب (غلاميات) .

ولم يقف الانحلال عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى مرض نفسى ينذر بالشر ، إذ تردى بعض الشعراء في عشق الغلمان ، وصار من علامات الظرف في بغداد أن يكون للشاعر غلام يتعشقه ويتغزل به ، وقد يشترك شاعران في عشق غلام واحد والمنافسة عليه (١) .

وكان من المنتظر أن يشتهر بالغلمان الإباحيون المنحدرون من أصل فارسي مثل حماد عجرد وأبي نواس والحسين بن الضحاك ووالبة ابن الحباب ، لأنهم أصحاب جانة وخلاعة وشذوذ ، ولأنهم يأنسون إلى غناء المخنثين بشعر المجون . .

(١) الألفاظ ٢٠٨/٦ و ١٢٠/١٢٠ .

لهذا نشأ نوع جديد من الغزل ، زاحم الغزل بالمؤنث الذي تغنى به
العرب منذ الجاهلية ، هو الغزل بالمذكر ، كقول أبي نؤاس في غلام (١) .

وشادن تسحر عيناه أسفله يجلب أعلاه
ينظر مولاه إلى وجهه يا ليتني عين مولاه
أعرتة روحى وقلبي فقد عيبت مما أتقضاه
ولو رآني مبتأ في الهوى لقال لي أبعدك الله

ومن هذا الغزل قول الخبزي آرزي (٢) :

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما بأكرم من مولى تمشى إلى عبد ؟
أتى زائراً من غير وعد وقال لي أصونك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال نجم الكأس بيني وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعد
غطوراً على تقبيل نرجس ناظر وطوراً على تعضيض تفاعحة الخد

وقول أبي الحسن محمد بن عبد الله السلافي في غلام بدوي :

تعلقته بدوي اللسا ن والوجه والزي ثبت الجنان
أعانق من قده صعدة ترى اللحظ منها مكان السنان
أدار اللثام على ثغره فأهدى الشقيق إلى الأفحوان
فيا بدوي سهام الجفون صرعن ضيوفك حول الجنان
فإن كان دينك رعى اللمام فقل : أنت من ذمتي في أمان

(١) الديوان ٤٠٥ .

(٢) كان لا يكتب ولا يقرأ ، وكانت حرفته خبز الأرز في دكانه بهربد البصرة ،
سكان يخبز وينشد أشعاره في الغزل والناس يزدحون حوله ويستمعون إلى شعره ، وكان أحداث
البصرة يتنافسون في ميله إليهم وذكره لهم ويحفظون كلامه (بقيمة الدرر ٢/٢٦٧) .

وقول ابن سُّكَّرِه :

سَأَلْتُهُ فِي صَحْوِهِ قَبْلَةَ فَرَدْنِي وَالْمَوْتَ فِي رَدِّهِ
حَتَّى إِذَا السُّكْرُ لَوَى رَأْسَهُ قَبْلَتَهُ أَلْفَسَا بِلَا حَمْدِهِ

وفي يتيمة الدهر للشعالي أنماط فاحشة من هذا الغزل يعف عن
تسطيرها القلم .

فهل كان الغزل بالملدك محاكاة لتغزل الفرس بالذكور كما يتغزلون

بالإناث ؟

لقد شاع في الدراسات الأدبية أن شعراء العرب حاكوا شعراء
الفرس في الغزل بالملدك، حتى صارت الدعوى من كثرة ترديدنا أشبه
بالحقيقة .

لكن الحقيقة ليست كذلك ، « لأن اللغة الفارسية لا تفرق
بين المذكر والمؤنث في الضمائر وأسماء الإشارة والصفات ، فالضمير (أو)
هو أو هي و (تو) معناه أنتَ أو أنتِ ، واسم الإشارة (اين) معناه
هذا أو هذه (وآن) معناه ذلك أو تلك ، وليس في الفارسية إلا اسم
موصول واحد هو (كه) لجميع الحالات ، وإنما يتعين المراد بالسياق .

ولعلك توافقني إذا قلت إنه ليس في سياق الشعر الغزلي ما يرجع
أن الشاعر يريد بغزله المذكر ، فليت شعري إلى أي شيء استند من
قالوا إن شعراء الفرس مولعون بالتغزل بالملدك » (١) ؟

على أن الغزل بالملدك شاع في العصر العباسي قبل أن يستقيم الشعر

الفارسي الجديد ، فكيف تأتى للعرب أن يحاكوا شعراً لم يتجاوز عهد
الطفولة ؟

وذلك أن أبا نواس وأضرابه مارسوا هذا الغزل قبل القرن
الثالث ، وهو العصر الذي بدأ فيه الأدب الفارسي يبعث بعد رقاد
طويل ، ويستظل في بعثته هذه بالأدب العربي ويحاكيه ، أما الأدب
الفهلوي فقد كان مجهولاً للفرس في العصر العباسي ، ولم يعرف
الدارسون منه إلى يومنا هذا إلا نتفاً وشلرات ، ليس فيها غزل بالمذكر .

من الإنصاف أن نقول : إن الغزل بالمذكر بدعة ظهرت في
العصر العباسي نتيجة لعوامل متعددة من زلقة وإباحة وانحلال
خلق ، وكثرة في الغلمان والمخنثين ، وولع أبناء الفرس بهم ،
وإسفافهم في التعبير عن عواطفهم المريضة بشعر عربي ، ولا ننكر
أن بعض العرب حاكوهم في كلفهم بالغلمان والتغزل بهم كما يتغزلون
على الإناث .

ومن هنا يتضح الفرق بين نشأة الغزل بالمذكر في الشعر العربي
محاكاة للشعر الفارسي ، وبين نشأته بتأثير أبناء الفرس اللذين
قرضوا الشعر العربي ، وكان كثير منهم لا يعرف الفارسية ، وكذلك نشأته
بتأثير الترف والمخالعة والانحلال .

ومهما يكن من شيء فإننا مازلنا نلمح في بعض الشعر العربي الحديث
وفي بعض الأغنيات الفصيحة والعامية آثاراً من مظهر الغزل بالمذكر في
الدلالة على الأثني بضمير المذكر في الخطاب والغياب .

(٢) التوسع في الخمریات

كان العرب يعرفون الخمر في جاهليتهم ، وكانت ترد إلى بلادهم من جهات شتى ، وكثيراً ما وصفها بعض شعرائهم ، ووصفوا مجالسها وسقاتها وتحدثوا عن الندامى وعن القيان اللالى كنَّ يغنين لهم في مجالس الشراب (١) .

فلما جاء الإسلام حرم الخمر تحريماً ، ووصفها بأنها رجس من عمل الشيطان ، فكف الشعراء عن وصفها .

ثم عاد بعض الشعراء إلى التغنى بها في العصر الأموى ، وكان زعيمهم في المجاهرة بشرها والإكثار من ذكرها الأخطل الشاعر التغلبي النصرالى .

ولم يكف يستهل العصر العباسى بما صاحبه من حضارة وترف وثراء وإطلاق للحريات الفردية ومخالطة عميقة للفرس وغيرهم ، ومانشاً عن ذلك من زنلقة ومجون ، حتى كثرت أنواع الشراب ، وتعددت مجالسه ، وأقيل ناس عليه في غير تأثم ، فلهج كثير من الشعراء بالخمریات ، وتزعمهم أبو نواس ، ففى ديوانه آلاف الأبيات فى الخمر ، آتى فيها بكل جديد من الفكرة وطريف من الخيال .

وهو الذى ابتدع افتتاح القصائد بالخمر ، إذ كانت مطالع كثير من قصائده إشادة بالخمر ودعاء إلى شربها ، وتهكاً بالبلدين يبدؤون قصائدهم بالغزل وبكاه الأطلال ، كقوله :

صفة الطلؤل بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم (٢)

(١) راجع الحياة المرية من الشعر الجاهل للمؤلف - فصل الخمر .

(٢) ديوان أبو نواس ٣٢٣ القدم بالثقاف الزمن القديم أو القدم بالفاء المفتوحة أى الثقيل .

وقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند

واشرب^١ على الورد من حمراء كالورد (١)

وقوله .

تبكى على طلل الماضين من أسد لا در^٢ درك قل لي : من بنو أسد؟
لا جف^٣ دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وقد
كم بين ناعت خمر في دساكرها وبين باك على نوى ومنتضد.

أما خمرياته فكثيرة ، منها قوله :

أكل الدهر ماتجسم منها وتبقى^٤ كلبها المسكونا
ثم شجت فاستضحكت عن لأك^٥ لو تجمعن في يد لاقتنينا
فلذا ما لستها فهباء تمنع الكف^٦ ماتبيع العونا
في كؤوس كسأن^٧ نجوم جاريات بروجها أيدينا
طالعسات من السقا^٨ علينا فإذا ما غربن يخرن فينا (٢)

وقال أبو الحسن السلامي :

اشربا واسقيا فتى يصحب الأير^٩ بام^{١٠} نفسا كثيرة الأوطار
والنفوس الكبار تأنف للسا دة أن يشربوا بغير الكبار
في جوار الصبا نحل^{١١} بيوتنا عمرت^{١٢} بالفصون والأقمار
ونصل^{١٣} على أذان الطنابيه ر ونصفي لنغمة الأوتار
بين قوم إمامهم ساجد للـ كأس أو راكمع على المزمار

(١) الديوان ٢٦٧ .

(٢) الديوان ١/٣٩٩ .

ويتصل بالخمريات وصف مجالسها وكؤوسها وآثارها في النفوس
وسقاتها ووصف النداي والقيان وماشابه ذلك ، كقول ابن المعتز :

وأَمَطَرَ الكَأْسَ ماءً من أنامله فأنبت اللرُّ في أرض من الذهب
وسبَّحَ القوم لما أن رأوا عَجَبًا نُوراً من الماء في نار من العنب
وقوله في وصف تأثير السكر :

وقد شربوا حتى كأن رعوسهم من اللبن لم يُحَدِّثْ لهن عظام
وقوله في وصف السقاة وقيامهم على رعوس الشاربين :

وكأن السقاة بين النداي ألفت بين السطور قيام

(٤) ممان وأخيلة

على أن الشعراء المتصلين بالفرس أو بالثقافة الفارسية أو المتأثرين
بحضارة الفرس زودوا الشعر العربي بممان وأخيلة جديدة كقول بشار :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا بمن لا تری تهدي فقلت لم الأذن كالعين تُوفي القلب ما كانا
وقول أبي نواس :

لست أدري أطال ليلى أم لا كيف يدري بذاك من يتقلى ؟
لو تفرغت لاستطالة ليلى ولرعى النجوم كنت مُخللاً

وقوله في وصف الخمر :

ونذمان سقيتُ السراح صرفاً وسيرُّ الليل مُسدلاً السجوف
صغتُ وصفتُ زجاجتها عليها كمنى دقَّ في ذهن لطيف

وقوله :

قل لزهير إذا أتكا وشدا أقلل أو أكثر فسأنت مهذار
سَخُنْتُ من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يَعْجَبُ السامعون من صفتي كذلك الثلج باردٌ حار(١)
وهو بهذا يودد مازعمه علماء الهند أن الشيء إذا زادت برودته
صار حاراً ، وقوله :

ومستطيل على الصهباء باكرها في فتية باصطباح الراح حُذَاقِ
فكل شيء رآه ظنه قَدْحاً وكل شخص رآه قال ذا الساقِ
ولقد كان الشاعر العربي التغلبي المشهور بالعتابي معجباً بما في كتب
الفرس من أفكار ، وهذا هو السبب في عمق معانيه وجدة بعضها ،
كقوله في الشكر :

فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأملته الناظر
لثبته لك حتى تراه لتعلم أنني امرؤ شاكر
وله في النثر قدم سبق ، استدعاه المأمون وقال له : بلغتنى وفاتك
فسأمتنى ، ثم بلغتنى وفادتك فسررتنى ، فقال العتابي : يا أمير المؤمنين
لو قسمت هذه الكلمات على أهل الأرض لوسعتهم ، وذلك لأنه لا دين
إلا بك ، ولا دنيا إلا منك . فقال المأمون سئني ، قال العتابي : يدك
بالعطاء أطلق من لساني .

ومن حكمه قوله : الأقلام مطايا الفِطْن . عشيرك من أحسن
عشرتك . أهدي الناس إلى مودتك من أهدي بره إليك (٢) .

(١) الديوان ١٨١ .

(٢) الشعر والشعراء . ٣٦٠ والأشواق ٢/١١ .

(٥) الكلف بالمحسنات

أغرم الشعراء بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، وكان بعضهم يتوخاها
توخيا ، ويعتمدها تعمداً ، ويتصيدا في حرص عليها شديد .

(أ) وكان كلفهم بالجناس أشد ، ولهذا تنوع وتفرع .

فمن الجناس المائل - وهو المتفق اسميةً وفعلية - قول ابن الرومي
في وصف الجوارى السود :

للسود في السود آثار تركزن بها

وقعا من البيض يثنى أعين البيض (١)

ومن المستوفى - المختلف اسميةً وفعلية - قول البستي :

ففسال لي : دعني ولا تؤذني إلى متى أجرى بلا أجر

ومن المركب - المتفق لفظاً وخطاً - قول أبي الفضل الميكالي :

تفرق الناس في أرزاقهم فرقا فلابس من ثراء المال أو عار

كهذا المعاش في الدنيا وساكنها مقسومة بين أدمث وأوعار

من ظن بالله جوراً في قضيتته افتتر عن مأثم في الدين أو عار

ومن المفروق - المتفق لفظاً لا خطاً - قول البستي :

كم من أخ قد هلّمت أخلاقه في آخر ماقد بني في أول

يرى سهاماً إن أسر المقتل لي بالسكيد لا يقصدن غير المقتل

ومن المطرف - المختلف بزيادة حرف - قول البحتري :

فإن صلقت عنا فرئت أنفس صوادٍ إلى تلك الوجوه الصوادف

(١) السود الأولى جمع سواد الجارية ، والثانية جمع سواد القلب . البيض الأولى جمع أبيض

لسيف والثالثة جمع بيضاء لمرأة .

ومن اللَّيْلِ - المختلف بأكثر من حرف - قول بعض العباسيين .
فيسا لك من حزم وعزم طواهما جليد الردى تحت الصفا والصفائح

ومن المشتق - ما يرجع إلى أصل واحد - قول أبي تمام :
وأوجدتم من بعد إنهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

ومن المطلق - ما لا يرجع إلى أصل واحد - قول أبي نواس :
فما السلاف زحنتي بل سوائفهُ ولا الشمول دعنتي بل شمائله
ومن المضارع - ما اختلف بحرف مقارب المخرج - قول الشريف
الرضي .

لا يذكر الرمل إلا خنَّ مغترباً له إلى الرمل أو طار وأوطان

ومن اللاحق - ما لا تقارب في حرفيه - قول البحري :
لست عن ثروة بلغت مداها غير أني امرؤ كفتاني كفتاني
ومن اللفظي - ما اختلف بحرف مقارب المخط - قول الأرجاني :
أوبيض الهند من وجسدي هوازٍ بإحدى البيض من عليا هوازن
ومن جناس العكس والقلب قول ابن نباتة السعدي في الأمير
بهرام :

قيل كسل القلوب من رهب الحبيب تضطرب
قلت : هذا تخرصُ قلب بهرام ما رهبُ

(ب) وتلاعب بعضهم بالألفاظ في حيل شتى ، كقول الحريري في
بندلعة حروفها كلها عاطلة :

أعدّ لحسادك حدّ السلاح وأورد الآمل وردّ السماح

وقوله في أخرى حالية الحروف كلها :

شغفتني بجنن ظبي غضيف غنيج يقتضي تغيض جفني

وقوله في ثلاثة إحدى كلماتها مهملة والأخرى معجمة :

اسمح فبت السباح زين ولا تخب آملا تضيف

وقوله في رابعة خطية الجناس :

زينب زينت بقد يفسد وتلاه ويلاه نهل يهد

وقوله في خامسة مطرفة الجناس :

سم سمة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمه (١)

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي ٣٣٨ للأستاذ السباعي بيومي .

الفصل العاشر

تقنيات

التعقيب الأول

شرٌ وخيرٌ

جلدير بنا بعد هذا التطواف أن نقف وقفة قصيرة ، لنرَوِّزَ في إنصاف ماقدم الفرس للعرب في الجاهلية وفي الإسلام من شرٍّ أو من خيرٍ ، قبل أن نبدأ رحلة أخرى ، نتهين فيها ماقدم العرب للفرس من صنوف النفع والخير .

١- ويبدو أن خير ما استفاده العرب من الفرس جاهلية وإسلاماً هو أنهم نقلوا من مفردات اللغة الفارسية كثيراً ، فأثروا اللغة العربية بها وبما اشتقوه أو تجوزوه منها ، وأنهم نقلوا بعض أقاصيص الفرس وحِكَمهم ومعانيهم وأخياتهم .

كذلك ساهم أبناء الفرس بعد أن أسلموا وتعلموا العربية مساهمة مشمرة جادة في إثراء اللغة العربية بمؤلفاتهم القيمة التي تناولت ألوان المعارف والثقافة ، ولم يقصروا في العلوم اللغوية والأدبية ، فإن جهدهم في هذا المجال حميد ، لا يجحده أحد ، وكان منهم شعراء وكتاب حنقوا اللغة العربية ، وزاحموا بشعرهم ونثرهم الأفلاذ من العرب المخلص ، فأثروها بجليد من الأفسكار ، وبطريف من الخيال .

٢- وقد يقال إن العرب اقتبسوا منهم نظماً في الإدارة والسياسة ،

كالوزارة ، وبيوت الإذن ، والتنجيم والمنجمين ، والدواوين وماشاكلها ، وهذا صحيح ، ولكنه محتاج إلى تعقيب .

(ا) ذلك أن بيوت الإذن (الحجابة) للدخول على الخليفة أو الحاكم مظهر من مظاهر الأبهة والاستعلاء والحكم المطلق كان العرب في غنى عنه ، بل ليتهم ما عرفوه .

(ب) أما التنجيم بمعنى التكهن بالغيب والتصرف في شؤون الدولة على وفق ما يقول المنجمون ، فإنه عمل لا يقره الإسلام ولا يصح أن تصرف الدولة شؤونها على هواه ، ولهذا لم يعبأ بهم المتخصص حينما خوفوه فتشع عُمورية ، وكانت سيوفه أصدق أنباء من كتبهم كما قال أبو تمام ، فانتصر على الروم انتصاره المعروف .

(ج) وأما الوزارة فإنها بلفظها ليست غريبة على العرب ، فالوزير حامل الوزر وهو الثقل ، لأنه يحمل أعباء الحكومة ، أو الوزير هو الملجأ والمرجع في تدبير الشؤون ، لأن الوزر هو الملجأ والمتصم .

والوزارة بدلتها كانت معروفة عند العرب ، إذ أرادوا بالوزير من يعين الحاكم ويشد أزره ويشير عليه .

وهي بهذا المعنى معروفة منذ عهد النبوة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشاور صحابته في الشؤون العامة والخاصة ، وكان يختص أبا بكر ببعض الشؤون ، حتى إن العرب الذين خالطوا الفرس والروم قبل الإسلام وعرفوا وظيفة الوزير عندهم كانوا يطلقون على أبي بكر وزير النبي .

ثم كان عمر في خلافة أبي بكر يقوم بالقضاء وتوزيع الزكاة

تياية عن أبي بكر ، وكان عثمان وعلي في خلافة عمر مستشارين له ،
وينهضان بما يعهده إليهما من شؤون الحكم ، إذ كان علي يتولى كتابة
الرسائل ، ويقضى بين الناس ، وينظر في أحوال الأسرى ، ويفتدى
أسرى المسلمين .

وقد ذكر ابن خلدون أن عمر بن الخطاب لما أراد أن يبعث إلى
الكوفة بإمام يعلم الناس اختار عبد الله بن مسعود وقال : إني بعثت إليكم
بعمار بن ياسر أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيرا .

وكان هؤلاء الأعوان يقومون بأعمال الوزراء وإن لم تطلق عليهم
كلمة وزراء ، لبساطة الإسلام ، ولبعده عن أهبة الملك .

ثم صارت الخلافة في عهد بني أمية ملكا وراثيا ، فاختار خلفاؤها
بعض الرجال المحنكين وقربوهم إليهم ، وأقاموهم منهم مقام الوزراء ،
ولكنهم لم يلقبوا بهذا اللقب إلا على نادرة ، فقد لقب زياد بلقب الوزير
في عهد معاوية بن أبي سفيان ، ولقب رُوْح بن زُبَاع الجذامي بلقب
الوزير في عهد عبد الملك بن مروان .

فإذا كان العرب قد نقلوا من الفرس وزارة التنفيذ ووزارة
التفويض كما سبق ، فإن هذا توسع فيما عرفوه من قبل ، وتطور في
نظام الحكم لم يكن منه بد .

والحق أن العرب كانوا بتوجيه الإسلام وتأثير التطور قد خطوا
خطوات فساحا متلاحقة في مجالي الإدارة والسياسة ، فكان للنبي عليه
الصلاة والسلام ولخلفائه الراشدين ولبنى أمية عمال على الأقاليم هم
الولاة ، وكان العامل (الوالي أو الأمير) يقوم بالشؤون السياسية ، ويؤم
الناس في الصلاة ، ويفصل في خصوماتهم ، ويقود الجنود في الحرب ،
وكان مع الوالي عامل على الخراج يتولى الشؤون المالية ، ويراقب الوالي .

وكان للدولة جنود مدربون وقواد محنكون وأسطول وقضاة عدول
وشرطة وعسس وجباة للزكاة والخراج ، وكانت لها دواوين شتى في كل
إقليم ، وكلما سار للزمن بالعرب جددوا في نظمهم ، واستحدثوا من
وسائل الإدارة ما تقتضيه الأحوال .

وكان الخلفاء الراشدون يشاورون ذوى الرأى من الصحابة وأعيان
المدينة ، وكان المسجد مقر اجتماعهم ومشاوراتهم ، إذ كان المسجد مكان
الصلوة ، ومركزاً لإدارة الشؤون السياسية والاجتماعية ، يقول سير
توماس أرنولد : لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان مركز
السياسة والاجتماع ، فقد استقبل فيه النبي السفراء ، وأدار شؤون
الدولة ، ومن فوق منبر المدينة أعلن عمر تفهقر جيوش المسلمين في
العراق ، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد ، ومن فوقه وقف
عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقي من فوق
المنبر خطبته الأولى على الجمهور ، يبين فيها سياسته ومنهجه ، فكان المنبر
أشبه بالمنصة التى يلقي من فوقها ساسة الأمم خطبهم السياسية .

(د) وأما الدواوين فإن العرب بدأوا بإنشائها قبل أن ينقلوا شيئاً
من الفرس ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ له كتاباً يدونون
القرآن الكريم ، ويكتبون رسائله إلى الملوك والأمراء ، مثل على بن أبي
طالب ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان وأبي بن
كعب وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة .

ويصح أن نعتد هذا العمل أول خطوة في إنشاء ديوان رسمى للدولة
الجديدة .

فلما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له ، ولما

تولى عمر اختار كاتبين له هما زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم ، ثم
تولى عثمان فاصطنع مروان بن الحكم كاتباً له ، فلما تولى علي بن أبي
طالب اتخذ كاتبه عبد الله بن رافع .

وحيثما اتسعت الفتوح في عهد عمر بن الخطاب ، وكثرت موارد
الدولة ، احتاج إلى ديوان يضبط مايرد إلى بيت المال وما يصدر عنه ،
 واحتاج إلى ديوان ينظم أعطيات الجنود ، فأنشأ هذا الديوان ،
 واستمر ديوان الجند في عهد عثمان وعلي ، على حين كانت في أرجاء
الدولة دواوين أخرى تقوم بأعمالها ، وكانت في فارس باللغة
الفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية .

ثم آل الأمر إلى معاوية ، فأنشأ ديوان الخاتم ، ليتولى إرسال
ما يكتبه الخليفة أو يمليه مختوماً لا يعرف جامله ما فيه .

ويرجع السبب في إنشائه إلى أن معاوية كتب إلى زياد واليه علي
العراق أن يعطى رجلاً مئة درهم ، فبُض الرجل الكتاب وكان
غير مختوم ، فجعل المئة مئتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية
أذكر المئتين ، وحينما استبان الحقيقة استرد المال من الرجل ، وأمر
بإنشاء ديوان الخاتم .

على أن الكتاب تعددوا فصاروا خمسة : كاتب للرسائل ، وكاتب
للخراج ، وكاتب للجند ، وكاتب للشرطة ، وكاتب للقضاء .

ثم عربت الدواوين التي كانت بفارس والشام في عهد عبد الملك ،
وعربت دواوين مصر في عهد ابنه الوليد ، فامتلات بالعرب وبن أجادوا
اللغة العربية من أبناء هذه الأقاليم ، وصار لكل ديوان أعماله التي
يمارسها رجاله .

وفي العصر الأموي تزايدت الحاجة إلى كتابة الرسائل التي تصدر عن الخليفة ، فنشأ ديوان جديد هو ديوان الرسائل .

وكان كاتب الرسائل في أيام عبد الملك هو سليمان بن سعد ، وإن لم ينقطع عبد الملك عن ممارستها أحياناً بنفسه .

ولكن ديوان الرسائل لم يشتهر بالافتتان فيما يحيره إلا منذ عهد هشام بن عبد الملك ، وكان الفضل في هذا لأبي العلاء سالم بن عبد الله صاحب الديوان ، وقد تتلمذ له وحاكاه كثير من الكتاب ، وكان عبد الحميد بن يحيى أبرعهم ، ثم كان أعظمهم أثراً وأبعدهم صينياً ، إذ تولى كتابة الديوان مروان بن محمد وهو وال على الجزيرة ، وتولاها له وهو خليفة بدمشق إلى أن غربت شمس بني أمية وأشرقت شمس بني العباس .

وإذن فقد عرف العرب الدواوين ونظامها قبل أن ينقلوها عن الفرس ، فإذا كانت قد كثرت وتشعبت بعد اتصالهم بالفرس ، فإن هذا راجع إلى التطور الذي اقتضته السياسية والإدارة وإلى مخالفتهم للفرس وغيرهم في مصر والشام وإفريقية .

٣- أما آثار الفرس الأخرى فلم يَحُلْصُ بعضها لخير العرب والمسلمين :

(١) في مجال العقائد نشر بعضهم في الجاهلية والإسلام الزرادشتية والمزدكية والمناوية والزندقة والإلحاد ، وتسخر كثير منهم بالتشيع للإمام علي وبينه ، لاعتن مولاة خالصة للعلوية ، ولا عن حمية للحق المسلوب ، بل لبث الفرقة والانقسام وتقويض الوحدة وزلزلة القوة ، (تيارات ثقافية)

ليكون هذا وسيلة لاسترجاع الحكم الفارسي والمخلص من الحكم العربي .

ثم نجم عن هذا التدبير بقصد وبغير قصد أن تعددت الفرق والنحل ، حتى بلغت فرق الشيعة وحدهم ثلاثاً وسبعين .

ومن عجب أن بعض الفرق عادي بعضاً ، حتى لقد سول هذا العداء الذي لا مبرر له لبعض الفرق أن تكفر بعضها ، كأنما هذه على دين وتلك على دين .

(ب) وعلى مسرح الاجتماع والعادات أذاع بعضهم الفرس الخمر ، والترف ، والجواري ، والغلمان ، والتبجح بالمنكرات ، فسرى الانحلال في المجتمع ، حتى تناسى كثير من العرب أخلاقهم التي بثتها فيهم البداوة ، وغرسها فيهم الإسلام ، وصاروا لا يأنفون من الفحشاء والمجاهرة بالخمريات ، والكلف بالغلمان ، والمباهاة بالإلحاد والعدوان على الأعراض .

وكان من نتائج هذا كله أن كثر المترفون والخلعاء ، وأن تنافسوا في السرف والبدخ ، وتسابقوا إلى مظاهر الأبهة في المساكن والملابس والمطاعم والمشارب ، فحق عليهم قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (١) .

(ج) وفي ميدان السياسة أشعل بعض الفرس نار الشعوبية ، وقاموا بالثورات الانفصالية كثورة سونباذ ، والرأوندية ، والمقنعة ، والمحمرة ،

والخرمية ، وتمخضت هذه الثورات عن انقسام الدولة الكبرى إلى دويلات منفصلة كالصغارية ، والزيارية ، والسامانية ، والبويهية ، ثم انتهى الصراع بسقوط الخلافة العباسية التي كانت تتوَّج بغداد ، فتفرقت الوحدة ، ونشأت إمارات ودويلات هنا وهناك بالشرق والغرب تتناكر وتتحارب ، على حين أن أعداء العرب والإسلام هم بالمرصاد .

التعقيب الثاني

قضية العلوم بين العرب والفرس

(١) تمهيد

لم يكد الإسلام تستقر دعائمها في جزيرة العرب حتى انساح العرب في العالم سراعاً ، يحملون مشاعل الهدى ، ترافقهم لغتهم حيثما حلوا ، وما كان يمضي قرنان حتى صارت اللغة العربية هي اللغة الأدبية والعلمية والرسمية للشعوب التي خضعت لحكم العرب ، واعتنق أكثر سكانها الإسلام ، لأنها لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والثقافة الإسلامية ، ولأنها لسان الغالبين والحاكمين ، ولغة المكاتب الرسمية والدواوين ، ثم لأنها أرقى وأثرى من لغات هذه الشعوب ، بمفرداتها الكثيرة ، وبمرونة قواعدها النحوية والصرفية وبطواعية أساليبها ، وبحيوية أدبها .

هذا اختفت القبطية واليونانية من مصر — كانت القبطية لغة التخاطب ، واليونانية لغة الأدب والشؤون الرسمية — وتوارت البربرية من شمال إفريقية — ليبيا وتونس والجزائر ومراكش — وانكسحت الفارسية في العراق وفارس ، وانزوت اللهجة النوبية من بلاد النوبة ،

تم بعد حين توارت اللهجة السودانية والكوشيتية من السودان ، ولم
تظهر واحدة من هذه كلها بعد اختفائها ، ماعدا الفارسية التي استطاعت
أن تسترد حياتها في فارس منذ القرن الرابع للهجرة .

ومعنى هذا أن اللغة العربية الأدبية المشتركة للشعوب التي دانت
للحكم العربي من فارس شرقاً إلى مراکش غرباً ، ومن سورية شمالاً إلى
السودان جنوباً .

وكانت قد ازدهرت ثقافات في فارس والعراق وسورية ومصر
وشمال إفريقية ، وبقيت منها آثار شتى ، سرعان ماتمازج نيارها بخنران
الثقافة الإسلامية ، ويجداول الترجمة من اليونانية والهندية
والفارسية ، فنشأت علوم وآداب وثقافات عربية إسلامية ، اشترك
العرب والعجم في وضع أصولها ، وفي دعم بنياتها ، ورفع سمكها ،
اشتركوا فيما ألفوه في بعضها ، وفيما أضافوه إليها من ثمرات تفكيرهم
وابتكارهم .

ولا يستطيع أحد أن يتجاهل ماتتصف به هذه الثقافة العربية من
سمات عربية إسلامية ، ولهذا يعتز العرب جميعا بتراثهم الثقافي
المشترك ، ويطربون له ، ويباهون به ، ولا يعلقون إعجابهم بعالم أو
بأديب على إقليم ، ولا يبعده عن أنفسهم أنه من إقليم آخر ، لأنهم
لا يشعرون إلا بأنه عربي منهم .

ومن حق العرب أن يعتزوا بهذا التراث الثقافي المشترك ، لأنه كما
يقول كيرك : « ذو قيمة عظيمة ، تقوم عليه الصلاة الأساسية بين
الشرق الأدنى والغرب ، ثم بين الشرق الأوسط وآسيا البوذية .
والثقافة العربية كانت الرائدة والزعيمة منذ القرن التاسع إلى

القرن الحادى عشر ، ثم استمرت أهميتها العظيمة ثلاثة قرون أخرى ، وامتدت فى العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى وكانت اللغة العربية فى العصور الوسطى أكثر اللغات انتشاراً ، ولم تشكل العربية وتكتب بها شعوب من أمم مختلفة فى الشرق والعرب فحسب ، بل شعوب تدين بأديان متعددة ، (١) .

(٢) دعوى

لكن هذه المفخرة التى يجب أن تكون بمنأى عن التنازع قد جنح بها بعض الباحثين إلى ميدان التنازع تارة ، وإلى التهوين من شأن العرب تارة .

فلنتعقب هذه الدعوى منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر ، ثم نعقب عليها بما يكشف عن بطلانها .

١ - وأغلب الظن أن أول من بسط الدعوى وضحها عبد الرحمن ابن خلدون ، وهو عربى خالص النسب ، إذ قال : « من الغريب الواقع أن حملة العلوم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، سواء فى ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية ، إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبه فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربى .

والسبب أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السلاجقة والبيدائة ، وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه .

(١) عربيتنا ٥٦ محمود كامل .

كان الرجال ينقلونها في صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب .
والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب
لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتلوين ، ولا دُفِعوا إليه ، ولا دعيتهم
إليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين .

ثم احتيج إلى وضع التفسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة
ضياعه ، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين
الصحيح من الأسانيد وما دونه ، ثم كثر استخراج الأحكام من
الكتاب والسنة ، وكان اللسان قد فسد ، فاحتيج إلى وضع القواعد
النحوية ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط ،
والاستخراج والتنظيم والقياس ، واحتاجت إلى علوم أخرى هي وسائل
لها من معرفة قوانين العربية وقوانين الاستنباط والقياس والدفاع عن
العقائد الإيمانية ، لكثرة البدع والإلحاد ، فصارت هذه العلوم كلها
علوم ذات ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندوجت في جملة الصنائع ،
وقد كنا قدمنا أن الصنائع من مُنتحل الحضرة ، وأن العرب أبعد الناس
عنها ، فصارت العلوم حضرية ، وبعد عنها العرب وعن سوقها .

والحضر في ذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالى وأهل
الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من
الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك ، للحضارة الراسخة فيهم
منذ دولة الفرس ، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من
بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم في أنسابهم ، وإنما رُبُّوا في
اللسان العربي ، فاكسبوه بالمرئى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين
وفنا لمن بعلمهم .

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه من أهل الإسلام أكثرهم
عجم أو مستعجمون باللغة والمربى .
وكان علماء أصول الفقه كلهم عجمًا ، وكذا حملة علم الكلام
وأكثر المفسرين .

ولم يبق بحفظ العلم وتلويته إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله
صلى الله عليه وسلم : « لو تعلق العلم بأكناف السماء لئاله قوم من أهل
فارس » .

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها ، وخرجوا إليها
عن البداوة ، فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية ، وما دفعوا إليه
من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل الدولة
وحماتها وأولى سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة من انتحال العلم
حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء ألبدا يستنكفون عن الصنائع
والمهن وما يجبر إليها ، وتركوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ،
وما زالوا يرون لهم حق القيام به ، فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون
حملتها كل الاحتقار ، حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار
للعجم صارت العلوم الشرعية غريبة التسمية عند أهل الملك ، بما هم من
البعث عن نسبتها .

وأما العلوم العقلية فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم
ومؤلفوه ، واستقر العلم كله صناعة ، فاخصت بالعجم ، وتركها
العرب ، وانصرفوا عن انتحالها ، فلم يحنلها إلا العربون من العجم .
شأنها شأن الصنائع (١) .

(١) مقالة ابن خلدون ١٢٤٧ تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي .

من هذا النص يبين أن ابن خلدون رأى أن حملة العلوم - إلا القليل النادر - من العجم ، وبخاصة الفرس ، وأن العرب منهم في نسبه أعجمي في بيئته وتعلمه ومعرفته بلغة العجم وأخذته عن علمائهم .

وعمم حكمه هذا على العلوم التي كانت في ذلك الوقت ، ومثل بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وأصول وعقائد ، وبالعلوم اللسانية من نحو وصرف ولغة ، وبالعلوم الكونية التي ازدهرت بعد ذلك .

ثم علل اختصاص العجم بالعلوم وتخلف العرب عنهم بثلاثة أسباب :

(أ) كان العرب أهل بدَاوة في الوقت الذي كان فيه العجم أهل حضارة ، والبدَاوة لا تقتضي العلوم ، بل تقتضيها الحضارة ، فلما دعت الحاجة إلى وضع التفاسير وتلويح الأحاديث واستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، وإلى وضع القواعد النحوية ، تقدم العجم العرب ، لأنهم أصحاب ملكات راسخة من قبل .

(ب) لما تحضر العرب شغلهم الملك والحكم والسياسة والرياسة عن الاشتغال بالعلوم ، فاستقل العجم بها .

(ج) استنكف العرب - وهم أهل السيادة والرياسة - من ممارسة العلوم ، لأنها من أنواع الحرف والصناعات ، وتركوها للأعاجم ، ولم يجدوا في ذلك حرجا ولا نقصا ، لأن الدين الإسلامي لم جميعا ، ولأن العلوم أعجمية النسبة .

٢- ثم صادفت دعوى ابن خلدون هوى عند خصوم العرب من الغربيين ، فشهروا على العرب حملاتهم ، كما شن المتعصبون على

الإسلام هجماتهم ، فصرنا نرى العرب هدفا تارة ، وبرى الإسلام
والمسلمين هدفا تارة أخرى

والذى يعنينا فى هذا المقام تهجمهم على العرب .

فمثلا قال بروان Brawen : خذ بما يسمى عامة علوم العرب
العمل الذى أسهم به الفرس تجد أنك أخذت خير نصيب .

وقال بول دى لاجار Poul de Lagard ليس بين المسلمين الذين
حققوا شيئا فى ميدان العلم سائى واحد (١) .

وقال س الـجود C. Elgood : النحو العربى من وضع الأجانب
من الآراميين والفرس ، وقد أوجدته الحاجة التى أحس بها هؤلاء
الأجانب لتعلم كتابة اللغة العربية وقراءتها على وجه صحيح ، وعلى
الأخص غير العرب الذين ، أرادوا أن يكرسوا حياتهم للدراسات العلمية ،
وواضعو النحو العربى هم الأجانب من الجنسيات الآرامية والفارسية
الذين دخلوا الإسلام (٢) .

وزعم رينسان وأوليرى وغيرهما أن العلماء المتفوقين فى الأمة
العربية والإسلامية يرجعون إلى أصول غير عربية ، وأضافوا إلى زعمهم
هذا زعما آخر هو أن هؤلاء العلماء كانوا يرددون علوم سابة يهيم من
يونان وفرس وهنود وكلدان وآراميين ، فلم يضيفوا إلى التراث
العلمى شيئا من ابتكارهم .

(١) تراث فارس ٣٧٧ (العلم فى فارس . الفصل الذى كتبه C. Elgood ترجمة
الدكتور محمد كفاى وزملائه) .
(٢) المرجع السابق ٣٧٠ .
(٣) الخسارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالوثرات الأجنبية ٩٠ فون كريم ترجمة الدكتور
مصطفى بدر .

(٢) مناقشة الدعوى

أرأيت إلى الباحث المفرض كيف يتخذ من بعض الحق دليله على صواب الرأي كله ، فيعممه تعميما ، فيشجاني الصواب ، ويغبط الناس حقوقهم ؟

هكذا كان ابن خلدون ومن شابهه من المستشرقين وغير المستشرقين اللين جحنوا فضل العرب ، وتنكروا لأثارهم العلمية ، ووضعوا الإكليل على رموس العجم والفرس بخاصة .
فلنأخذ في تفنيدهم دعاواهم وتقويض مزاعمهم ، حتى يتكشف بطلانها .

١- لسنا ننكر أن كثيرا من العلماء الكبار يرجعون إلى أصل فارسي أو غير فارسي ، ولكن لا يصح أن نندى أنهم قد انحدروا من أصل استعرب منذ زمن بعيد ، واصطنع اللغة العربية لغة علمية وأدبية ورسمية له ، بل لغة يومية يمارس بها شؤونه ، حتى إن أكثرهم لم يكن يعرف سواها ، وهؤلاء العلماء درسوا العلوم العربية والإسلامية باللسان العربي ، إذ كان الإسلام دينهم وينبوع ثقافتهم ، وكانت اللغة العربية لغتهم التي ألفوا بها كتبهم ورسائلهم ، بل إن أكثرهم كانوا يجهلون لغات آباؤهم الأولين ، ولهذا خلفوا تراثهم العلمي باللغة العربية وحدها كالقارابي وابن سينا والرازي والخوارزمي والبيروني وابن رشد وغيرهم .

فللقارابي - وهو تركي الأصل - نحو مئة رسالة وكتاب كلها باللغة العربية .

ولابن سينا - وهو فارسي الأصل - نحو مئتين وثمانين رسالة .
وكتابا باللغة العربية ، ماعدا بضع رسائل بالفارسية .

وللرازي - وهو من أصل فارسي - مئة وثلاثة عشر كتابا ورسالة
كلها بالعربية ، وكتب ابن رشد - وهو فارسي الأصل - كلها باللغة
العربية ، وهكذا .

فهم إذن عرب بلغتهم وثقافتهم ومؤلفاتهم .

والذي يقرأ كتبهم يجدهم قد امتزجوا باللغة العربية امتزاجا ،
ويشعر بإعزازهم لها ، وحلبهم عليها ، وفخارهم بها ، ويجد كثيرا منهم
يتحصبون لها ، ويرفعونها مكانا عليا ، إذ كانت لغة القرآن الكريم
والحديث الشريف ، ولها ثراؤها وبلاغتها .

فمن الخطأ أن نعلمهم غير عرب وهم يعدون أنفسهم من العرب .
وليس من الصواب أن نلصق شخصا بأصله البعيد الذي انحدر
منه منذ عشرات السنين أو مئاتها وهو نفسه قد نسي هذا الأصل ، أو
صار يذكره على طيف من التاريخ ، وانتمى إلى جنس آخر اعتنق
دينه ، وثقف بثقافته ، واصطنع لغته للتعبير بها عن فكره ووجدانه .

ولهذا كان اليونان محقين في وصفهم من يتكلم اليونانية بأنه
يوناني مثلهم .

وقد أنكر جماعة من العرب أن يكون سلمان الفارسي وصهيب
الرومي وبلال الحبشي عربا ، لهم ما للعرب من شأن ، فغضب النبي
صلى الله عليه وسلم وقال : ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم ،
وإنما هي باللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي .

٢- وإنه ليسترعى النظر أن أكثر العلماء المنسوبين إلى الفرس قد انقطعت صلتهم بنسبهم هنا ، حتى لنجد بينهم وبين الفرس عددا من الأجداد قد تسجله تراجمهم ، وقد تختصر فتقف عند حد معين ، وهم مع عروبتهم ديناً ولغة وثقافة متأثرون بالمجتمع العربي الإسلامي إلى أبعد حد ، ولولا الإسلام والحرية التي نعموا بها في ظلاله ، ولولا التشجيع الذي حفز به الحكام المسلمون نشاطهم وعزائمهم ما أنتجوا هذا الإنتاج الذي رفع من أقدارهم .

ولنضرب أمثلة هؤلاء العلماء والأدباء :

فيديع الزمان الهمداني صاحب المقامات المعروفة (توفي سنة ٣١٨ هـ)
اسمه : أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد (١) .

والبيهقي اللغوي المقرئ النحوي (٥٤٤ هـ) اسمه : أحمد بن علي
ابن أبي جعفر محمد بن أبي صالح البيهقي (٢) .

والميداني مؤلف مجمع الأمثال وغيره في اللغة والنحو والأدب
(٥١٨ هـ) اسمه : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني
النيسابوري (٣) .

وابن خالويه النحوي اللغوي (٣٧٠ هـ) اسمه : الحسين بن أحمد
ابن حمدان بن خالويه (٤) .

والكسائي النحوي اللغوي المقرئ (١٨٢ هـ تقريباً) اسمه : ابوالحسن

(١) مجمع الأدباء ١٦١/٢ .

(٢) المجمع ٤٠/٤ .

(٣) المجمع ٤٥/٥ .

(٤) المجمع ٢٠٠/٩ .

علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان ، ينتهي نسبه إلى يهمن بن فيروز (١) .
والجرجاني مؤلف الوساطة وأستاذ عبد القاهر الجرجاني (٣٩٢)
اسمه : علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسحاق (٢) .

وسيوية اسمه : عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن
كعب ثم مولى آل الربيع بن زياد الحارثي ، أصله من البيضاء من
فارس ، ومنشؤه بالبصرة (حوالي ١٦١ أو ١٨٠) (٣) .

والطبري المؤرخ المفسر المحدث الفقيه (٣١٠) اسمه : محمد
ابن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (٤) .

والفراه اللغوي النحوي اسمه : يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور
ابن مروان الأسلمي الديلمي الكوفي مولى بني أسد (٢٠٧) (٥) .

وابن فارس الراوية اللغوي المشهور (٣٦٩) اسمه : أبو الحسن
أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب (٦) .

٣- وجدير بنا أن نتنبه إلى أن كثيرا من العلماء عرب خلّص ،
ولكنهم نسبوا إلى بلدان أعجمية ، فظن بعض الدارسين أنهم عجم .
من هؤلاء مسلم بن الحجاج النيسابوري ، فهو عربي من قُشَيْر ،
لكن أهله كانوا يقيمون بنيسابور فنسب إليها .

(١) المعجم ١٦٧/١٣ ووفيات الأعيان ٤٥٧/٢ .

(٢) المعجم ١٤/١٤ .

(٣) المعجم ١٦/١٤ .

(٤) المعجم ٤٠/١٨ .

(٥) المعجم ٩/٢٠ .

(٦) المعجم ٨٠/٤ ووفيات الأعيان ١٠٠/١ .

ومنهم أبو الفرج الأصفهاني ، فهو عربي من بني أمية ، لكنه ولد في أصفهان فنسبوه إليها .

ومنهم أبو داود السجستاني مؤلف السنن ، فهو عربي من الأزد . منسوب إلى سجستان .

ومنهم الأبيوردي الشاعر المؤلف أبو المظفر محمد بن أبي العباس ، فهو عربي ينتسب إلى عبد مناف .

ومنهم الطوسي الذي روى عنه أبو الفرج الأصفهاني ، وأبو عبيد الله المرزباني ، فهو أبو عبد الله أحمد بن سليمان بن داود . . . بن سنان . ابن حكيم .

ومنهم التبريزي اللغوي النحوي الأديب المؤلف ، فهو أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن موسى بن بسطام الشيباني (١) .

ومنهم أبو حامد المزورودي - نسبة إلى مرووذ - أحمد بن بشر العامري ، عربي من بني عامر ، وهو فقيه شافعي صنف الجامع في المذهب ، وشرح مختصر المزني ، وصنف في أصول الفقه ، وكان إماما لايشق خياره نزل البصرة ، ودرس بها ، وأخذ عنه فقهاؤها ، وقد وصفه أبو حيان التوحيدى بأنه بحر يتدفق بالسير والأخبار واستنباط المعاني والثبات على الجدل والصبر في الخصام ، وقال إنه أنبل من شاهده في عمرى (٢) .

وقد يلقب العالم العربي بلقب يوهم أنه أعجمي ، مثل إبراهيم

(١) وفيات الأعيان ومعجم الأدباء عند هذه الأعلام .

(٢) البصائر والنخائر لأبي حيان ١٥٠/٢ ووفيات الأعيان ٥٢/١ .

ابن محمد بن عرفة العتكي الأزدي ، فقد لقب بِسِقَطَوِيَّةٍ عَلَى مِثَالِ
سَيُوبِيَّةٍ ، تَشْبِيهَا لَهُ بِالنَّفْطِ ، لِنَمَاتِهِ وَأَدَمَّتِهِ (١)
وهكذا تتكرر الأمثال .

٤- والعجب من ابن خلدون إذ قرر أن العربي من العلماء عجمي في
لغته ومرباه وأساتلته ، لأنه تناسى أن البيئة لم تكن عربية خالصة
ولا عجمية خالصة ، بل كانت - في فارس خاصة - مزيجاً من هذه
وتلك في كثير من مظاهر الحياة . -

ولقد جانب الصواب في دعواه أن العلماء العرب كانوا عجماً في
لغتهم ، لأن أكثرهم لم يكن يعرف غير العربية .

على أنه ناقض نفسه في قوله إن سيويته والفارسي والزجاج عجم في
أنسابهم ، وإنما ربوا في اللسان العربي ، فاشتبهوا بالمربي ومخالطة
العرب ، وصيروهم قوانين وفناً لمن بعدهم .

فهو يرى البيئة هنا متأثرة بالعرب ، ويراهم من قبل عجمية اللغة
والمظاهر والأساتلة .

٥- وقد نوافقه على بعض تعليقه لكثرة العلماء من العجم ، ولكننا
نخالقه في دعواه أن العرب أنفوا - لأنهم سادة - من الاشتغال بالعلم ،
وتخلوا عن ميادينهم للعجم .

ذلك أن للعرب في تاريخ العلوم مجداً متألّفاً لا يخبئ ، فقد حكفوا
على العلم منذ شرح الله صدورهم للإسلام ، ووجدوا في طلب العلم عبادة
واستجابة لدعوة دينهم ، وكانوا بطبيعتهم متأهبين للتحضر والترقى .

فأقبلوا على مناهل العلم إقبالا ، وشجعوا العلماء والأدباء تشجيعا جديرا بالثناء ، ولهذا كانت ثقافتهم في العصر الأموي — قبل أن ينقلوا عن الفرس واليونان والهنود شيئا ذا قيمة — متعددة الألوان وكان علماءهم يعمرون الأمصار .

ولم يأنف العرب أن يتلقوا الثقافة منذ العصر الأموي على بعض اليهود والنصارى ، ولا على بعض الموالى مثل الحسن البصرى وسعيد بن جبير وابن جريج وابن سيرين وعطاء بن يسار . ثم إن بعض الخلفاء والأمراء كانوا في العصر الأموي والعباسي يباهون بعلمهم ، وكانوا يقربون العلماء إليهم ، ويغلقون عليهم ، ويرفعونهم مكانا عليا ، فضربوا بهذا أروع مثل في الشغف بالمعرفة وتقدير رجالها .

(٤) نتائج المناقشة

إنصاف العرب

لعله قد استبان من مناقشة قضية العلوم بين العرب والفرس هذه

الحقائق :

الحقيقة الأولى :

أن ابن خلدون لم يكن دقيقا في حكمه وفي تعميمه .

وليس يعنينا الدافع إل هذا الحكم ، أهو التعجل ؟ أم نقص الاستقراء ؟ أم التأثير برأى سابق أم التعصب على العرب لأسباب معاصرة ؟ أم أنه كان يقصد الأعراب ؟ .

نلاحظ أن الحديث النبوي الذي ذكره وهو : « لو تعلق العلم

بأكتاف السماء لناله قوم من أهل فارس ، من الأحاديث التي وضعها
الشعوبيون ، ووضع العرب نقائص لها ، فمنذ اشتعلت العصبية بين
العرب والعجم في العصر العباسي ألف الفرس كتباً شتى في الانتصار
لأنفسهم ، بعضها للإشادة بمناقبهم وبمناقب العجم عامة (١) ، وبعضها في
الانتقاص من قدر العرب والتشجيع بمثالبهم ، وهذه الكتب كثيرة ،
منها : كتاب نصوص العرب وكتاب مثالب العرب لأبي عبيدة معمر
ابن المثني (٢) .

ومن المبالغة في العدوان أن ينقل أحد الشعوبيين التهجم الحسانق
على العرب وعلى الإسلام إلى ملك الروم . وذلك أن يونس محمّد
ابن كيسان (حوالي سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م) ألف كتاباً في مثالب العرب
وعيوب الإسلام - كما زعم - وصار به إلى ملك الروم ، فأعطاه مالا .
وقد اشتهر يونس هذا بابن أبي فروة ، وهو لقب كان يطلق على
جده كيسان الذي كان كاتباً للخليفة عثمان بن عفان .

وكان يونس ندماً لجماعة من الزنادقة ، يجتمعون على الشراب
وقول الشعر وهجاء بعضهم بعضاً هزلاً تارة وصدماً تارة ، منهم والية
ابن الحجاب ومطيع بن إياس وعبد الله بن المقفع (٣) .

ثم إن بعضهم حاربوا العرب بسلاح آخر أشد خفاءً ، وأسرع

(١) النهري لابن التميمي ٤٢ ، ٥٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ،

الخ .

(٢) مسبق الأدباء ١٩ / ١٦٢ .

(٣) الحيوان لمجاهد ٤ / ٤٤٦ ، ٤٤٨ والأغاني ١٦ / ١٤٣ ولسان الميزان ٢ / ٣٥٣

و ٣٣٤ / ٦ و أمالي المرتضى ١ / ١٣٢ والأعلام للزركلي ٩ / ٣٤٧ .

وبعض المراجع تذكر أنه ابن أبي فروة وبعضها تذكر أنه ابن فروة ، وأرجح الأول ،

لأن حمادا هجاء فقال : أما ابن فروة يونس فحذف كلمة (أبي) لوزن

تصديقنا ورواجا ، لأن الذي يقرأ كتابا في مفاخر العجم أو في متالب العرب يتراءى له شك فيها يقرأ ، وكثيرا ما يعرضه على مقاييس العقل والخبرة والثقافة فيرفضه رفضا ، ولهذا عمد بعض الشعوبية إلى طريقة لا يعترضها شك أو رفض ، هي أنهم اختلقوا أخبارا وأقاويص تنتقص من أقدار العرب ، فسروا بها بعض الأمثال ، وشرحوا بها بعض الشعر ، وأطالوا بها الأخبار .

وكذلك فعلوا في الحديث الشريف ، فوضعوا من الأحاديث ما يعلى إ قدرهم (١) ، كزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم (٢) » فقيل : من يستبدل بنا ؟ فضرب على منكب سلمان الفارسي ، وقال : « هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لثاله رجال من فارس » .

وكزعمهم أن العجم ذُكرت عند رسول الله فقال : « لانا بهم أوثق منى بكم » .

وزعمهم أن رسول الله قال : « سيأتى ملك من ملوك العجم ، فيظهر على المدائن كلها إلا دمشق » .

وزعمهم أنه قال : « لا تسبوا فارسا ، فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلا أو آجلا » .

ومن العجيب أنهم ادعوا أن رسول الله أخبر بظهور أجز حنيفة ،

(١) العقد الفريد ٢/٥٥ .

(٢) سورة محمد ٣٨ .

وافتحخر به ، فقال : « إن آدم افتخر بي ، وأنا افتخر برجل من أمتي
اسمه نَعْمَان ، وكنيته أبو حنيفة ، هو سراج أمتي » .

ولقد قابل العرب هذا السلاح بمثله ، فاخترعوا أحاديث نسبوها
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تختصهم بالتفوق والتكريم ، منها :
« من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ، ولم تنله مودتي » ، ومنها :
« إذا اختلف الناس فالحق في مضر » ، ومنها : « أحبوا العرب للثلاث
لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي » .

الحقيقة الثانية

أما الحقيقة الثانية فهي أن العرب ساهموا في الإنتاج الفكري
بنصيب عظيم ، وشاركوا في النهضة العلمية والتطور الثقافي بمئات
الكتب التي ألفوها ، وبكثير من التجارب العلمية التي أجروها ، فليس
من الصواب في شيء ما زعمه (براون) من أن الفرس وحدهم ساهموا بخير
نصيب في الثقافة العربية ، وليس من الحق ما ذهب إليه (فون كريمر)
في دعواه أن الفرس والآراميين هم اللذين وضعوا النحو العربي .

وإذا كان تاريخ العلوم ينقض ما ادعاه براون وفون كريمر فإنه
ينقض أيضا ما زعمه (دي لاجارد) أنه ليس بين المسلمين اللذين
حققوا شيئا في ميدان العلم سمي واحد ، لأن هذه دعوى جنسية متجنسية
مبعثها التعصب المقيت .

ومن السهل على الباحث المنصف أن يستبين أن العرب وضعوا بعض
العلوم ، وألّفوا فيها قبل أن يتصلوا بالعجم ، ثم ساهموا بنصيب عظيم
مشكور في النهضة العلمية بعد اتصالهم بالفرس واليونان والهنود
وغيرهم .

١- ففي العلوم الشرعية كان مالك بن أنس أول من ألف في الفقه الإسلامي ، وكان الشافعي أول من وضع علم الأصول ، حتى يقال إن نسبه إليه كنسبة المنطق إلى أرسطو ونسبة العروض إلى الخليل .

ولا يصح أن ننسى أن الأئمة الثلاثة - مالكا والشافعي وأحمد ابن حنبل عرب خلص .

وإذا كان أبو حنيفة فارسي الأصل فإنه تلقى أكثر علمه على عرب ، أحدهم حماد بن أبي سليمان الأشعري - نسبة إلى قبيلة أشعر اليمانية - فقيه الكوفة ، وكان أبو حنيفة يدين له بالفضل ، ويدعو له بعد موته ، حتى لقد قال : ماصليت قط إلا دعوت لشيخى حماد :

والثاني إبراهيم النخعي ، فقد تأثر أبو حنيفة بآرائه حتى ذهب بعض الباحثين إلى أنه يطبق مذهب النخعي ، ويصرح على أصوله .

كذلك درس أبو حنيفة على زيد بن علي زين العابدين ، وعلى محمد الباقر زين العابدين ، وعلى جعفر الصادق ، وعلى عبدالله بن الحسن ابن الحسن ، وعلى جابر بن يزيد ، وعلى عامر الشعبي ، وهؤلاء كلهم عرب .

على أن حمادا أستاذ أبي حنيفة تلقى على عربيين يمينيين هما إبراهيم النخعي وعامر الشعبي ، وتلقى هذان على عرب هم : شريح ابن الحارث الكندي ، وعلقمة بن قيس النخعي ، والأسود بن يزيد النخعي ، ومسروق بن الأجدع الهمداني ، وهؤلاء الأربعة أخذوا عن علي ابن أبي طالب وعن عبدالله بن مسعود .

ولابد أن نلاحظ أن أشهر تلاميذ الإمام أبي حنيفة ثلاثة هم :

أبو يوسف ومحمد وزُفر ، أما أبو يوسف وزُفر فهما عربيان ، وأما محمد
ابن الحسن الشيباني فهو من الموالي ، ونسبته إلى شيبان بالولاء .
وإذن فقد تبين أن ثلاثة من أصحاب المذاهب الأربعة عرب
خُلص ، وأن أكثر أساتذة أبي حنيفة عرب ، وأن اثنين من تلاميذه
الثلاثة الكبار عربيان ، كما اتضح أن كثيرا من علماء التشريع عرب
خُلص .

ومن مفاجأة الحق أن يتناسى باحث في هذا المجال كثيرا من علماء
التفسير والحديث ورواد التشريع ، مثل عبد الله بن عباس وعلى بن
أبي طالب ومعاذ بن جبل وسعيد بن المسيب والأوزاعي وأبي اللؤلؤة
وعروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وإياس بن معاوية .
فإذا نظرنا إلى مراحل تدوين الحديث النبوي رأينا عبد الله
ابن عمرو بن العاص يلدن ماسمع من رسول الله ، وقد حدث مجاهد
أنه رأى عند عبد الله صحيفة ، فسأله عنها ، فقال له : هذه الصادقة ،
فهيها ماسمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها
أحد (١) .

ثم دون محمد بن مسلم الزهري الحديث الصحيح بأمر من الخليفة
عمر بن عبد العزيز ، وتشابع المحدثون بعد ذلك ، إلى أن ظهرت طبقة
الإمام مالك والأوزاعي والثوري وأحمد بن حنبل وكلهم عرب .

٢- وأما العلوم اللغوية فلإننا لاننكر أن كثيرا من أبناء الفرس
برعوا فيها ، مثل سيبويه والكسائي والقرائ وأبي علي الفارسي والزرجاج

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٨٩/٧ وقد قرأت منذ سنوات بعد الطبعة الأولى لهذا
الكتاب أنهم عثروا على الصحيفة بالهند وطبعوها .

وابن جنى وابن فارس والجوهري ، ولهم مؤلفات شتى وآثار عظيمة .
ولكن لا يصح أن نتغاضى عن جهود العرب ومؤلفاتهم ، قبل أن
يتصلوا بالفرس وغيرهم اتصال ثقافة ونقل .

فقد وضع أبو الأسود الدؤلى (المتوفى سنة ٦٩ هـ) أول لبنة في
صرح النحو العربى في عهد على بن أبى طالب (١) .

ثم جاء بعده الخليل بن أحمد الفراهيدى العربى الصميم فأكمل
النحو ، وشيد صرحه ، وتركه ليظهره بعده للناس تلميذه سيوبه (٢) .
ونحاة العرب كثير ، منهم الخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء
والمازنى وابن دُرَيْدٍ والأزهري والمبرد والنضر بن شميل والضبي وابن
الأنبارى .

ومن مفاخر الخليل بن أحمد أنه أول من وضع معجما للكلمات
العربية سماه العين ، وأنه أول من استنبط بحور الشعر العربى ،
وحصرها في ستة عشر .

٣- وإذا كان من أبناء الفرس من برعوا في رواية اللغة والشعر
والدراسة الأدبية كابى عبيدة معمر بن المثنى وحماد الراوية وخلف
الأحمر وأبى عمر الشيبانى والتبريزى وعبد القاهر الجرجالى ، فقد
برع فيها كثير من العرب ، مثل قتادة بن دعامة ، وهو من رواة
العصر الأموى ، قالوا عنه : لم يأتنا شيء من علم العرب أصبح مما أتى
به قتادة .

ومثل أبى عمرو بن العلاء أعلم الناس بالقراءات وبالعربية وبأيام

(١) وفيات الأعيان ٢/٢١٦ والأغاني ١٢/٢٩٧ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٤ .

العرب وأشعارهم ، وكان قد دون عن فصحاء العرب كتب ملأت
حجرة إلى ما يقرب من سقفها ، فلما تنسك أحرقها كلها ، فلما رجع
إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه عقله .

ومنهم الأصمعي وأبو زيد الأنصاري والمفضل القسبي ومحمد بن
سلام الجمحي والجاحظ والمبرد وأبو حيان التوحيدي وأبو الفرج
الأصمغاني .

٤- ولقد يمثلون مؤرخين من أبناء الفرس كالطبري وابن مسكويه
والبلاذري وابن خلكان .

ولسنا نجحد فضل هؤلاء العلماء وأشباههم ، ولكننا لا ننسى أن
كثيرا من المدونين الأولين للسيرة النبوية عرب ، مثل أبان بن عثمان
وابن عفان وعروة بن الزبير بن العوام وشرحبيل بن سعد وعبد الله بن
البكر بن حزم وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن شهاب والزهري
وابن هشام .

ولا ننسى أيضا أن كثيرا من اللين سبقوا إلى تدوين التاريخ
الإسلامي عرب ، منهم أبو مخنف لوط بن يحيى وسيف بن عمر والزبير
بن بكار والهيثم بن عدي ، وللهيثم هذا فضل سبق إلى ترتيب الحوادث
حسب السنين ، وقد استقى الطبري من كتب هؤلاء ، واعتمد عليها .

كذلك اشتهر من مدوني الأنساب عرب مثل محمد بن السائب
الكلبي وابنه هشام وأبي اليقظان النسابة .

أما المؤرخون العرب بعد هؤلاء فهم كثير ، منهم المسعودي وأبو
الفرج الأصمغاني وعبد الرحمن بن خلدون .

٥ — وكذلك العلماء شارك العرب مشاركة عظيمة القيمة في البحوث الفلكية والجغرافية وارتياح البحار .

ومن واجب الشريف الإدريسي علينا أن نذكره في هذا المقام ، فإنه ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، وقد ولد بمدينة سبتة سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ودرس في جامعة قرطبة ، ثم جاب شمالي إفريقيا وآسيا الصغرى وغيرهما ، وذاع صيته ، فاستدعاه روجر الثاني ملك صقلية وجنوبي إيطاليا ، وكان قد زامله في الدراسة ، وكان بلاط الملك شرق السمات عربى الثقافة ، فلبى طلبه ، وألف له كتابه القيم (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ورسم صور الأقاليم على نضد أو على كرة من الفضة الخالصة عظيمة الحجم .

وكتابه هذا أوسع كتاب جغرافى إلى عصره ، ولهذا اهتم العالم به ، فعنت كل أمة بما كتبه الإدريسي عنها ، فترجم إلى اللاتينية في آخر القرن السابع عشر ، وطبع منه القسم المختص بإسبانيا مع ترجمته الإسبانية سنة ١٧٩٩ م ، وطبع منه وصف الشام وفلسطين في ليبسك سنة ١٨٢٨ م ، وطبع قسم منه في ليدن سنة ١٨٦٤ ، ومنه نسخة مخطوطة كاملة ببعض مكتبات أوروبا ، وفي دار الكتب بالقاهرة نسخة مصورة .

وحسبه هذه الشهادة التى تشيد بفضله : « ومن كتب الإدريسي التى ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوروبا الجغرافية فى القرون الوسطى » (١) . ويقتضينا الإنصاف أن نذكر شهاب الدين أحمد بن ماجد بن

(١) حضارة العرب ٥٦٨ جوستاف لوبون .

محمد السعدى بن أبى الركايب النجدى الذى كان يلقب فى القرن الخامس عشر الميلادى بأسد البحر ، وهو من أسرة عربية عريقة فى الملاحة ، فقد كان أبوه وجده ملاحين مشهورين ، ولهما رسالة فى الملاحة فى البحر الأحمر .

وقد كتب عنه العلامة جبريل فراند Ferrand بحثاً مستفيضاً فى دائرة المعارف الإسلامية ، أكد فيه أن ابن ماجد كان المرشد لفا سكودى جاما فى رحلته إلى الهند سنة ١٤٩٨ م وفى الكشف عن الطريق إليها .

على أن ابن ماجد خُلف مؤلفات نثرية وشعرية فى الملاحة جديدة بالتقدير ، نشرها جبريل فراند ، منها كتاب (الفوائد فى أصول البحر والقواعد) سنة ١٩٢١ - ١٩٢٣ فى مئة صفحة وإحدى وثمانين ، يتضمن ما يحتاج إليه الملاحون من معرفة منازل الأبراج والرياح ومنازل القمر الثمانية والعشرين ، ومعرفة الجهات وأصول الملاحة عامة .

وبهذا الكتاب أرجوزة فى نحو ألف بيت ، تتناول أحد عشر بحثاً ، وأرجوزة ثانية فى مئتي بيت ، وأرجوزة ثالثة فى خمس مئة بيت .

ثم نشر فراند سنة ١٩٢٥ م ثلاث قصائد فى الملاحة لابن ماجد . وقال إن وصف ابن ماجد لبحر القلزم (البحر الأحمر) لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف ، وأن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح المحلية وعن الطرق المؤدية إلى عبور المحيط الهندى ، كلها بلغت من التفصيل والدقة إلى الحد الذى لم يكن متوقفاً من ملاحى ذلك العصر .

وذكر أن ربابنة السفن في الهند والجزر القريبة منها كانوا إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يفارقون كتاب ابن ماجد .

٦- وإذا كان بعض المعجم قد تفوقوا في الفلسفة وعلم الكلام ، مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبَّيد وأبي الهذيل والعلَّاف والنظام والقارابي والرازي وابن سينا وابن رشد ، فإننا لا نمارى في ذلك ، بل نعز به .

ولكننا نجد في العرب المخلص أندادا لهم ، منهم بشر بن المتعمر والجاحظ وثمَّامة بن الأشرس النميمي وجعفر بن مَبَشَّر الثقفي وجعفر ابن حرب الهمداني وأحمد بن أبي دُواد والشريف المرتضى والأشعري وأبو حيان التوحيدى وابن خلدون .

وجدير بنا في هذا المقام أن نذكر يعقوب بن إسحاق الكندي (١٨٥ - ٢٥٢ هـ) ، فقد برع في الطب والحساب والهندسة والمنطق والفلسفة والفلك والموسيقى ، وألف في هذه العلوم أكثر من مئتين وأربعين كتابا ورسالة (١) ، منها اثنان وعشرون في الفلسفة ، وثمانية في المنطق ، وخمسة في التقسيمات ، وسبعة عشر في الجدليات ، وعشرة في الأحكاميات ، واثنان عشرة في السياسة ، وسبعة في الموسيقى ، وتسعة عشر في النجوميات .

٧- أما علم الاجتماع فإنه من مفاخر العرب ، وحسبنا أن نمثل في هذا الصدد بابن خلدون ، فهو عربي ينمى إلى وائل بن حُجر ، عاش في الأندلس وشمال إفريقيا ومصر والشام فيما بين سنة ٧٣٢ هـ

(١) طبقات الأطباء ٢٥٦ لابن أبي أصيبعة وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ٢٤٠ قفقل .

(١٣٣٢ م) سنة ١٨٩٨ هـ (١٤٠٦ م) ، وهو المنشور الأول لعلم الاجتماع ، وإمام في فلسفة التاريخ ، ورائد مجدد في علم التاريخ وفي الترجمة الذاتية لنفسه .

وليس الفضل في إنشاء علم الاجتماع راجعا إلى فيكو Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤ م) كما زعم الإيطاليون ، ولا إلى كتليه Quetelet (١٧٩٦ - ١٨٧٤ م) كما ادعى البلجيكيون ، ولا إلى أوجست كونت August Conte (١٧٩٨ - ١٨٥٧ م) كما قال الفرنسيون ، بل يرجع إلى ابن خلدون الذي ظهر قبل هؤلاء جميعا بنحو أربعة قرون ، فأقام هذا العلم على دعائم وطيدة ، وسار فيه على صراط واضح مسقيم ، واستوعب مسائله ، ووصل في تنظيم دراساته والكشف عن حقائقه إلى شأو رفيع لم يصل إلى مثله واحد من هؤلاء .

ولسنا وحدنا الذين نجهر بهذا الرأي ، فقد جهر به كثير من المنصفين من علماء الاجتماع المحنثين .

من هؤلاء العلماء لودفيج جميلوفتشن ، والعلامة كولوزيو ، والعلامة فارد ، والعلامة شميث الذي قال في كتابه (ابن خلدون عالم الاجتماع والمؤرخ والفيلسوف) سنة ١٩٣٠ : إن ابن خلدون قد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها أوجست كونت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولو أن المفكرين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون ، واستعانوا بالحقائق التي كشف عنها المناهج التي أحدثها ذلك العبقري العربي قبلهم بمدة طويلة ، لو أنهم فعلوا ذلك لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم

الجليد بسرعة أعظم كثيرا مما تقدموا به (١) .

٨- فإذا ما انتقلنا إلى علم الكيمياء وجلنا العرب المخلص قد ساهموا فيه بنصيب كبير محمود .

ومن الذى يستطيع أن يتغاضى عن جابر بن حيان ؟

إنه عربى صميم ينتمى إلى الأزدي ، و كان له معمل فى بغداد يجرى فيه تجاربه وبحوثه ، وكان هارون الرشيد والبرامكة يجلسونه ، وله مؤلفات كثيرة فى الكيمياء والطب والتاريخ الطبيعى ، تبلغ نحو مئتين كما ذكر ابن النديم ، ترجم عدد كبير منها إلى بعض اللغات الأوروبية ، وله بحوث قيمة فى التكليل وفى إرجاع المعدن إلى أصله بالأوكسجين ، وفى تحسين طرق التبخير والتصعيد والصهر والتبلور . وقد ترجم عدد من كتبه الكثيرة إلى اللغة اللاتينية سنة ١٦٧٢ م ، فدل هذا على دوام نفوذه العلمى مدة طويلة فى أوروبا .

وتشتمل كتبه على وصف كثير من المركبات الكيمائية التى لم تذكر قبله ، كما فى الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب اللين لا يتصور علم الكيمياء بغيرهما ، والبوناس وملح النشادر وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليمانى والراسب الأحمر ... (٢) .

وما زالت صورته بمكتبة آل مديسى بفلورنسا يشع منها نور الحكمة ، وقد نقلها العلامة هو ليارد الأستاذ بكلية كلفتون بانجلترا فى كتابه (مشاهير الكيمائيين) .

٩- وبأبى تاريخ الطب عند العرب إلا أن يستعان ، ويكفى فى

(١) مقعة ابن خلدون ٢٨٥ الدكتور عل عبد الواحد واق .

(٢) حفاوة العرب ٥٧٢ جوستاف لويون .

هذا المقام أن نشير إلى بني زُهر الذين نشأوا بالأندلس منذ بداية القرن العاشر إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، وهم عرب خلص ، هاجر آباؤهم من جزيرة العرب ، واستقروا في الأندلس .

ومن هذه الأسرة أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زُهر ، الذي درس الطب على أبيه ، وتفوق في تجاربه المبتكرة في الأدوية ، وكان ابن رشد صديقا له ، وكان يعده أعظم الأطباء منذ جالينوس ، وله مصنفات كثيرة وإضافات جديدة إلى الطب ، كوصفه للأورام الحيزومية وخراج التامور وهي أمراض لم توصف من قبله ، ولم يكن يجهل التغليفية الصناعية ، سواء أكانت عن طريق الحلقوم أم عن طريق الشرج ، وقد شرح طريقتهما بمهارة فائقة (١) .

وفي تاريخ الطب عند العرب كثير من أمثال ابن زُهر ، مثل محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي الذي برع في الصيدلة وتركيب الأدوية وأكمل (الترياق الفاروق) بالمفردات التي زادها وعليه ، وله في الترياق عدة مؤلفات مابين كبير ومتوسط وصغير ، وكان مختصا بالحسن بن عبيد الله بن طُفَّج المستول على مدينة الرملة ، وكان الحسن مغرما به وبدوائه ، وقد عمل له عدة معجونات طبية واقية من الأوبئة ، ثم أدرك الدولة الفاطمية عند دخولها مصر ، وصحب الوزير يعقوب بن كُلس وزير المعز والعزیز ، وصنف له كتابا كبيرا في عدة مجلدات سماه (مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء) وكان بمصر حوالي سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) (٢) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٨٣ .

(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٤٧ للقفطي .

وما من شك في أن إنصاف العرب علميا يقتضي لنا أن نفاخر
بابن النفيس وهو علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الحزم القرشي
(علي وزن البكري) .

فهو أول من كشف عن الدورة الدموية الصغرى ، فسبق هارفي ،
بأربعة قرون ، وأول من فرق بين الأوردة والشرايين ، وأول من
وصف جدار القلب ، وعرف الدورة التاجية للقلب ، وأول من قال
إن أوردة الرئتين ليست مليئة بالهواء .

كان ابن النفيس يعمل بالقاهرة بمستشفى اللاون .

ويرجع الفضل في الكشف عنه إلى الدكتور محيي الدين التطاوي
سنة ١٩٢٤ م لأنه نشر على نسخة مخطوطة من أحد مؤلفات ابن النفيس
في مكتبة برلين فدرسها ونال بها درجة الدكتوراه من ألمانيا ، ثم نشرها
على نسخ أخرى بمكتبات باريس والأسكوريال وأكسفورد (١) .

الحقيقة الثالثة

أن العلماء الذين يمتون إلى أصل غير عربي هم عرب في الحقيقة ،
لأن أسلافهم قد استعربوا ، فصاروا عربا بلغتهم العربية التي كان
أكثرهم لا يعرف غيرها ، وصاروا عربا بثقافتهم المتعددة ، وصاروا
عربا بمؤلفاتهم العربية ، وصاروا عربا بحبهم للعربية وحماسهم لها ،
حتى إن بعضهم ألف في مفاخر العرب ، ودافع عنهم ، وانتصر لهم .
ويكفي أن نمثل لاعتزازهم باللغة العربية بقول ابن جني في مقدمة
كتابه (الخصائص) : « كتاب من أشرف ما صنّف في علم العرب ،

(١) تاريخ العلم عند الخليم متصّر ١٧٧ .

وأذهب به في طريق القياس والنظير ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته
هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ، ونيطت به من علائق
الإتقان والصنعة .

ويقول الزمخشري في مقدمة كتابه (أساس البلاغة) : « خير
منطوق به أمام كل كلام حمد الله تعالى ومدحه بما تمدح به في كتابه
الكريم وقرآنه المجيد ، وأول ما قضى به حمد الله تعالى والصلوة على
النبي العربي المستل من سلالة عدنان ، المفضل باللسان ، الذي استخزنه
الله الفصاحة والبيان ، وعلى عترته وصحابته مداره العرب وفحولها ،
وغرر بني معدّ وحجولها . »

وقد مجد الزمخشري العرب ولغتهم ، وباهى بهم وبأخلافهم ، وسخر
من الشعوبية في أبيات ، منها (١) :

وقل :

هل فشا في الأرض غير لسانهم لسانُ فشوَّ الضوء واليوم شامس ؟
على ظهرها لم يخلق الله أمة تناسيهم في خصلة أو تلابس .
أجلُّ رسولٍ فيهمُ وبلسُنهمُ أجلُّ كتابٍ فاعتبر يامنافس .
وقل للشعوبين إن حديثكم أفضاليل من شيطانكم ووساوس .

الحقيقة الرابعة

إذا كان بعض الغربيين مثل رينان وأوليري وبراون قد تعمدوا
إنكار جهود العرب العلمية وسبقهم إلى الكشف عن كثير من الحقائق
فيان بعض الغربيين المنصفين أشادوا بتفوق العرب الفكري وبعهودهم
العلمية .

(١) ديوان الزمخشري ٦١ ضلوط بدار الكتب .

فمثلا قال جوستاف لوبون : « يعجب الإنسان بالهمة التي أقدم بها العرب على البحث . وإذا كانت هنالك أمم تساوت هي والعرب في ذلك فلإنك لا تجد أمة فاقت العرب ، لأنهم كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وبناء مدرسة ، فإذا كانت تلك للمدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التي روى بنيامين التطيلي المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها في الإسكندرية ، وهذا عند اشغال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة وغيرها على جامعات محتوية على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية بكل ما يساعد على البحث العلمي . فكان للعرب في إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الخليفة الحكيم الثاني بقرطبة ست مئة ألف كتاب ، فهارسها أربعة وأربعون مجلداً وقد قيل إن شارل الحكيم لم يستطع بعد ذلك بأربع مئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسع مئة مجلد ، يكاد يختص ثلثها بعلم اللاهوت » (١) .

كذلك نوه بعقلية العرب وفضلهم كاربنسكي في قوله : « إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدورة حق قدرها من المؤرخين ، وإن البحوث الحديثة قد دلت على أننا مدينون ديناً كبيراً للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم ، حينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى ، وإن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق ، بل زادوا عليها ، وأضافوا إليها معلومات قيمة » (٢) .

(١) حضارة العرب ٥٢٦ جوستاف لوبون .

(٢) تاريخ العلم ٨٥ عبد الحليم منتصر .

وقال كاجورى : « إن العقل لينهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر ، وهم أول من أطلق لفظه جبر على العلم المعروف الآن بهذا الاسم ، وعندهم أخذ الإفرنج كلمة Algebra » (١) .

وقال فلوريان : « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكسابهم على الندرس ، وسبقهم في ترقية العلم والفن ، ولا نبأغ إذا قلنا إن أوروبا مدينة لهم بجهودهم العلمية التي كانت أكبر العوامل في نهضتها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر » (٢) .

وقال سيديو : « إن نشاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتلة أوروبا في جميع الأشياء » .

وقال سارتون : « لو لم ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون ، فقد كانوا أعظم معلمين في العالم منذ القرن الثامن حتى الثالى عشر الميلادى » (٣) .

وقال نيكلسون في كتابه تاريخ العرب الأدبى : « لا تعد مكتشفاتنا الحالية شيئا ذا قيمة إزاء الدين الذى علينا للعلماء العرب الذين كانوا منارا للمعارف في العصور الوسطى التي تكاثفت ظلماتها ، وبخاصة في أوروبا » .

وهكذا أشاد كثير من المستشرقين بذكاء العرب وتفوقهم العلمى وجهودهم في ميادين المعرفة ، ونوهوا بفضلهم على الغرب وبآثارهم في نهضته .

(١) المرجع السابق ٩٦ .

(٢) السابق ٩٨ .

(٣) السابق ٩٩ .

ولقد اتضح من هذا كله أن المسلمين من عرب ومن عجم كانوا وما زالوا يتسابقون في مجالى العلوم والآداب والفنون ، فيثرونها بإنشاجهم الرفيع ، وكانوا في تسابقهم إخوة أشقاء لا يفرق بينهم جنس ولا وطن ولا نسب ، لأنهم جميعا يستظلون براية الإسلام ، ويحتزون برفع لواء الحضارة .

التحقيب الثالث

النثر الفنى عربى النشأة

رأى بعض المستشرقين أن العرب لم يعرفوا النثر الفنى معرفة ذاتية ، وإنما نقلوا طرائفه عن الفرس واليونان كالمسيو مرسيه ، فهو يرى أن أول كاتب فى اللغة العربية ابن المقفع الفارسى الأصل ، ويذهب إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال ، ويعتل ذلك بأنهم كانوا يحيون حياة أولية بدائية ، وهى لا تقتضى نثراً فنياً ، لأن النثر الفنى لغة العقل والثقافة ، وإنما يلائمها الشعر ، لأنه لغة العاطفة والخيال (١) .

وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى أن الشعر سبق النثر الفنى ، وفصل المقال فى هذا ، وعمله فى كتابه (حافظ وشوق) (٢) وفى كتابه (من حديث الشعر والنثر) (٣) .

أما ظهور النثر الفنى عند العرب فإن الدكتور طه حسين يرى أن

(١) النثر الفنى فى القرن التاسع ٢٢/١ ، ٤٣، ٢٨

(٢) حافظ وشوق ٦٣

(٣) من حديث الشعر والنثر من ٢٢ .

أول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية ، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العربية ، وهو نشأة النشر الفني (١) ، وربما كان من الحق أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية في العصر الإسلامي في القرن الثاني للهجرة هو عبد الحميد وابن المقفع .

على أن الدكتور طه أكد أصالة النشر الفني عند العرب ، وأنهم لم يستعيروه من غيرهم .

والحق أن النشر الفني نشأ نشأة عربية خالصة كما رأى الدكتور طه حسين ، فلم يتقله العرب عن اليونان أو الروم أو الفرس أو الهند ، كما نقلوا كثيرا من العلوم والمذاهب والآراء .

لكن هذه الحقيقة قد تحتاج إلى تدليل عليها ، وإثبات لصحتها ، فينبغي أن أناقش ما ذهب إليه الأستاذ المستشرق مرسيه من جهل العرب للنشر الفني إلى أن ظهر عبد الحميد بن يحيى وعبد الله ابن المقفع .

القرآن الكريم هو المعجزة العظمى في البيان العربي ، شلّه العرب بافتنانه ، فتطامنوا لبلاغته ، سواء في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن أصر على الكفر والعدا .

أما الذين أسلموا فقد آمنوا بأن القرآن منزل على النبي من عند الله ، وأما الذين لم يسلموا فقد أيقنوا بأن القرآن طراز من البلاغة لا طاقة لهم بمثله ، لكنه من صنع النبي ، وزعموا أنه أوتي مقدره سخارفة ، فاتهموه بأنه ساحر وبأنه شاعر .

(٢) المرجع السابق ٢٨

(٢) المرجع السابق ٤٢

(١) المرجع السابق ٣٥

وإذ كان القرآن ذورة البيان العربي ، ونزل بلسان عربٍ مبين (١) كما يصفه الله تعالى ، فإن من الطبيعي أن يكون العرب قبيل الإسلام قد مارسوا النشر الفنى ممارسة أعدتهم لأن يخاطبوا بالقرآن الكريم ، فإن الله تعالى يقول : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (٢) ، ثم إن الله تعالى تحداهم في عبارات قارعة محرجة أن يأتوا بسورة من مثله فحجزوا ، ولو لم يكن القرآن من جنس بيانهم الذى عرفوه وألفوه ماتحداهم هذا التحدى ، وما سجل عليهم عجزهم بعد طول الإمهال : « قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٣) .

لكننا بحاجة إلى نصوص نظمتن إليها في معرفة العرب للنشر الفنى قبل الإسلام ، لأن الشك يخامر ماروى عنهم من خطب ووصايا ورسائل ، وفقدان هذه النصوص التى نظمتن إلى صحتها ليس دليلاً على جهالة العرب بالنشر الفنى .

— ٢ —

العرب قوم ذوو لسن وبلاغة ، يحبون البيان والطلاقة والتجوير والرشاقة ، ويأمرون بالتبيين والتثبت والتحرر من زلل الكلام ومن زلل الرأى (٤) .

ولقد وصفهم القرآن الكريم بذلك ، قال تعالى : « ولتعرفنهم

(١) سورة الشعراء ١٩٢ .

(٢) سورة إبراهيم ٤ .

(٣) سورة الإسراء ٨٨ .

(٤) البيان والتبيين ١ - ١٩١ و ١٩٧ .

في لَحْنِ الْقَوْلِ « (١) وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة ، الدنيا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم لما سمع بعضهم يتكلم مادحاً ثم قادحاً ومعللاً لمُدحه وقدحه : إن من البيان لسحرا (٣) .

لهذا كانت معجزة النبي من جنس ما تميزوا به ، من بلاغة المنطق ، وروعة التعبير ، وساحر البيان .

— ٣ —

وقد كان للعرب في جاهليتهم أمثال كثيرة ، وسلم بعضها من النسيان والإغفال ، وبقى إلى أن دون ، وربما كان أقدم مصدر لهذه الأمثال نعرفه اليوم كتاب الفناخر لأبي طالب المفضل بن سلمة المتوفى سنة ٢٩١ هـ . ولنا نرتاب في نسبة هذه الأمثال إلى العصر الجاهلي ، كما نرتاب في الخطب ، لأن في طبيعة الأمثال ما يكفل بقاءها زمنا طويلا ، فعباراتها قصار يسهل حفظها وبقاؤها وتداولها ، والناس كلفون بترديدها والاستشهاد بها ، لأنها تمثل تجارب الماضين وآراءهم وأحكامهم ، ولأنها مرتبطة بأحداث سابقة كثيرا ما يشهدون لها نظائر ، فسرعان ما يستحضرون التعبير السابق ويرددونه في الحدث الحاضر ، ثم إننا تصور ألواناً من أخلاق البشر وطباعهم كانت صادقة في تصويرها حينما قيلت ، وما تزال صادقة في تصويرها حينما يتمثل بها مردودها .

ولكن ماعلاقة الأمثال بالنثر الفني ؟

في كثير من هذه الأمثال صفات ترتفع بها عن اللغة المألوفة في الحياة المعتادة إلى لغة فيها براعة واقتنان .

(٣) البيان والتبيين ١/٥٣

(٢) سورة البقرة ٢٠٤ .

(١) سورة عم ٣

فهى مرسلة فى تعبير مختار المفردات ، محكم الصياغة ، وفى بعضها عناية بالجرس والتوازن والإيقاع ، لهذا نجد فيها سجعاً وتماثلاً فى عدد الكلمات ، مثل (رب عجلة تَهَبُ رَيْثًا ، ورب فروقه يُدْعَى لَيْثًا ، ورب غيث لم يكن غيثًا (١)) . ومثل : (رب ساج لقاعد (٢)) . وهى تعتمد أحياناً على مجاز أو كناية أو تشبيه أو استعارة مستمدة من البيئة ، لتوحى بالمعنى المراد فى ثوب من الخيال ، مثل قولهم (كل فتاة بأبيها معجبة (٣)) .

(١) الفاسر ٢٠٨ أول من قال ذلك مالك بن حوف بن أبي عمرو بن حوف بن عوف بن محلم الشيباني ، وكان شيبان بن مالك بن أبي عمرو بن حوف بن محلم شام غيثاً فأراد أن يرحل بامرأته جاعة بنت حوف ، فقال له أخوها مالك : أين مظن أخفى ؟ قال : أطلب موقع هذه السحابة ، قال : لا تفعل فإنها ربما شيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك بعض مقالب العرب ، قال : لسكتي لست أخاف ذلك فغنى وعرض له مروان القرظ بن زنجاع بن جذيمة العيسى فأعجله عن زوجته ، وانطلق بها حتى جعلها بين بناته وإخوته ولم يكشف لها سترها ، فقال مالك بن حوف لشيبان : ما فعلت بأخفى ؟ قال : تفتنى عنها الترماع ، فقال مالك : رب هجلة ...

(٢) الفاسر ١٧٥ أول من قاله الثابتة الديباني ، وكان قد وفد إلى النعمان بن المنذر وفود من العرب فيهم رجل من بني عيس اسمه شقيق فأتى عنده فلما أعطى الملك الوفود بعث إلى أهل شقيق بمثل صلاه الوفاء ، فقال الثابتة حينما بلغه ذلك : رب ساج لقاعد ، وقال للنعمان :

أبقيت للميسى فضلاً ونعمة ومحمدة من باتوات الهمامد
جاء شقيق فوق أعظم قبره وما كان يحبى قبله قبر وائد
أتى أهله منه حيساء ونعمة ورب امرئ ساج لأخر قاعد

(٣) الفاسر ٢٥٣ : أول من قال ذلك العجاء بنت السمذ بن حلقة وكانت قد خرجت مع ثلاث نسوة من بني سعد فى ليلة طليقة ليتحدثن ، فأتت روضة ، فلما اطمان من المجلس أخذت فى الحديث عن أى النساء أفضل ، قالت إحداهن خير النساء الحريرة الودود الولود ، وقالت أخرى : بل خير النساء ذات الفنى ، وطيب الثنا ، وحسن الحيا ، وقالت الثالثة : خيرهن الشموع الجسوع الحصان القنوع ، وقالت الرابعة : بل خيرهن الجلمة لأهلها المانعة الرافعة الواضحة . ثم قلن : فأتى الرجال خير ؟ قالت إحداهن : أخطى الرضى القنوع خير الحظال (الشديد البيرة) ولا التبال الخفود ، وقالت الأخرى : بل خير الرجال الوطى الثمث الأخلاق النقى ، الذى يكرم الحرة ، ولا يجمع الضرة ، قالت الثالثة بل خير الرجال الفنى المقيم ، الراضى لا يظوم ، قالت الرابعة : وأيكن إن فى أبي لنتكن .

قالت العجاء : كل فتاة بأبيها معجبة .

ومثل (تجوع الحرة ولا تأكل بشيئها (١) .

وكقولهم في وصف المغرور بما يتوهم في نفسه من مزايا ومواهب .
أو بما يمتلك من أشياء يظن أنه وحده المالك لها بغير أن يقيس ما عنده .
بما عند الناس : (كل مُجْرٍ في الخلا يُسر) ، لأن الذي يجرى فرسه
وحيداً يستخدع بسرعته ، لكنه إذا سابق به غيره ربما تبين له بطؤه
وضعفه .

وكقولهم فيمن يتنصل من خالق فيه أو من وصف ثابت له فيدعي
أنه طارئ عليه ، كأن يكون جباناً ويزعم أنه تفهّم لمرض نزل به ،
أو يكون حقير النشأة فيدعي أن الدهر أخفى على مجد آبائه : (قبل
النفاس كنت مصفرة) لأن المرأة التي كانت قبل الحمل مهزولة شاحبة
تزعّم بعد الوضع أن نحولها وشحوبها من آثار النفاس .

ولقد يعتمد المثل على التشخيص ، فيضني صفات الأحياء على
الجماد ، أو يضني صفات العقلاء على غير العقلاء ، من إدراك وتعقل
ورزانة وتهور ، مثل (أحقق من رجلة) لأنها تثبت في مجرى السيل
فيقتلعها ، كأنها صاحبة رأى وإرادة واختيار ، وهي التي اختارت لنفسها
هذا المكان لتثبت فيه ، وكذلك قولهم :

(١) الفاعل ١٠٩ أي لا تهتك نفسها وتبدي من محاسنها ما ينبغي أن تحديه . أول من قال
ذلك الحارث بن سليل الأسدي ، وكان زار علقمة بن خصيفة الطائي وكان حليفاً له ، فرأى ابنته
الزبية فأعجب بها ، فقال : أتيتك خاطباً وقد يتكبح الخاطب ويدوك الطالب ويمتخ الراهب .
فقال له علقمة : أنت كفضاء كريم يقبل منك الصفر ويؤخذ منك القفو ، فأقم ننظر في أمرك
ثم انكنا إلى أمها فأخبرها ، فقالت لابنتها : أي الرجال أحب إليك ؟ السكول الجحجاج
(السيد السبع السكرم) الواصل المتاح أم الفتى الوضاح ؟ قالت : لا ، بل الفتى الوضاح ...
فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث ، فالتفتي إليها ، ثم رحسل بها إلى
قومه ، فبينما هو ذات يوم جالس بفناء قبه وهي إلى جانبته إذ أقبل شهاب من بني أسد يعتلجون ،
فختلفت ضمهدهم ثم بكث ، فقال لها : ما بيكيك ؟ قالت : مالي والشيوخ الناهضين كالفروخ ،
فقال لها : فكذلك أمك ، تجوع الحرة ولا تأكل بشيئها . .

(أكثر من حمار) و (أكيس من قشة (١)) و (أكم من الأرض).

— ٤ —

احتقن العرب بالمخطابة منذ الجاهلية ، وافتخروا ومدحوا بالبراعة
فيها ، حتى كانت الخطابة والشعر متساويين في القدر .

يقول لبيد (٢) :

ومقام ضيق فرجته ببيان ولسان وجدل

ويقول قيس بن عاصم المنقري في وصف قومه :

خطباء حين يقوم قالهم بيضُ الوجوه مصاقعُ لسن (٣)

ويرثي أوس بن حجر فضالة بن كعدة (٤) بأنه المخطيب الفذ في

مجمع القوم عند الملوك :

أم من يكون خطيب القوم إن حفلوا

عند الملوك أولى كيد وأقوال

ويقول أبو قُرْدُودَةَ الطائي في رثاء ابن عمارة الطائي (٥) إن قاتليه

قد حرموا الناس كرمه العظيم ، ومنطقة الجميل الأخاذ الذي يشبه

الثوب الموشى باليمن :

يا جفنة كلزاء الحوض قد هتموا

ومنطقاً مثل وشي اليمنة الجبره (٦)

(١) القشة : القردة الصغيرة .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٦٥ .

(٣) البيان والتبيين ١/٥٧ .

(٤) المرجع السابق ١/١٨٠ .

(٥) المرجع السابق ١/٢٢٣ .

(٦) لذاء الحوض : مصعب الدلو فيه . اليمنة : برد يني . الخيرة : يكسر الحاء وتصحها

وتصح الباء ضرب من برد اليمن منق موشى (لسان العرب مادة جبر) .

لكنهم لم يكونوا يعدون خطبهم مكتوبة ، لأن الكتابة كانت نادرة ، وإنما كانوا يفكرون في مقالهم ويحبرونه ويزينونه ثم يترسلون ، يقول الجاحظ (١) :

« كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب (٢) اقتداراً عليه ، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه ، وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاليم التدبير ومهمات الأمور ميثوه (٣) في صدورهم ، وقينوه على أنفسهم ، فإذا قومه الثقافة . . أبرزوه محكسكا منقحا ، ومصفى من الأدناس مهلباً » .

أى أنهم كانوا أحياناً يعتمدون على التحجير والتزيين والتنميق كما كان يفعل كثير من الشعراء .

ثم ازدادت الخطابة رفعة وقوة في العصر الإسلامي ، ولا شك أن كثيراً من الخطب كان يُعدُّ إعداداً فيه تأنق وتجويد وترتيب ، سواء أكان إعداداً مكتوباً أو غير مكتوب .

يدل على هذا أن عمر بن الخطاب قال إنه كان في يوم السقيفة قد زور - حبر وأعد - كلاماً ليقوله ، لكن أبا بكر استمهله وتكلم ، فلم يدع شيئاً مما كان عمر يريد أن يقول (٤) .

وكان عمر يشعر بأن لخطبة النكاح صداء ومشقة (٥) .

وروى أن عثمان بن عفان صعد المنبر فأزجج عليه فقال : إن أبا بكر

(١) البيان والتبيين ١٤/٢

(٢) المقتضب : المرتجى .

(٣) ميثوه . ذقوه .

(٤) الطبري ٢٠٠/٢

(٥) البيان والتبيين ١١٧/١ .

وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم أ
إلى إمام خطيب ، وستأتيكم المخطب على وجهها إن شاء الله (١) .

وهذا النص صريح في أن أبا بكر وعمر كانا يعدان خطبهما أو على
الأقل بعض خطبهما ، وفي أن عثمان قد فوجيء غير مستعد ، فوعدهم
بأنه سيعد خطبه لتجيء على النسق الذي يرضاه ويرتضونه .

وروى أن الخوارج طلبوا من عبدالله بن وهب الراسبي - حين ولوه
رياستهم - أن يخطب فيهم فقال : وما أنا والرأي الفطير والكلام
القضيب (٢) .

واشتهر واصل بن عطاء بأنه كان يجتنب الراه في خطبه (٣) ليخفى
لثغته ، ومعنى هذا أنه كان يُعدها ويتمهل في إعدادها .

على أن طابع الإعداد والثائق يتضح في كثير من خطب العصر
الأموي ، كخطبة زياد بالبصرة ، وخطبتي الحجاج بالكوفة والبصرة ،
وخطبة عبد الملك بعد مقتل مصعب ، وخطبة أبي حمزة الشاري بالمدينة ،
لأن هذه الخطب ونظائرها موحدة الموضوع ، مرتبة الأفكار ، بارعة
التعبير متزنة الجمل ، محلاة بسجعات لطيفة الوقع ، معتمدة على
ألوان من الخيال .

ولقد يسترعى الانتباه أن بعض الخطب تبدأ بعقلمة وثيقة الصلة
بالموضوع ، ثم يعقبها العرض ، وبه أحيانا تدليل وتفنيذ ، ثم تنتهي
بخاتمة جامعة للموضوع ، أو مثيرة للسامعين ، وهي بهذه المراحل قد

(١) المرجع السابق ١/٣٤٥ .

(٢) المرجع السابق ٢٢٥/

(٣) المرجع السابق ١/١٤

استكملت أجزاء الخطبة كلها ، كما قسمها أرسطو وغيره من المحدثين (١) .
على أنه لا يشترط في الخطبة أن تضم هذه الأجزاء كلها ، لتكون
بارعة أو كاملة ، فالمهم الموضوع نفسه ، لكن اشتغال بعض الخطب في
العصر الأموي على هذه الأجزاء يؤكد أنها معدة قبل الإلقاء .

— ٥ —

لم تكن الكتابة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى تنميق
واحتفال خاص ، لأن الغاية منها مقصورة على تبليغ المعنى من أقرب
طريق .

فلما كان عهد عمر كثرت رسائله ، وبدا في بعضها التحبير
والاحتفال ، كرسالته إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، ثم اتضح التنميق
أكثر في الرسائل الكثيرة المتبادلة بين علي ومعاوية .

وآل الأمر إلى معاوية فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل ، ثم
عريت دواوين المخراج في عهد عبد الملك ، فصارت العربية لغة
الدواوين كلها ، وكان يليها عرب خلص أو مستعربون حلقوا العربية
كسالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحيى .

وكان هؤلاء الكتاب من عرب ومستعربين فضل عظيم في النهوض
بالكتابة الفنية ، لأنهم منقطعون لها ، ولأن بقاعهم في الدواوين
موصول بمهارتهم وتجويدهم .

على أن النشر الفني لم يتمثل في الرسائل الديوانية وحدها ، بل تعداها
إلى ضرب آخر هو التأليف والتلوين .

(١) راجع كتاب (فن الخطابة) للمؤلف .

ولقد كان كثير من يملون الرسائل أو يكتبونها يتخبرون التعبير وينمقونه قبل ابن المقفع ، ومن هنا جاءت رسائلهم بليغة الصياغة ، طريفة الخيال ، كما نجد في الرسائل المتبادلة بين علي ومعاوية وبين معاوية وزباد وبين الحجاج وقطرى بن الفُجاءة .

وبدل علي هذا أيضاً أن معاوية أملى كتاباً قال فيه عن رجل :
« هو أهون علي من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة » ثم قال للكاتب :
امح من كلاب الحرة واكتب من الكلاب (١) ولعله كره هذه السجعة ، لأن كلاب الحرة ليست أكثر هواناً عليه من غيرها ، فحرصه على ذكرها يدل على أنه يتكلف السجع ويخضع له المعنى ، وهذا ليس من البلاغة الفطرية التي اشتهر العرب بها .

- ٦ -

أ : على أننا ننتعمق في التدليل ، ونتبسط في التوضيح فنعقد موازنة بين صفات النثر الفني عند عبد الحميد بن يحيى ، وصفاته في الرسائل التي كتبت في عصر بني أمية وبني مروان (٢) ، قبل أن يمخط عبد الحميد سطرأ ، فماذا نجد ؟

نجد اتفاقاً ونجد تشابهاً في الجوهر ، ولا نجد اختلافاً إلا في الشكل والمظهر .

ولقد يكون هذا الحكم في حاجة إلى تفصيل فما تفصيله ؟ .
نلاحظ أن عبد الحميد كان يطيل آناً ويوجز آناً ، مراعيماً ما يقتضيه

(١) رسائل الجاسط ٧٥

(٢) راجع أدب السيامة في العصر الأموي للولف .

المقام وما تتطلبه المناسبة ، لكنه لم يكن مبتدع هذا التنوع ، فقد كانت الرسائل قبله تطول أحياناً ، وتقصّر أحياناً ، مجارة للموضوع ، أو مراعاة للمقام .

ونجد في رسائل عبد الحميد حفاوة ببسط الأفكار ، وتوليد المعاني أو توكيدها بالترادف ، وقد سبقه إلى هذا كثير ممن أملوا رسائل في العصر الأموي ومن كتبوا بأنفسهم .

ولقد يسترعى انتباهنا في نشر عبد الحميد أنه يجنح أحياناً إلى الخيال يُفوّف به الأفكار ، ولكن هذا ليس بمجديد ، لأن في بعض الرسائل التي كتبت قبله ألواناً من الخيال لا تقل طرافة وجمالاً عن أخيلة عبد الحميد ، إن لم تفقها بهاء وأصالة .

وإذا كان عبد الحميد قد اعتمد على التأنق والتجبير وتعمد التجويد ، لأنه كاتب مختص بالكتابة ، فإن كثيراً من رسائل العصر أعدها كاتبوها أو أملوها وتأنقوا فيها ونقحوها .

ولست أنسى أن عبد الحميد كان يفصل جملة ويقطعها متساوية الطول ومتساوية القصر ، ولست أنسى أنه كان يزينها بقليل من السجع الذي لا استكراه فيه ، وأنه كان يرتب أفكاره في كثير مما يكتب ، لكنني أذكر أن هذه الصفات كلها في كثير من رسائل العصر الأموي .

بقيت بعض مظاهر شكلية تفرد بها عبد الحميد ، كتأنقه في البدء والختام ، وتنويعهما حسب المقام ، وإطالته في البدء بنوع خاص بعبارات التمجيد والثناء مكررا المعاني تارة ، ومولدا بعضها من البعض تارة ، ولكن تفرد به هذا لا ينهض دليلاً على أنه أول من كتب في

العربية نشرأ فنياً ، ولا يصح أن يموه به أحد لينفى عن العرب معرفته .
للنشر الفنى قبل عبد الحميد ، لأن الحكم ينبغى أن ينصب على الأصل
والبنية والجوهر ، لا على الشكل والحاشية والمظهر . ولأن النشر الفنى
ما كان ليفقد ميزة ذات قيمة لو أنه خلا من التأنق والإطناب فى مطالع
الرسائل وخواتمها ، وإنما كان يفقد خواصه الأصيلة لو أنه جاء خلواً
من التجديد والتنميق وتوخى الجمال والتأثير .

- ٧ -

إذن كان النشر الفنى معروفاً للعرب قبل عبد الحميد وابن المقفع ،
لأن العرب كانوا يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد
وابن المقفع ، وجعل هذا النشر الفنى يتطور ويترقى على ألسنة العرب
الذى أملاوا ، وعلى أقلام العرب الذين كتبوا ، فلما قاربت الدولة
الأموية نهايتها كان هذا النشر قد شارف نضجه ، ثم كان عبد الحميد
أول كاتب فى الديوان اشتهر بكتابته وذاع صيته ، وظهرت فى آثار
قلمه خواص من سبقوه ، ومظاهر ابتكرها ونسبت إليه ، فصار نشر
عبد الحميد وابن المقفع هو أول نشر فنى يحدث فى نفوسنا لذة ،
ونجد فى قراءته متعة .

ومعنى هذا أن النشر الفنى فى أدبنا العربى لم يكن يونانى النشأة ،
ولا فارسى المولد ، وإنما نشأ عربياً خالص العروبة كما نشأ الشعر
وكما نشأت الخطابة والحوار والأمثال .

أما الطابع الفارسى واليونانى فقد تبين فى النشر الفنى واضحاً بعد
ذلك حينما اتصل العرب بالفرس واليونان ، ونهلوا من أدب أولئك .

! وعلوم هؤلاء ، ولهذا كانت معاملة في نشر ابن المقفع ومن بعده أوضح
عنها في نشر عبد الحميد ومعاصريه .

التعقيب الرابع

التوقيعات عربية النشأة

ذهب بعض الباحثين إلى أن العرب نقلوا التوقيعات (١) عن الفرس ،
! إذ كان الفرس قد اشتهروا بها .
وهذا رأى متجنن على العرب ، لأن التوقيعات نشأت نشأة عربية
: خالصة .

(١)

وذلك لأنهم عرفوا التوقيع ومارسوه في أحسن صورته قبل أن يتصلوا
بالفرس أو غيرهم ويحاكوه في توقيعهم ، وليس ثمة فرق بين توقيعات
العرب في العصر الإسلامي وتوقيعاتهم في العصر العباسي .

(٢)

ثم إن التوقيع قائم على ما يلائم الفطرة العربية من ميل إلى
الإيجاز ، ومقدرة على البيان ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ، قلم

(١) لتوقيع معان كثيرة : ولعل معناه الاصطلاحي مأخوذ من وقعت الابل أي اطأنت
بالأرض بعد الشج والرى ، لأن السكائب الموقع يطمئن إلى تصريفه للأمر وقضائه فيه .
أو من وقع ظنه على الشيء أي قدره ، لأن الموقع يكتب رأيه بعسد تدبر .
أو من التوقيع وهو الرمز القريب والإصابة لأن الموقع يفصل في الأمر من أقرب طريق .
أو من التوقيع وهو إصابة المطر بعض الأرض وتخلفه عن بعضها فتختلف ألوانها ، لأن التوقيع
إلحاق شيء بالسكائب بعد الفراغ منه (لسان العرب مادة وقع) .

يكن العرب في حاجة إلى أن يحاكموا غيرهم^١ فيما يلائم طبائعهم أشد الملائمة .

(٣)

وقد كان الخلفاء يوجزون في توقيعاتهم على ما يرفع إليهم من شكاوى ورغبات ، لبيان رأيهم فيها ، وكانت توقيعاتهم تتراوح بين آية قرآنية ، وحديث نبوي ، ومثل سائر ، وحكمة متداولة ، وجملة موجزة من الموقع نفسه .

وتميزت بأنها في مكان معين من حاشية الرقعة المرفوعة إلى الخليفة ، وبعداد مغاير للون الكتاب .

بهذا المعنى وعلى هذه الصورة عرف العرب التوقيع منذ عهد عمر ابن الخطاب :

ثم عهدوا بالتوقيعات منذ عهد الرشيد إلى كتاب يشقون بهم ، فصار التوقيع مهنة ، وصار له رجال من ذوى المقدرة البيانية ، يقول ابن خلدون : « ومن خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان في مجالس حكمه وفصله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه ، فلما أن تصدر كذلك ، وإما أن يحلو الكاتب على مثلها في سجل يكون بيد صاحب القصة .

ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه .

واعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروعة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ،

فإنه معرضٌ للنظر في أصول العلم ، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، ومع ما يضطر إليه في الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها .

(٤)

وهذه أمثلة من توقيعات الخلفاء الراشدين :

١- كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب في بناء بيته ، فوقع عمر في أسفل الكتاب : « ابن ما يُكنك من المواجه وأذى المطر » .
ووقع إلى عمرو بن العاص : « كن لرعيثك كما تحب أن يكون لك أميرك » .

٢- رويت توقيعات عن عثمان ، منها توقيعه على شكوى قوم من عامله مروان بن الحكم : « فإن عصوك فقل إلى برىء مما تعملون » ، ومنها توقيعه على شكاية رجل شكاه إليه فقرا : « قد أمرنا لك بما يقيمك ، وليس في مال الله فضل للسرف » .

٣- ورويت توقيعات عن علي ، كتوقيعه في كتاب لابنه الحسن : « رأى الشيخ خيرٌ من جلدِ الغلام » ، وتوقيعه على كتاب لسلمان الفارسي سأل فيه عن طريقة حساب الناس يوم القيامة : « يحاسبون كما يرزقون » .

(٥)

أما توقيعات الأمويين فهي كثيرة ، منها :

١- كتب ربيعة بن صئل اليربوعي إلى معاوية يسأله أن يعينه

على بناء داره بالبصرة ، باثني عشر ألف جلد من النخل ، فوقع معاوية على رسالته بقوله :

« أدارك في البصرة أم البصرة في دارك ؟ » .

٢- وكتب الحسن بن علي إلى معاوية كتابا ، أغلظ فيه ، فوقع

معاوية عليه بقوله :

« ليت طول حلمنا عنك لا يدهو جهل غيرنا إليك » .

٣- كتب مسلم بن حُقبَة المرِّي إلى يزيد بن معاوية بما فعله بأهل

المدينة في وقعة الحرّة ، فوقع في أسفل الكتاب بقوله : « فلا تأسَ

على القوم الفاسقين » .

٤- كتب الحجاج إلى عبد الملك يشكو أهل العراق ، فكان توقيعه

على الكتاب :

« أرفق بهم ، فإنه لا يكون مع الرفق ماتكره ، ومع الخرق ماتحب » .

٥- كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بقوة عبد الرحمن

ابن الأشعث فوقع على الكتاب بقوله :

« بضغفك قوى ، وبخوفك هَلِيع » .

٦- كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع ،

فوقع سليمان بقوله : (والعاقبة للمتقين) .

٧- كتب بعض عمال عمر بن العزيز إليه ، يستأذنه في أن يرمِّ

مدينة ، فوقع عمر بقوله . « ابنها بالعدل ، ونقُ طرقها من الظلم » .

٨- وهذا النحو كثير من الخلفاء والولاة (١) .

(١) جهرة رسائل العرب ٢/٥٧٤ - ٥٩١ والنقد الفريد ٥/٢٩٣ - ٣٠٢

(٦)

فلما قامت الدولة العباسية تولى خلفاؤها وولاتها التوقيعات بتفسيهم
أول الأمر ، كما كان يفعل بنو أمية ، وكثرت التوقيعات في العصر
العباسي ، وزادت اقتنائنا .

١- فمن توقيعاتهم ما وقع به أبو العباس السفاح لعامل نظلم منه
الناس :

« وما كنت متخذ المضلين عضدا (١) » .

٢- وما وقع به أبو جعفر المنصور لأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم :
« كما تكونون يؤمر عليكم » .

٣- وما وقع به المهدي لرجل من بطانته يطلب صلة أبطأت :
« ليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

٤- وما وقع به الرشيد لعامله بخراسان : « داو جرحك لايتسع » ،
وتوقيعه بعد قتل جعفر بن يحيى البرمكي : « أنبتته الطاعة ، وحصدته
للحسبة » .

(٧)

لم يبق شك إذن في أن التوقيعات عربية المنشأ ، خالصة العروبة ،
مثلا مثل النثر الفني سواء بسواء .

الباب الثالث

آثار العرب في الفرس في الإسلام

(١)

الإسلام والحيرة

سار العرب إلى الحيرة وفارس حاملين العقيدة الإسلامية التي أنعم الله بها على البشر ، فلما دانت لهم فارس خيروا أهلها بين الإسلام والحزبية ، كما كانوا يفعلون في البلاد التي فتحوها ، فهدى الله كثيراً من الفرس إلى الإسلام ، ثم شرح صلور أكثرهم فأسلموا مختارين راضين ، وما هي إلا حقبة من الزمن حتى برح كثير منهم ومن أبنائهم في العلوم الدينية ، وصاروا من أعلامها ، كابي حنيفة والبخاري ومسلم . وبهذا ارتفع الفرس من وهلة الوثنية وما يشبهها ممثلة في الزرادشتية والمناوية والمزدكية ، إلى أوج التوحيد الخالص ، وتحرروا من النظم الاجتماعية الفاسدة إلى النظم الإسلامية السامية ، فقد كانوا يحلون بعض المحارم ، وإن ادعوا في القرون الوسطى أن عقائدهم المجوسية لم تكن تبیح لهم زواج المحارم (١) .

روى أن إسماعيل بن يسار - وكان شعوبيا - فخر على العرب

بقوله :

إِذْ تُرِبِّي بِنَاتِنَا وَتَلْسُو نَ سَفَاهَا بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد .

وكان أشعب في الساميين ، فقال له : صدقتَ والله ، أراد العرب بناتهم لغير ما أردتموهن له ، قال إسماعيل : وماذا لك ؟ قال أشعب : دفن العرب بناتهم خوفاً من العار ، وربيتموهن لتتكحوهن ، فضحك الحاضرون وود إسماعيل لو غاص في الأرض (١) .

ولقد نجم عن إسلام الفرس سمو في العقائد ، وعلو في النظم الاجتماعية ، وتحرر من أصفاد الحكم المطلق .

وقد سبق في الحديث عن الفتح الإسلامي لفارس أن الشعب كان يصطلي بنار الانقسام الديني ، فهناك زرادشتية تصطنعها النولة دينها الرسمي ، ورجالها يضطهدون ماعداها من أديان ، وهناك مانوية قائمة على أسس من الكسل وترك الزواج ليفنى العالم ، وهناك مزدكية مخربة هدامة تحض على شيوع النساء والأموال ، وإلى جانب هذه الديانات نصرانية يتعادي نساطرتها ويعاقبتها ، والدولة تضطهد النساطرة واليعاقبة في كل حرب بينها وبين الروم ، وكان هناك يهود وضابطة ظلماً قاسوا شدائد التنكيل والاضطهاد .

على أن ترف الملوك والحكام ، والحروب الكثيرة بين الدولة وجيرانها ، واستئثار الملوك بالسلطان ، اقتضى أيضاً من الأموال يتدفق على خزائن الدولة ، فكانت الضرائب المتعددة الفادحة التي أن الشعب تحمت أثقالها .

وكان الملك وراثياً استبدادياً ، يزعم أن كسرى يملك نيابة عن الله ، فلم يكن يجرؤ أحد على النجهر بسخط أو اعتراض ، على حين أن

الأكاسرة في عزلة عن الشعب الذي يدين بأنهم يتولون شؤونه بتفويض من الله ، فمن حقوقهم على الشعب أن يسمع ويطيع ، وليس عليهم حق لأحد من هؤلاء الناس .

قال تولدكه : « إن ملوك الفرس كانوا يزعمون أنهم وخدمهم أصحاب الحق في لبس التاج بما يجرى في حروقهم من دم إلهي » .

وقال براون : إن نظرية الحق الإلهي لم تُعْتَنَق كما اعتنقت في فارس في عهد ملوك آل ساسان ، ووافقهما على هذا الوصف كثير من الباحثين مثل دوزي وميار (١) .

فلما أسلم الفرس تحرروا من هذا كله ، وتخلصوا من أوهام الفساد والاستعباد ، ثم سمت نفوسهم ، وصفت أرواحهم ، وكثر فيهم المتصوفة والزهاد .

(١) أدب السيامة في العصر الأموي ٣٤

(٢)

في العلوم الدينية

سارع كثير من الفرس إلى اعتناق الإسلام منذ الفتح العربي ، وشرع كثير منهم يتعلمون اللغة العربية ، لأنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولغة الغالبين ، ففسحت اللغة العربية طريقها هنالك ، وترجم الفرس كثيراً من الكتب العربية الدينية ، وألقوا كتباً أخرى معتمدين على المصادر العربية :

ذكر المؤرخ الفارسي أبو جعفر نرشخي في كتابه (تاريخ بخارى) أن أهلها كانوا في أول العهد بالإسلام يقرأون القرآن الكريم في ترجمته الفارسية (١) .

ولا شك أن هذه الترجمة كانت تقتضي ترجمة ما يتصل بالنص القرآني من تفسير وتشريع وتاريخ ، لهذا ترجم الفرس من عهد مبكر تفسير الطبري ، ومن المرجح أن ترجمة فارسية موجزة لتفسير الطبري ظهرت في القرن الرابع بأقلام فريق من علماء خراسان ، ثم كثرت الترجمات لكتب الحديث وكتب الفقه ، وكثرت المؤلفات في العلوم الشرعية معتمدة على المصادر العربية الإسلامية :

(٣)

في التاريخ

أعجب الفرس بكتاب الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) (١) لأن الطبرى فارسى الأصل ، ولأنه ثقة فيما سجله تاريخهم القديم ، وحجة فيما سجل من تاريخ الإسلام ، فترجمه الوزير السامانى (بلعمى) فى القرن الثالث ، بعد أن حلف سلاسل السند والروايات المتعددة ، ولكنه أضاف إليه حكايات دينية وخلقية ، لأن الفرس يحرصون على أن يكون التاريخ مجالاً للعظة والإرشاد .

وقد صمد المؤرخون من العرب - بعد الطبرى - إلى النشر المسجوع ، والتعبير الحافل بالخيال والصناعة والأمثال والشواهد الشعرية ، حتى إن العتبي صرح فى كتابه (تاريخ عيون الدولة) الذى ألفه سنة ٤١٢ هـ بأنه سلك مسلك الشعراء فى تسجيل مآثر السلطان محمود الغزنوى ، وهو فى الحقيقة لم يسلك مسلك الشعراء وحدهم ، بل سلك أيضاً مسلك المؤرخين العرب بعد الطبرى .

وإذ كان الفرس يقتفون آثار العرب ، حاكياً مؤرخوهم هذا الضرب من التعبير ، فترجم الجرباذقانى كتاب (عيون الدولة) من العربية إلى الفارسية ، حريصاً على نقل الخصائص الفنية إلى لغة الفرس ، وصارت هذه الخصائص منهجاً يسلكه كثير من مؤرخيهم ، كما نجد فى كتاب التاريخ الذى ألفه شرف الدين وصاب فى القرن الثامن الهجرى .

(١) هذا هو اسم الكتاب فى طبعته الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية ويسمى فى بعض الطباعات تاريخ الرسل والملوك .

(٤)

في اللغة

فتح العرب بلاد الفرس وهم يتكلمون البهلوية (لغة المرحلة الوسطى بين لغتهم القديمة قبل فتح الإسكندر لبلادهم وبين لغتهم الحديثة التي نشأت في منتصف القرن الثالث الهجري) فلما احتكت اللغة العربية بالبهلوية صارعتها فصرعتها في الإنتاج العلمي والأدبي ، واستأثرت به أطول من قرنين ، إذ صارت لغة النابهين من أبناء الفرس إلى أن بعثوا اللغة الفارسية الحديثة محاكية للعربية ، ثم زاحمتها شيئاً فشيئاً حتى استقلت .

لكنها بعد استقلالها ما زالت مصبوغة بألوان شتى من آثار اللغة العربية وآدابها .

١- وقد درس اللغة العربية وتفوق فيها كثير من أبناء الفرس ، كابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وموسى بن سيار الذي يذكر الجاحظ أنه كان قصاصاً من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، حتى إنه كان يقعد للقصص والعرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يفسرها للفرس بالفارسية ، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين .

وكان أبو مسلم الخراساني يحفظ كثيراً من الشعر العربي ، وكان أبو سلمة المخلأل عالماً بالشعر والأخبار والجدل ، وكان البرامكة على

درجة عالية من البلاغة ، وكثيراً ما شجعوا بنى جنسهم على إجادة اللغة العربية والتفوق فيها ، ليولئهم الوظائف الكبيرة في دولة بنى العباس (١) .

٢- لهذا كان الفرس يصطنعون اللغة العربية في أول الأمر وسيلة للتأليف وبخاصة في العلوم الشرعية ، وكانت بلادهم موطناً من مواطن الأدب العربي منذ سادت العربية هناك إلى أن أغار التتار على بلادهم ، وكان الأدباء من الفرس يأتون بالأدب العربي ، ويحاكونه ، وينقلون كثيراً من كلماته وعباراته ، وما زالوا يقرأونه ويتلقونونه إلى اليوم .

ومن هنا كانت طريقتهم في تربية الملكة الأدبية لا تغاير الطريقة التي نصح بها العرب ، وهي التزود من الثقافة العامة ، والتعلمى بالبليغ الرائع من الشعر والنثر ، وإدامة النظر في القرآن والحديث .

يقول نظامى العروضى في كتابه (جهار مقالة) (٢) : ولا يبلغ كلام الكاتب درجة عالية حتى يأخذ من كل علم نصيباً ، ومن كل أستاذ نكتة ، ويسمع من كل حكيم لطيفة ، ويقتبس من كل أدب طرفة ، فينبغى أن يعتاد قراءة كلام رب العزة ، وأحاديث المصطفى ، وآثار الصحابة ، وأمثال العرب ، وكلمات العجم ، ومطالعة كتب السلف ، والنظر في صحف الخلف ، مثل ترسل الصاحب ، والصابى وقابوس ، وألغاز الحمادى وإمامى وقدامة بن جعفر ، ومقامات بديع الزمان والحريرى وحמיד ، وتوقيعات البلعمى وأحمد بن الحسن ،

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨

(٢) المقالات الأربع .

ورسائل عبد الحميد . ومن دواوين العرب ديوان المتنبي والإبيوردى
والغزّلى ، ومن شعر العجم شعر الأزرقي ومثنوي والفردوسي ... الخ .
٣- فلا غرابة في أن تدفقت الألفاظ العربية على الفرس ،
وامتلأت بها لغتهم ، ولا سيما المؤلفات العلمية والأدبية .

والملاحظ أن الألفاظ العربية في اللغة العلمية أكثر من الألفاظ
العربية في اللغة الأدبية ، وأنها في النثر أكثر منها في الشعر ؛ لأن
النثر العلمي قائم على المصطلحات العربية ، أما النثر الأدبي فوسط بين
النثر العلمي والشعر ، لكن يندر أن تتلاحق في الشعر ثلاثة أبيات ليس
فيها لفظ عربي (١) .

ولقد بلغت الألفاظ العربية في بعض الكتب الفارسية من خمسين
إلى ثمانين في كل مئة ، حتى كادت الكلمات كلها تكون عربية مرتبة
على قواعد النحو الفارسي .

ولم يقتصر الفرس على اقتباس ألفاظ كثيرة من العربية ، بل
اقتبسوا كثيراً من العبارات الكاملة ، سواء أكانت من القرآن الكريم
والحديث الشريف أم من الحكم والأمثال العربية .

على أن العربية حينما تأثرت بالفارسية لم تنقل منها إلا مفردات
كما سبق في الباب الأول .

ومن هنا يتضح أن الكلمات الفارسية في العربية قليلة جداً بالقياس
إلى الكلمات العربية في الفارسية ، وأنها قليلة أيما قلة بالنسبة إلى
الكلمات العربية الأصيلة ؛ لأن الكلمات الفارسية التي تسربت إلى
العربية في العصر الجاهلي محدودة ، ثم قوى تسربها في العصر العباسي

بخاصة ، لكن العربية كانت آتية قد نمت ونضجت ، وصارت قديرة على التعبير عن مطالب الحياة ، فليست بحاجة إلى أن تقتبس من الفارسية إلا بعض المفردات ، للدلالة على أشياء لا نظير لها عند العرب .

وقلما نقل العرب عن الفرس كلمات لها نظائر في لغتهم ، وإن فعلوا ذلك أحيانا لخفة الكلمة الفارسية على ألسنتهم مثل ورد بدلا من حَوْجَم ، وثوت بدلا من فِرْصاد ، ورياص بدلا من صَرْقان ، أو ليدلوا على معرفتهم بالفارسية ، مثل بُوْصِي بدلا من مَلَّاح ، وجَرْدَقَة بدلا من رغيْف .

ثم إن العرب نقلوا من الفارسية أسماء ، ولم ينقلوا منها حروفا ولا أفعالا ، كما نجد في المعاجم اللغوية .

وفي شفاء (الغليل) للشهاب الخفاجي دليل على أنهم كانوا يتصرفون في كثير من الأسماء الفارسية التي نقلوها ، فيخضعون نطقها لأوزانهم ، ثم يشتقون منها أفعالا وغير أفعال ، كما اشتقوا من ديوان دُون وتديون ومُدُون ومَتُون ، ومن لجسام ألجم ومُلْجَم (١) ، ومن كهريا كهرب ومن مغناطيس مَغْطَس إلخ .

٤- على أن النحو الفارسي لم يسلم من التأثير بالنحو العربي ، كحذف الفعل من بعض الجمل الفارسية ، أو تقديمه محاكاة للنحو العربي ، أو صوغ فعل مبنى للمجهول على الطريقة العربية ، أو استعمال الحال كما هو في النحو العربي (٢) .

(١) اللجام فارسي معرب . القاموس المحيط مادة لجم

(٢) الأدب المقارن ٣٤٣

(٥)

في النشر الفنى

وجد الفرس في الأدب العربى مثلهم الذى يحتلون ، ومعينهم الفياض الذى ينهلون منه ، فنقلوا من العربية إلى الفارسية كثيراً من الكتب ورسائل البلغاء ، ونصحوا بدراستها وتلوقها واحداثها ، ومن هنا تأثر نثرهم الفنى بالنشر العربى أيما تأثر .

١ - الرسائل

حاكى الفرس بلغاء الكتاب ، وظهرت هذه المحاكاة في الرسائل الديوانية والخاصة التى كتبوها على غرار رسائل عبد الحميد بن يحيى وخلفائه ، فنرى فيها احتفالا بالمقدمات وبالخواتيم ، وحرصاً على الإطناب ، وعناية بالصياغة ، وإكثاراً من الاستشهاد ، وخفاوة بالسجع والمحسنات حتى في الكتب التاريخية ، كما كان يفعل بعض مؤرخى العرب ، ويتضح هذا في كتاب (التوسل إلى التوسل) الذى ألفه وجمعه بهاء الدين محمد البغدادي في القرن السادس الهجرى .

٢ - القصص

استمد الفرس من التاريخ العربى والإسلامى ومن الشخصيات العربية والإسلامية بعض قصصهم .

(أ) فى الأدب الفارسى قصص نثرية وشعرية موضوعاتها عربية خالصة ، منها حكايات حاتم الطائى للسعدى الشيرازى ، وقصة ليلى والمجنون للنظامى والنجاشى وهاتنى ، وحكايات وتمثيلات تعرض لحلم معاوية وعدل عمر بن عبد العزيز وجور الحجاج ، ومنها القصص

الشعبية الكثيرة التي كانت السبب في ظهور المسرحية المذهبية المعروفة في الأدب الفارسي بالتهزية .

ومنها الحكايات التي تعرّض صوراً من حياة الرشيد والمأمون والتوكل .

(ب) وفيه كثير من الحكايات العربية مترجمة إلى الفارسية مثل حكايات الفرج بعد الشدة .

(ج) وإذا كان ابن المقفع قد ترجم من الفارسية إلى العربية أكثر مما نقل من العربية إلى الفارسية ، فإن الأصل الذي نقل عنه كان مفقوداً ، فترجم الفرس هذا الكتاب فيما بعد من العربية إلى الفارسية ، ترجم نشرأ في عهد الأمير نصر بن أحمد السلماي (٣٠١ - ٣٣١ هـ) ووزيره أبي الفضل البلعمي ، ثم نظمه شعرا أبو جعفر الرودكي في أوائل القرن الرابع ، وما تزال بعض قطع من هذه الترجمة متفرقة في كتب اللغة والمعاجم .

وهناك ترجمة كاملة باقية إلى اليوم هي ترجمة نظام الدين أبي المعالي نصر الله بن محمد بن عبد الحميد الكاتب التي قام بها أمثالاً لأمر بهرام شاه الغزنوي سنة ٥٣٩ هـ وجعلها باسمه ، فاشتهر الكتاب باسم (كليلة ودمنة بهرام شاه) . [] []

ويبدو في هذه الترجمة تأثر الأسلوب الفارسي بالعربي في تراكيبه المختلفة (١) .

(١) القصة في الأدب الفارسي ٣٢٠ للدكتور أمين عبد الحميد .

٣ — المقامات

كذلك حاكى الفرس العرب في فن المقامة (١) ، والمقامة فن عربي.
النشأة ، مازال يتدرج ويرقى حتى اكتمل على قلم الحريري .

(أ) وقد ذهب بعض الباحثين (٢) إلى أن كتاب العرب نقلوا فن
المقامات عن الفرس ، مستدلين بأن بديع الزمان الهمداني كان يجيد
الفارسية ، وكانت حياته في بيئة فارسية ، في وقت كانت الدولة
السامانية في خراسان وتركستان ، والبوذية بفارس والعراق ، والغزنوية
في أفغانستان تتنافس في إنهاض الأدب الفارسي وتشجيعه ، ومن هنا
استطاع بديع الزمان أن يكتب مقاماته في نيسابور .

لكن هذا الرأي يعارضه أن ابن دُرَيْد الأزدى قد سبق بديع
الزمان ، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ، إذ أنه
عاش هناك مدة ، وكان غرضه من الأريعيين حديثاً التي ابتكرها أن
يعارض بها أدب الفرس ، فهو مخترع المقامات باللغة العربية ، وإن
كانت موضوعاتها من البيئة الفارسية ، وكان بتأثير لغويته أميل إلى
الغريب (٣) .

ثم عارضه أبو الحسن أحمد بن فارس العلامة اللغوي (٤) المتوفى
سنة ٣٩٥ هـ إذ وضع مقامات حاكاها بعض الأدباء ، وقد اشتهر من

(١) المقامة في الأصل موضع القيام ، وقد استعملت للدلالة على المجلس استعمال الأضداد ،
ثم أطلقت على الحديث يقال في مجلس واحد ، ثم قصرت على نوع من الأدب معلوم .
(٢) منهم الدكتور أحمد غنيم في كتابه العصر العباسي .
(٣) زهر الآداب للحصري ١/٢٣٥ .
(٤) في معجم البلدان ٤/٨٠ أنه توفي سنة ٣٦٩ ولكن في المعجم نفسه ٤/٧٢ ، ٩٣ أنه
توفي سنة ٣٩٥ وهذا يتفق مع ما في وفيات الأعيان وإنباء الرواة ودمية القصر .

بينهم تلميذه بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ . وابن فارس
والبديع عاشا في بيئة فارسية كما عاش ابن دُرَيْد من قبل .

ثم مارس هذا الفن كثير من الكتاب ، حتى جاء الحريري المتوفى
سنة ٥١٦ هـ فأنشأ مقاماته الخمسين التي عارض فيها البديع ، وتفوق
عليه .

وحاول كثير من اللذين جاؤا بعد الحريري أن يقتفوا أثره فلم
يلحق به أحد .

والذي نستخلصه من هذه اللوحة أن المقامات فن عربي النشأة ،
وإن كان السابقون إلى اختراعه قد عاشوا في بيئة فارسية ، لأن الفرس
لم يكن نثرهم الأدبي قد نضج وازدهر في ذلك الوقت ، ولم تعرف لهم
قصص أو مقامات من هذا الطراز ليحاكيها العرب .

(ب) ولقد تأثر الأدب الفارسي بالمقامات العربية ؛ فإن حميد
الدين البلخي المتوفى سنة ٥٥٩ هـ يسير في مقاماته الفارسية على نهج
بديع الزمان والحريري ، وهو نفسه يقر بهذا في مقدمة مقدماته ، وإن
خالفهما في عدة أمور ، منها أنه لا يروي عن شخص معين كما روى
بديع الزمان عن عيسى بن هشام ، وكما روى الحريري عن الحارث
ابن همام ، وأن مقاماته لا تدور حول بطل معين كما دارت مقامات
البديع على أبي الفتح الإسكندري ، ومقامات الحريري على أبي زيد
السروجي ، وإنما تحتل شخصية المؤلف المكان الأول ، ويروي الأحداث
عن كثير من أصدقائه لم يذكر أسماءهم ، ويتعدد الأبطال في مقاماته
وتتغير أحوالهم .

(٦)

في الشعر

لم يرد شعر للفرس القدماء في لغتهم الفهلوية أو الفارسية القديمة ،
ومن المرجح أنه كان لهم شعر ، ولكنه توارى في غياهب الزمان .
وربما كان فقدان الشعر الفارسي القديم هو الذي زين لبعض
الدارسين من العرب ومن الفرس أن يعتقدوا أن الفرس القدماء لم يكن
لهم شعر .

فمثلاً قال الجاحظ : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى
من تكلم بلسان العرب ، والشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه
النقل ، ويمتدح حول تقطع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه » (١) .
وقال في موضع آخر : « في الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام
للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإثما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد
رأى ، وطول خلوة وكل شيء للعرب فإثما هو بديهة وارتجال ،
وكانه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا
استعانة وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه
أقدر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع وليس
هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قبله ... ونحن إذا
ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنشور

(١) الحيوان للجاحظ ٧٥/١

والأسجاع ، فمعنا العلم أن ذلك بهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ،
والروني العجيب ... ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي
الناس للقرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ... (١) .

وقد سبق في الباب الأول من هذا الكتاب أن محمد عوفى ذكر في
كتابه (لباب الألباب) وهو أول كتاب في تاريخ الأدب الفارسي أن
بهرام جور أول من نظم شعراً بالفارسية ، وأنه تعلم اللغة العربية والشعر
من العرب الذين نشأ بينهم في الخيرة ، وكان له شعر عربي بليغ ،
وذكر المؤلف أنه قرأ ديوان بهرام جور في مكتبة بخارى ، وحفظ
بعضه ، ونقل بعضه (٢) .

وقد أيدته في هذا العالم الفارسي شمس الدين الرازي مؤلف كتاب
المعجم (٣) .

كذلك ذكر شمس الدين الرازي في كتابه (المعجم في معانيير أشعار
العجم) أن صناعة الشعر من اختراع العرب ، وأن العجم تابعون لا
وأضعون ، وناقلون لا مستقلون (٤) .

فلما سطعت شمس الإسلام على ديار العجم واحتلظ القرس
بالعرب ، وحفظوا أشعارهم ، وعرفوا نظام بحورهم وأوزانهم وقوافيهم ،
شرحوا ينسجون على منوالهم لطائف من نتاج طباعهم (٥) ، وقد ظهر هذا
واضحاً في القرن الثالث الهجري .

(١) البيان والتبيين ٢٨/٣

(٢) قصة الأدب في العالم ٤٤٨/١ .

(٣) المرجع السابق ٤٥٠/١

(٤) المرجع السابق ٤٤٣/١

(٥) قصة الأدب في العالم ٤٤٨/١

وجما من شكك في أن الفرس كانوا شديدي الإعجاب بالشعر العربي ،
وكانوا يشونون محاكاته حتى في شعرهم اللذي ، نظموه بالفارسية فيما
بعد ، حتى إنهم نظموا ما يسمى بالملّح ، وهو القصيدة التي يعتمد فيها
الشاعر إلى نظم بيت بالعربية يليه بيت بالفارسية ، أو يفعل عكس هذا ،
مراعياً في الحالين أن تجيء الأفكار مترابطة مسلسلة كأنها بلغة واحدة .
أما الموضوعات التي طرقتها شعراء الفرس فإن بعضها محاكاة
للموضوعات التي طرقتها للعرب ، كالمديح والفيخر والهجاء والغزل والبرثاء
والوصف والحكمة .

ويتبين من الموازنة بين الموضوعات العربية والموضوعات الفارسية
أن العرب تفوقوا في الحماسة والبطولة والغيرة والحجبة والكرم
والمخاطرة وأشباهاها ، كما فاقوا في تصوير أحوال المجتمع والأسرة
ومظاهر الحضارة ، وفي الإكثار من الغزل بالمرأة وإعزازها وحمايتها
والشوق إليها ، والعفة التي تتسامى بالحب العلوي عن حاجات الجسد .
أما الفرس فإتبعوا في عدة موضوعات ، كالقصيدة والشعر
الصوفي .

١ - في المديح

اشاع في المديح العربية بدؤها بالوقوف على الأطلال ، أو بالغزل
التمهيدي ، وكان لهذا البدء الغلبة على كثير من الشعراء منذ العصر
الجاهلي إلى أوائل العصر الحديث (١) .

على أن كثيراً من قصائد المديح مبدوءة بالمديح نفسه ، أو بما
يتصل به ، وبعض مديح أبي نواس مبدوءة بوصف الخمر ومجالسها .

(١) راجع (الغزل في العصر الجليل) للمؤلف .

١- ولقد حاكى شعراء الفرس النهج العربي الشائع ، فبدأوا مدائحهم بالغزل وبكاء الأطلال ، ثم انتقلوا إلى المدح ، كما كان يفعل الشعراء العرب .

من الأمثلة على هذا أن الشاعر الفارسي (منوچهری) المتولى أوائل القرن الخامس الهجري مدح عظيماً من عظماء عصره ، فبدأ قصيدته ببكاء الظلل الذي وقف عليه ، وصور ضيق نفسه بهجر محبوبته ، ثم وصف الرحلة التي تسليها على ظهر ناقته ، ثم تصور أنه تى ركب المحبوبة وصواحبها ، فرحب بهن ، وعقر لمن ناقته ، وبعد هذا ركب هو ومحبوبته في هودج واحد ، ف شعر بأن مركبه الشريا والسماك لانجبية من النياق ، ثم تخلص من هذا كله إلى المدح .

ولا شك أن النهج العربي واضح هنا أيما وضوح ، وأن صور امرئ القيس في مطولته (قفانبك) تعلن عن نفسها في قصيدة الشاعر الفارسي .
٢- وحاكوا بعض شعراء العربية في المبالغات والإشادة بالمدوح ووصفه بالفضائل من سخاء وشجاعة وبراعة في تدبير شؤون الحكم ، بل زادوا عليهم وتجاوزوهم .

وهم في هذا يشبهون معاصريهم من شعراء العربية ، لأنهم كانوا مثل الشعراء العرب على صلة بأمراء الدويلات وولايتها ، وكان هؤلاء الأمراء يتنافسون في تقريب الشعراء والأدباء ، ويجزلون لهم العطايا والمنح ، ليشيدوا بذكراهم ، ويرفعوا من قدرهم ، ويسجلوا مآثرهم .
وقد جهر الشيخ أبو ذرعة الجرجاني بأن العطايا هي التي تلهم المدح الرائع ، إذ سأله أمير خراسان : أنتظم شعراً مثل شعر الرودكى ؟ فأجاب : إن حسن نظمي يفوق بعض شعراءه ، ولكن مثل الواجب أن

تصل الشاعر بإحسانك ، وتقدمه بعطائك ، حتى يصبح مرضيا عنه من معاصريه ، فإن الشاعر لا يظهر أمره إلا حين يصله ممدوحه بغيره وينظر إليه بعين رضاه ، ثم أنشد أبياتاً في هذا المعنى ختمها بقوله : أعطني واحداً من ألف مما نال الرودكي من عطايا الملوك يأتي شعر مثل شعره ألف مرة .

ومن مدائحهم قول أبي منصور عمارة المروزي في مدح السلطان محمود الغزنوي :

إن النور البادي على جبين الشمس منبت من كف الملك ، وإن كرمه أظهر لي كوكب السعد سهيلاً على جبیني ، ولو ذكر أحد اسمه على شواطئ دجلة لصار ماؤه عسلاً مَصْفًى ، ولاستحال طينه عسلَ وورد (١) .

ومنها قول منصور بن علي المنطقي الرازي في مدح الصاحب بن عباد .

ليت شعري هل مرض قمر السماء ؟ إنه يثن ويشكو ، وجِرمه آخذ في النقصان ، لقد كان تُرْسُ الخالقِ فِضِّي اللون ، أما الآن فقد بدا في السماء كأنه طرف الصولجان ، حتى نخيل إليك أن جواد الصاحب انطلق في الصحراء ، فألقى نعله الذهبي في كبد السماء (٢) .

ومنها قول أبي بكر محمد الخسروي السرخسي الحكيم يمدح الأمير ناصر الدولة أبا الحسن محمد بن إبراهيم :

(١) قصة الأدب الفارسي ١٦٥

(٢) المرسع السابق ١٥٥

له همة غلت حتى إنك لتحسب أن السماء من تحت كالكسرة وأن
هنته من فوق كالفتحة .

لقد صار هو القضاء ، وأعداؤه الحنر ، وفي حكم القضاء الحنر
سبيل الفناء .

وإذا كان الفلك قد سلم الأمر إليه فلا تعجب ، فإن قدم همته
مجن الفلك . وإن حلمه والطود متحدان في النسبة ، وإن الموت وبأسه
من معدن واحد ، ومكرماته بالنوع باقية حقاً ، فالنوع باق والشخص
نزول (١) .

والمبالغات بينة في هذه المدائح ونظائرها ، لأن الفرس ميالون إلى
المبالغة ، ولهذا كثرت في الشعر العربي بعد الاتصال الوثيق بالفرس
في العصر العباسي ، ثم عاد الفرس فتأثروا بما أعطوه ، وزادوا عليه .

ب — في الغزل

أما شعراء الغزل فقد أفتنوا في وصف المحبوب ، وأكثروا من
التشبيهات والمبالغات ، وكان كثفهم شديداً بوصف الطرة والشعر
المجعد ، فشبها الطرة بالمقارب ، وبالأحرف الهجائية المقوسة ، وهي
الجم والعين والنون .

كذلك أكثروا من العتاب وتصوير حال العاشق وما يعانيه من أذى
وحزن إذا هجره معشوقه .

من الغزل قول أبي شكور البلخي : نظرت من بعد لأراك قجرحت

وجعلتك المشرقة بالحسن واللاحة ، فلما نظرت إلى بعينك العلية
جرحت قلبي ، وهذا قصاص عادل ، لأن الجرح بالجرح .
وقد سبق في دراسة تأثير الفرس في الأدب العربي أن اللغة
الفارسية لا تفرق بين المذكر والمؤنث في الضمائر وأسماء الإشارة ، وإنما
يتضح المراد بالسياق ، وأن بعض الدراسات ذهبوا إلى أن العرب نقلوا
الغزل بالمذكر عن الفرس ، وسبق الرد عليهم بأن الغزل بالمذكر نشأ
نتيجة لمؤثرات اجتماعية كان لأبناء الفرس فيها النصيب الأكبر ،
فهو لم ينشأ محاكاة للأدب الفارسي ، بل نشأ بتأثير هذه العوامل ،
وبتأثير الفرس الذين عاشوا في المجتمع العربي ، وقرضوا الشعر العربي .

جـ - في الخمريات

أكثر شعراء الفرس من وصف الخمر ، وآثارها في النفس ، وجاء
في وصفهم كثير من التشبيهات الطريفة والمجاز الجديدة ، والغلو
والإغراق في المبالغة ، فهم متأثرون بالعرب ونقلوا عنهم ، لكنهم
زادوا على ما نقلوا ، وأضافوا جليداً .

من الأمثلة على هذا قول أبي شكور : إن الخمر حين يعصرها
البستان سائل مشرق أو روح مشرق ، وإن الأعمى لو رأى قطرة منها
لقال : هذه عيني ، ولو رآها الميت لقال : هذه روحي ، وإنها حين
تُصَبُّ من القنينة في الكأس تشبه الحلال ، وحين تستقر في الكأس
تشبه البدر .

ومنها قول الرودكي : إن تأثير الخمر يبلغ أعمال الخ قبح أن تغرق ،
وإنها لو سقطت قطرة منها في نهر النيل لظل التمساح ثلماً من رابحتها

مئة عام ، وإن الغزال لو شرب قطرة منها لصار أسدا عزيزا لا يكثر
بالفهد .

ويبدو أن ولعهم بالخمر راجع إلى غنى بيئتهم بالبساتين الفيحاء ،
والحدائق الغناء الحافلة بالفواكه والأزهار والثمار التي تنعصر عنها
الخمر . . .

على أن بعضهم كان يرمز بالخمر إلى المحبة الإلهية ، وهم المتصوفة
من الشعراء (١) .

د - في الشعر القصصي

تأثر الفرس بالعرب فنقلوا كثيرا من قصصهم القديمة وعصصهم
الإسلامية ، ولكنهم فاقوا العرب في شعرهم القصصي ، فطالت بعض
قصصهم ، وتداخل بعضها في بعض ، وتولد بعضها من بعض .

من قصصهم التاريخية - الشاهنامة التي نظمها الفردوسي . في نحو
خمسة وخمسين ألف بيت من البحر المتقارب والقافية المزدوجة ، في
تاريخ الفرس القدماء وأساطيرهم حتى نهاية الدولة الساسانية والفتح
العربي . . .

ومن السهل أن يلاحظ الدارس للشاهنامة أنها مصبوغة بالصبغ
الإسلامي العربي في كثير من مظاهرها ، لأن أكثر ملوكها وأبطالها من
الموحدين المؤمنين بالله واليوم الآخر ، تقضاه الله وقدره ، ولأن الصورة
التي بناها لجمشيد - في تسخير الجن في نحت الأحجار وتخمين الطين
وتشييد البناء ، وفي زكوبه متن الهواء على تخت ، وفي إثرائه العريض

وملكه الواسع - قوية الشبه بالصورة القرآنية لسليمان عليه السلام ، وهذه الصورة الفارسية ليست منقولة من التوراة ، لأن السفرين اللذين يتحدثان عن سليمان في العهد القديم ليس بهما شيء من تسخير الجن والريح ، كذلك ليس بهما شيء عن قصة المدهد مع ملكة سبأ ، وإنما نجد في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول والإصحاح التاسع من أخبار الأيام الثاني أن ملكة سبأ تسمع بسليمان فتذهب إلى أورشليم في موكب عظيم ومعها هدايا كثيرة لتمتحنه ، ثم تعود إلى بلادها .

وقد أوحى قصة المدهد هذه إلى فريد الدين العطار ملحمته الصوفية (منطق الطير) حتى إنه جعل عنوانها من قول القرآن الكريم على لسان سليمان : « يا أيها الناس علمنا منطلق الطير » (١).

وصارت قصة سليمان وتسخيره الجن على النحو الذي ورد في القرآن الكريم مَعِينًا لقصص الجن والطلاسم والقماقم في الأدب الفارسي ، كما صار المدهد شخصية قصصية لاثقل وضوحاً عن الخضر وذى القرنين (٢) .

ومن قصصهم الغرامية يوسف وزليخا للقرندوسى ، ويوسف وزليخا للجامى ، ونخسرو وشيرين (كسرى أبرويز وحظيته شيرين) وليلى والمجنون التي نظمها الشعراء نظماي ونخسرو اللهلوى والجامى ومكتبى الشيرازى ونامى (٣) .

(١) سورة النمل ١٦

(٢) القصة في الأدب الفارسي ٢٨٦

(٣) قصة الأدب في العالم ١/٤٧٣

٥ - شعر التصوف

كذلك أقبلوا على شعر التصوف ، فأكثروا من الحديث عن معرفة الخالق ومحبهه ، وعن الفناء المؤدى إلى وحدة الوجود .
وهم يلجأون إلى ألوان من التصوير ، وضروب من الحقيقة والمجاز والتصريح والكنساية والوضوح والخفاء ، كقول العطار :
« العشق نار ، والعقل دخان ، فإذا جاء العشق ولي العقل هارباً » . وقول جلال الدين الرومي : « العشق أن تنظر إلى السموات ، وتمزق كل لحظة مئة حجاب ، وأول خطواته أن تهجر الحياة » . وقول حافظ : « كم في الطريق إلى منزل ايلي من أهوال وأخطار ، شرط أول خطوة أن تكون المجنون » . . . وقول أبي سعيد : « جسمي كله ألم ، وعيني كلها دمع من أجلك ، وإنما يعاش بغير جسم في عشقتك ، لم يبق مني أثر ، فما هذا العشق ؟ صرت كلي معشوقاً ، فمن العاشق لك (١) ؟ » .

د - في بكاء الأتار

بكى بعض العرب منهم التي انتزعها منهم أعداؤهم ، وبكوا معجدهم الدائر ، في كثير من قصائدهم بالمشرق والمغرب .
وقد حاكى الفرس العرب في بكاء الأتار ، فللشاعر خاقاني المتوفى في القرن الخامس الهجري قصيدة وقف فيها بليوان كسرى ، واستلهمه الحكمة والموعظة ، وبكى معجده الفرس الدائر .

وشبيهه بهذا بكاء البلدان التي خربتها الحروب ، مثلما بكى .

(١) قصة الأدب الفارسي .

حميد الدين بلخي التوفي في القرن السادس مدينة بلخ ، وذرف اللوح على خرائبها وعلى أصلقاته ، وهو يحاكي هنا بنثره على لسان صديقه ما فعله الحريري من قبله إذ بكى على لسان أبي زيد السروجي بلذته سروج التي نحرها الصليبيون سنة ٤٩٤ هـ ، وإن كان الحريري قد بكى شعراً في المقامة الثلاثين .

ز - في الأوزان والقوافي

كذلك نشأ العروض الفارسي محاكياً للعروض العربي في دوالره وبحوره ومصطلحاته ، وإن آثر شعراء الفرس بعض الأوزان العربية ، لأنها أكثر طواعية في لغتهم ، وأقرب إلى طباعهم ، وزادوا على بعضها الآخر ، ونقصوا منه ، ولكن بعض التغيير في بعض الأوزان لا يبنى أن الشعر الفارسي قائم على أوزان عربية .

وهذا هو السبب في أن شمس الدين محمد بن قيس الرازي مؤلف كتاب (المعجم في معايير أشعار المعجم) ألفه في العروضيين معاً ، وكتبه بالعربية ، واختار أمثلة منها ومن الفارسية ، ثم لأمه بعض أدباء الفرس ، فقسم كتابه قسمين : أحدهما (المعجم في معايير أشعار العرب) ، والآخر (المعجم في معايير أشعار العجم) لكنه بعد هذا التقسيم اضطر وهو يتكلم في العروض الفارسي أن يستند إلى شرح العروض العربي ، لأن صناعة الشعر - كما قال المؤلف نفسه - من اختراع العرب ، والمعجم في كل الأبواب تابعون لاواصفون ، وناقولون لامستقلون (١) .

ونستطيع أن نلخص التعديل الذي أدخله الفرس على الأوزان العربية وعلى القافية في عدة أمور :

١- أضافوا إلى البحور الستة عشر المعروفة في الشعر العربي ثلاثة أبهر سموها الغريب والقريب والمشاكل .

٢- أطلوا بعض الأوزان ، فأجازوا في بحر الرمل - وهو في العروض العربي ستة أجزاء أو أقل - أن يكون من ثمانية أجزاء .

٣- تصرفوا في بعض الزخافات والعلل تصرفاً أدى إلى توليد أضرب مستقلة عن الأوزان العربية ، كما نجد في الرباعي .

٤- لم ينظموا إلا قليلاً في بعض البحور العربية التي أكثر منها العرب كالطويل والكامل والمديد والوافر والبسيط ، وأكثروا من النظم

على البحور التي قلل منها العرب ، كالمجتث والمضارع والمقتضب .
وهناك بحور أكثر منها الفرس والعرب على السواء كالزج والرمل والمخفيف والمتقارب .

٥- أما القافية فقد حاكوا العرب فيها ، ونقلوا عنهم مصطلحاتها ، إلا أنهم أكثروا من القافية المزدوجة وسموها المثنوى (١) ، وأكثروا من اللوبيت (٢) أي الرباعي ، وخالفوا نظام الموشحات العربية وسموها بئند (٣) .

٦- التزموا القافية في القصيدة كلها أوفى مقاطع منها .

(١) المثنوى : نسبة إلى مثنى ، أي يتفق كل شطرين في الروي ، كما نجد في الشاهنامه
(٢) دوبيت : من أربعة أشطر تتفق في الروي في الأول والثاني والرابع ، ويضرد الثالث غالباً وهو الذي انتقل إلى العربية باسم دوبيت .
(٣) البئند : منظومة مقسمة إلى أقسام في كل قسم أبيات متفقة في الروي تختم بيت مستقل يكرر بعد كل قسم ، فيسمى النظم ترجيحاً ، أو يكرر رويه فقط فيسمى النظم تركيباً ، وهو شبه الموشح العربي .

(٧)

في البلاغة

اعتمد الأدب الفارسي في نشأته على الأدب العربي ، واستظل بظله
وحاكاه فترة من الزمن طويلة .

فمن الطبيعي أن يحاكيه في ضروب بلاغته .

وقد شهد بهذه المحاكاة علماء من الفرس ، قال دولتشاه في كتابه
(تذكرة الشعراء) إن للعرب الفصاحة والبلاغة ، وإن الفرس اتبعوهم
فيها .

ويبدو هذا التأثير واضحاً في كتاب (ترجمان البلاغة) للشاعر
فرسي المعاصر للفردوسي . وفي كتاب (حنيقة السحر في دقائق الشعر)
لرشيد الدين الرطواط العمري (المتوفى سنة ٥٥١ هـ ١١٥٦ م) ، فإن في
الكتابيين محاكاة للبلاغة العربية ، وتطبيقاً لأدب الفرس عليها ،
واستشهاداً بأمثلة عربية شتى (١) .

لذا صارت التشبيهات والاستعارات والكنائيات والمجازات والمحسنات
اللفظية والمعنوية مثل العربية .

وأكثر كتاب الفرس وشعراؤهم من الحلى اللفظية والمعنوية التي
أولع بها كتاب العربية وشعراؤها منذ القرن الثالث .

ونقل الفرس أصول البلاغة العربية ومصطلحاتها ، فكانت مؤلفاتها
لاتغاير المؤلفات العربية إلا في القليل .

(١) قصة الأدب في العالم ١/٤٤٢

(٨)

في الحروف الهجائية

على أن الفرس كتبوا لغتهم — وما زالوا يكتبونها إلى اليوم —
بالحروف الهجائية العربية ، كما كان الأتراك يفعلون إلى العقد
الثالث من القرن العشرين .

ولا شك أن كتابة الفرس لغتهم بالحروف العربية كان من الوسائل
التي سهلت على اللغة العربية أن تؤثر آثارها العظيمة في اللغة الفارسية ،
لأن معرفتهم الحروف العربية سهل عليهم قراءة الكتب العربية في
اللغة والأدب والعلوم .

خاتمة المطاف

— ١ —

تبين من هذه الدراسة أن عزلة العرب عن العالم المحيط بهم في العصر الجاهلي تصوير تعوزه الصحة والدقة ، فقد كانوا على صلات بالفرس وبغيرهم ، بالجوار وبالتجارة وبالرحلات وبالغروب وبالمحالفات السياسية .

وكان اتصال العرب بالفرس في العصر الجاهلي وسيلة لتأثر العرب بهم ، وتأثيرهم فيهم ، ولكن هذا كان في نطاق ضيق محدود .

فلما أشرق الإسلام ، وفتح العرب بلاد الفرس ، تعددت وسائل الاتصال ، وتنوعت طرائق الأخذ والعطاء ، فصار تبادل التأثير والتأثر أوسع نطاقا ، وأعمق أضرارا ، وأوضح معالم ومظاهر .

— ٢ —

واستبان أن العرب أدخلوا من الفرس كثيرا ، وأعطوهم كثيرا ، بل إنهم في الإسلام أعطوا أكثر مما أدخلوا ، ونفعوا أكثر مما انتفعوا .

وليس يعيب العرب أنهم نقلوا من الفرس ، ولا ينتقص الفرس أنهم أدخلوا عن العرب ، وما يحق للعرب أن يمتنوا على الفرس بما أعطوهم ، ولا للفرس أن يمتنوا على العرب بما أولوهم .

فإن الأمم كانت وما زالت تتبادل النظم والثقافات كما تتبادل السلع والخبرات ، بل إن المعرفة تنتقل بسلطانها اللدني من صقع إلى

صقع ، ومن شعب إلى شعب ، كما تتنقل السحائب والرياح ، لاتصدها عوائق ، ولا ترددها حواجز .

وإذا كانت النظم والأفكار والثقافات المنقولة أو المنتقلة تنطوي على خير وعلى شر ، وعلى نافع وعلى ضار ، فإن الاتصال الوثيق الطويل الأجل ليس من شأنه أن يكفل الخير الخالص والنفع المحض ، وإنما ينقل من هذا ومن ذلك .

— ٣ —

على أننا لانستطيع أن نصف تأثر الأدب العربي بالفرس بأنه تطور أو تغير في الجوهر ، لأن الفرس لم يضيفوا إلى أبواب الشعر العربي جديداً سوى المشاركة في الغزل بالملذكر ، والتوسع في الغزل المكشوف ، وما يتصل بالزندقة والإلحاد ، ولا تعد هذه أنواعاً جديدة في الشعر ، فقد بقي الشعر العربي غنائياً كما كان .

وأما بناء القصيدة العربية فقد استمر بعد الاتصال بالفرس كما كان في العصر الجاهلي ، حتى إن الشعراء من أبناء الفرس اقتفوا آثار العرب ، فنظموا الشعر العربي على الأوزان العربية ، والتزموا القافية ، وحدثوا موضوعات القصيدة ، ولم يخرجوا على نظامها المألوف ، فلم يستطع أبو نواس وهو الذي سخر من يفتتحون قصائدهم بالغزل والوقوف على الأطلال أن يتحرر من الغزل في مطالع قصائده كلها ، بل بدأ بعضها بالغزل وبكاء الأطلال .

كذلك لم يستطع الكتاب من أبناء الفرس أن يصيغوا النثر العربي بصيغ فارسي ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا به على نسقه الأصيل ، وإذا كانوا قد أضافوا إلى ثروته بما نقلوه إليه من قصة وتاريخ وحكم ،

وبما أضافوه إليه من مظاهر شكلية بعضها مستملح وبعضها مستقبح ، فإن جوهره بقي عربياً لم يمسه من التعديل أو التغيير قليل ولا كثير . وقد سبق أن المقامات فن عربي النشأة ، لافارسي النشأة ، كما ذهب بعض الدارسين .

وسبق أن التوقيعات أصيلة في أدبنا العربي ، وأن النشر الفني نشأ نشأة عربية خالصة قبل أن يتصل العرب بالفرس اتصالاً أحدث آثاره في اللغة والأدب .

— ٤ —

ثم إن الفرس حينما خالطوا العرب وأثروا فيهم خلطوا عملاً صالحاً بأعمال سيئات ، فقد أضافوا إلى اللغة العربية كثيراً من المفردات ، وزادوا على الأدب العربي بعض الموضوعات ، وولدوا طرائف من المعاني والخيال ، وناقسوا العرب في المنظوم والمنثور ، وأغنوا الثقافة العربية بمئات المؤلفات في شتى العلوم ، ونقلوا إلى الإدارة والسياسة بعض النظم الجديدة وهذا حسن كله ، ولكن بعضهم كانوا معاول تخريب في صرح العروبة ، لأنهم نكبوا العرب بالشعبوية ، وقوضوا ملكهم بالثورات الانفصالية ، والدويلات المستقلة ، وجراؤهم على الزنقة ، والاستكثار من الأدب المكشوف ، والولوع بالترف ، والهيام بالجوارى والقيان والكلف بالخمر والغزل بالغلماں .

— ٥ —

أما تأثير العرب في الفرس فقد كان خيراً كله ، إذ سما بهم إلى الإسلام والتوحيد الخالص ، وزودهم بما يحمل الإسلام من خيرات إلى القلوب والعقول ، وبما يكفل من سمو في الأخلاق ونظم الاجتماع .

وأغنى لغتهم الفارسية بكلمات كثيرة جداً من العربية ، وبجمل
وعبارات كاملة ، فتأثر تركيب الجمل الفارسية بالتركيب العربى فى
بعض نسقه وأوضاعه .

ومدّ نشرهم الفنى بألوان ظهرت فيما كتبوه فى التاريخ والقصة
والمقامة والرسائل الفنية .

وهدهام إلى اقتباس أوزان الشعر العربى وقوافيه ومصطلحاته العروضية ،
وإلى محاكاة العرب فى بناء القصيدة ، وفى كثير من الموضوعات .

ثم إنه أخذهم بقواعد البلاغة العربية ومصطلحاتها ، فصارت بلاغة
الفرس محاكاة لبلاغة العرب ، وترددت فى الأدب الفارسى معان
وأخيلة عربية كثيرة .

كذلك زودهم بالحروف العربية التى كتبوا بها لغتهم ومازالوا
يكتبون .

قلم يكن عجباً أن تغلبت اللغة العربية على الفارسية ، فتوارت إلى
القرن الرابع .

وحيثما جدّ الفرس فى بعضها منذ القرن الثالث عمجزوا عن تصفيتها
من آلاف الكلمات العربية ، وعن تخليتها من الأنماط الأدبية العربية ،
ولم يستطيعوا أن يتنكروا للأوزان الشعرية والقافية وضروب البلاغة
عند العرب ، ولا أن يصطنعوا لكتابة لغتهم حروفاً غير العربية التى
مازالوا يكتبون بها لغتهم إلى اليوم .

ولقد ثبت أن العرب المخلص أنشأوا بعض العلوم لإنشاء ، وأنهم ابتكروا ابتكاراً غير مسبوق ، وأنهم ساهموا بنصيب عظيم في النهضة العلمية والثروة التأليفية على مختلف العصور .

كذلك تبين أنهم سنوا كثيراً من نظم السياسة والإدارة قبل أن ينقلوها عن الفرس أو الروم .

وهذا دليل على أن العقلية العربية ليست عقياً كما زعم بعض المستشرقين ، بل هي ذكية متفتحة ولؤود ، ودليل أيضاً على أن الفضل في ازدهار العلوم ليس مقصوراً على الأعاجم وأبنائهم كما ادعى بعض الدارسين . وهو دليل على أن الحضارة العربية لم تكن من بناء الأعاجم ، فقد كانت للعرب حضارة قبل الإسلام ، ثم خمدت جلوتها ، فلما بزغ الإسلام أضياء لم ، وغلدى قلوبهم وعقولهم ، فحفزهم حفزاً ، وساء بهم سمو ، فكانت حالهم في صدر الإسلام خيراً منها في العصر الجاهلي ، وكانت أحوالهم في العصر الأموي أرقى من أحوالهم في صدر الإسلام ، وهم حينئذ لم يكونوا قد نقلوا عن الأعاجم شيئاً ذا خطر ، ثم جاء العصر العباسي فتضافرت عوامل كثيرة على إعلاء صرح الحضارة ، منها أن العرب متأثرون بالإسلام وبنهضتهم قبل العصر العباسي ، ومنها استعدادهم الطبيعي للترقى والعلاء ، ومنها اقتباسهم من الفرس والروم واليونان وغيرهم ما وجدوا في اقتباسه خيراً لهم ولدولتهم . وأعتقد أنه قد آن لخصوم العرب أن يكفوا عن التهمم والافتراء ، فإن الحقائق تكذبهم ، والمنصفين من غير العرب يشيدون بعظمة العرب .

ولأنه لحّم على كل باحث عربي أن يجلو مفاخر قومه فيما يدرس ،
وأن يفند دعاوى الخصوم ويبطل أكاذيبهم معتمدا على الحق الذي
لا تشوبه عصبية ولا جحود .

وعلى العرب أن يتعرفوا ماضيهم العظيم في موكب التاريخ ، وأن
يشقوا بأنفسهم وبسلفهم ثقة البصير الحريص على تراثه ، المعتز بماضيه ،
المتطلع إلى مستقبل مشرق وضاء .

— ٨ —

وما من شك في أن اللغة العربية استطاعت بشرائها ومرورتها أن تتسع
لفنون الأدب وضروب العلم ، وأن تسع كل ما أدخلته عليها أبناء الفرس
والذين تأثروا بهم من العرب ، ولكنها كانت في هذا كله سليمة البناء ،
وطيئة الخصائص ، فلم تفقد شيئا من مقوماتها ، ولم تنطبع بغير
طابعها ، على حين أن الفارسية انطبعت بالطابع العربي في جوهرها وفي
مظاهرها .

وشبيه بهذا احتفاظ العربية بخصائصها حينما اتصلت بفلسفة اليونان
وعلومهم ، وحينما اتصلت بأوروبا في العصر الحديث ، فإنها أثبتت
قدرتها على الاستيعاب والنماء والتطور والثراء ، وستظل كذلك قوية
نامية إلى ما شاء الله .

المراجع

مرتبة ترميزاً مجانيًا

- ١- الآثار الباقية . البيروني ليبسك ١٨٧٨ م .
- ٢- الإثقان في علوم القرآن . السيوطي .
- ٣- الأحكام السلطانية . الماوردي . مطبعة الوطن بمصر سنة ١٢٩٨ هـ
- ٤- إخبار العلماء بأخبار الحكماء . القفطي . مطبعة ليبزج ١٣٢٠ هـ
- ٥- الأخبار الطوال . الدينوري . تحقيق فلاديمير جرجاس . مطبعة بريل ١٨٨٠ م .
- ٦- أخبار مكة . الأزرق . المطبعة الماجدية بمكة سنة ١٣٥٢ هـ ومطبعة غننغا ١٢٧٥ هـ .
- ٧- أدب السياسة في العصر الأموي . الدكتور أحمد محمد الحوفي . الطبعة الرابعة دار نهضة مصر .
- ٨- الأدب الفارسي الإسلامي . (من قصة الأدب في العالم) بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام .
- ٩- الأدب المقارن . الدكتور محمد غنيمي هلال .
- ١٠- أساس البلاغة . الزمخشري .
- ١١- أسد الغابة في معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٢٨٠ هـ .
- ١٢- الأسرة والمجتمع . الدكتور علي عبد الواحد وافي .

- ١٣- الأشربة . ابن قتيبة . مخطوط بدار الكتب ١٦٦ مجاميع .
- ١٤- الإصابة في تمييز الصحابة . ابن حجر . المطبعة الشرقية بمصر
١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م
- ١٥- الأصمعيات . تحقيق الأستاذين أحمد شاکر وعبد السلام هارون
مطبعة دار المعارف .
- ١٦- الأعلاق النفيسة . ابن رسته . مطبعة بريل بلندن ١٨٩١ م .
- ١٧- الأعلام . الزركلى . الطبعة الثانية .
- ١٨- الأغاني . الأصفهاني . طبعة دار الكتب وسامى .
- ١٩- أمالي المرتضى : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مكتبة
عيسى البابى الحلبي .
- ٢٠- إنباه الرواة . القفطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ٢١- انقصار الحضارة . برستد . ترجمة الدكتور أحمد فخري .
- ٢٢- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية .
علي بن برهان الدين الحلبي . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣١٩ هـ .
- ٢٣- أوائل الأوائل . أبو هلال العسكري . مخطوط بدار الكتب ٢٧٠٥ .
تاريخ .
- ٢٤- الأوراق . الصولى . مخطوط بدار الكتب تاريخ ٥٩٤ .
- ٢٥- أيمان العرب . النجيري . مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول
العربية في ٧٩١ (١٦٨)
- ٢٦- البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدى . تحقيق أحمد زين
والسيد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

- ٢٧- بلوغ الأرب في مآثر العرب . العطار . مطبعة الطفا بلبنان ١٣١٩ هـ .
- ٢٨- البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .
- ٢٩- التاج . الجاحظ . تحقيق أحمد زكى باشا . المطبعة الأميرية
بالقاهرة ١٣٢٢ هـ ١٩١٤ م .
- ٣٠- تاج العروس - الزبيدي - طبعة مصر ١٣٠٧ هـ -
- ٣١- تاريخ الأدب في العصر العباسي . السباعي بيوى .
- ٣٢- تاريخ الإسلام السياسي الدكتور حسن إبراهيم . الطبعة الثانية
١٩٤٧ .
- ٣٣- تاريخ الأمم والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر .
- ٣٤- تاريخ الحضارة الإسلامية . بارتولد . ترجمة الدكتور حمزة طاهر .
دار المعارف .
- ٣٥- تاريخ الخلفاء . السيوطى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٧١ هـ -
١٩٥٢ م .
- ٣٦- تاريخ الشعوب الإسلامية . بروكلمان .
- ٣٧- تاريخ العرب . فيليب حتى . ترجمة محمد مبروك نافع .
مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة .
- ٣٨- تاريخ اليعقوبى . نشرة هوتسما Hautsma
- ٣٩- تراث فارس . ترجمة الدكتور محمد كفاى وزملائه .
- ٤٠- التنبيه والإشراف . المسعودى . مطبعة الصاوى بمصر ١٣٥٧ هـ -
١٩٣٨ م .
- ٤١- جامع البيان في تفسير القرآن . الطبرى . المطبعة الأميرية .
- ٤٢- الجغرافية التاريخية الإسلامية . محمد أحمد حسونة .

- ٤٣— الجمهرة . ابن دريد .
٤٤— جمهرة أشعار العرب . القرشي . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٧ هـ .
١٩٢٦ م .
٤٥— حافظ وشوقى . الدكتور طه حسين .
٤٦— حديث الأريعاء . الدكتور طه حسين .
٤٧— الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالموثرات الأجنبية . فوق كريم .
ترجمة الدكتور مصطفى بدر .
٤٨— حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر .
٤٩— الحياة العربية من الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى .
الطبعة الرابعة . دار نهضة مصر .
٥٠— الحيوان . الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . الطبعة الأولى .
٥١— الخراج . أبو يوسف . المطبعة الأميرية ١٣٠٢ .
٥٢— الخصائص . ابن جنى . مطبعة دار الكتب .
٥٣— دائرة المعارف الإسلامية .
٥٤— ديوان ابن الرومى . نشره كامل كيلانى .
٥٥— ديوان أبى تمام . (١) تحقيق محمد محيى الدين .
(٢) مطبعة صبيح .
(٣) طبعة محمد جمال .
٥٦— ديوان أبى العتاهية .
٥٧— ديوان أبى نواس . المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ م ومطبعة
التقدم بمصر .

- ٥٨- ديوان الأعشى . نشرة رودلف جيير . مطبعة آدلف هلزهوسن
١٩٢٧ م .
- ٥٩- ديوان أمية ابن أبي الصلت . تحقيق فون سردريك شلتتهتر ١٩١١م
- ٦٠- ديوان أوس بن حجر . تحقيق رودلف جيير ١٨٩٢ م .
- ٦١- ديوان بشار بن برد . تحقيق محمد الطاهر بن عاشور .
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .
- ٦٢- ديوان البحتري . مطبعة الجوائب . بالقسطنطينية ١٣١٠ هـ .
- ٦٣- ديوان حسان بن ثابت . طبعة ليون .
- ٦٤- ديوان الخنساء (أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء) الأب
لويس شيخو اليسوعي . بيروت ١٨٩٦ م .
- ٦٥- ديوان الزمخشري . مخطوط بدار الكتب ٥٢٩ أدب .
- ٦٦- ديوان طرفة بن العبد . مطبعة برطرنند بملينة شالون ١٩٠٠ م .
- ٦٧- ديوان عبيد بن الأبرص . نشره السير تشارلس ليال .
- ٦٨- ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد .
دار المعارف بمصر .
- ٦٩- ديوان لبيد . نشره الدكتور هابر Buber . ليدن ١٨٩١ م .
- ٧٠- ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٧٩٨ أدب .
- ٧١- ديوان المتنبي بشرح البرقوقي .
- ٧٢- ديوان النابغة الذبياني . بشرح البطليومي . طبعة بيروت .
- ٧٣- رسائل البلغاء . نشرها محمد كرد علي . مطبعة البان الحجابي
١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .
- ٧٤- الرسالة . الإمام الشافعي . تحقيق أحمد شاكر .

٧٥—رسالة العشق والنساء . من مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة ساسى .
٧٦—رسالة في ذم أخلاق الكتاب . من ثلاث رسائل للجاحظ نشرها
بوشع فتكل .

٧٧—رسالة القيان . من مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة ساسى .

٧٨—روح المعاني . الألوسى .

٧٩—الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام . السهيلي . مطبعة الجمالية
بمصر ١٣٢٢ هـ - ١٩١٤ م .

٨٠—زهر الآداب . الحصرى (١) تحقيق الدكتور زكى مبارك . المطبعة
الرحمانية بمصر (٢) تحقيق على البجاوى .

٨١—الزينة . أبو حاتم الرازى . تحقيق الدكتور حسين الهمدانى .

٨٢—سيرة النبي . ابن هشام . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
مطبعة حجازى بالقاهرة . وتحقيق مصطفى السقا وزميله . مطبعة
الخطيبى .

٨٣—شرح الحماسة . المرزوقى . تحقيق عبد السلام هارون .

٨٤—شرح القصائد العشر . التبريزى .

٨٥—شرح المعلقات . الزوزنى .

٨٦—شرح نهج البلاغة . ابن أبى الحديد . مطبعة الخطيبى بمصر ١٣٢٩ هـ

٨٧—شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعى . بيروت ١٨٩٠ م

٨٨—الشعر والشعراء . ابن قتيبة (١) تحقيق أحمد شاکر . مطبعة
الخطيبى ١٣٦٤ هـ (٢) مطبعة المعاهد ١٣٥٠ هـ .

٨٩—صبح الأعشى . الفلقشندى . مطبعة دار الكتب .

٩٠—ضحى الإسلام . أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

- ٩١- طبقات الأمم . صاعد الأندلسي ، نشره الأب لويس شيخز
اليسوعي بيروت ١٩١٢ .
- ٩٢- طبقات الشعراء ، ابن سلام . تحقيق محمود شاكر ، مطبعة
دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .
- ٩٣- الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، نشره إدورد سخاو ، مطبعة بريل
بلندن ١٣٢١ هـ .
- ٩٤- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ابن خلدون ، مطبعة بولاق سنة
١٢٨٤ هـ .
- ٩٥- العرب قبل الإسلام ، جورجى زيدان .
- ٩٦- العرب والإمبراطورية العربية ، بروكلمان ، ترجمة الدكتور
نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت .
- ٩٧- عروبتنا . محمود كامل .
- ٩٨- عصر ما قبل الإسلام ، محمد مبروك نافع .
- ٩٩- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، الجزء الأول والثاني ، مطبعة لجنة
التأليف والجزء الثالث ، المطبعة العامرية الشرقية بمصر .
- ١٠٠- العمدة . ابن رشيقي ، مطبعة أمين هندية بمصر ١٣٤٤ هـ .
١٩٢٥ م .
- ١٠١- عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، مطبعة دار الكتب .
- ١٠٢- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ابن أبي أصيبعة . المطبعة
الوهبية ١٢٩٩ هـ .
- ١٠٣- الغزل في العصر الجاهلي ، الدكتور أحمد محمد الحوفي . دار
نهضة مصر بالقاهرة .

- ١٠٤- الفائق في غريب الحديث ، الزمخشري ، تحقيق علي البجاوي
ومحمد أبو الفضل إبراهيم .
- ١٠٥- الفاخر ، أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ، تحقيق
عبد العليم الطحاوي ومحمد علي التجار .
- ١٠٦- فتوح البلدان ، البلاذري ، مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٩ هـ -
١٩٠١ م .
- ١٠٧- فتوح الشام البصرى ، مطبعة بينست شن كلكتة ١٨٥٤ م .
- ١٠٨- فجر الإسلام ، أحمد أمين .
- ١٠٩- الفصل في الملل والنحل ، ابن حزم ، المطبعة الأدبية بمصر
١٣١٧ هـ .
- ١١٠- الفهرست ، ابن النديم ، ليبزج ١٨٧١ م .
- ١١١- قصة الأدب الفارسي ، حامد عبد القادر ، مطبعة لجنة البيان
العربي ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م .
- ١١٢- قصة الأدب في العالم . أحمد أمين والدكتور زكي نجيب
محمود .
- ١١٣- قصة الحضارة الفارسية ، ول ديوارنت .
- ١١٤- القصة في الأدب الفارسي ، الدكتور أمين عبد المجيد ، مطبعة
دار المعارف .
- ١١٥- الكامل . المبرد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
- ١١٦- الكامل في التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .
- ١١٧- الكشاف . الزمخشري .
- ١١٨- لسان العرب . ابن منظور .

- ١١٩- لسان الميزان . ابن حجر . حيدر آباد .
١٢٠- المبسوط . السرخسى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .
١٢١- مجلة المجمع اللغوى .
١٢٢- مجمع الأمثال . الميدانى المطبعة البهية المصرية ١٣٤٢ هـ .
١٢٣- المحبر . ابن حبيب . مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد
١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
١٢٤- المختصر فى أخبار البشر . أبو الفدا . المطبعة الحسينية المصرية
١٣٢٥ هـ .
١٢٥- المرأة فى الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوقى الطبعة
الثانية مطبعة دار الكتاب العربى .
١٢٦- مروج الذهب . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ .
١٢٧- مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . أوليرى . ترجمة الدكتور
تمام حسان .
١٢٨- المسالك والممالك . ابن حوقل . مطبعة بريل بلندن ١٨٧٢ م .
١٢٩- مسالك الممالك . الإصطخرى . ليدن ١٩٢٧ م .
١٣٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .
١٣١- المعارف . ابن قتيبة ، المطبعة العامرة الشرقية بمصر ١٣٠٠ هـ .
١٣٢- المعالى الكبير . ابن قتيبة .
١٣٣- معجم الأدياء . ياقوت . طبة الدكتور فريد رفاصى .
١٣٤- معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .
١٣٥- معجم الشعراء - المرزبانى . نشره الدكتور سالم الكرنوى . مكتبة
المقنس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ .

- ١٣٦— معجم ما استعجم : البكرى . تحقيق مصطفى السقا . مطبعة
لجنة التأليف ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م
- ١٣٧— العرب . الجواليقي . تحقيق محمود شاكر .
- ١٣٨— المغازى . الواقدي . طبعة كلكتا بالهند ١٨٥٦ م .
- ١٣٩— المفضليات . الضبي . تحقيق عبد السلام هارون ومحمود شاكر .
- ١٤٠— مقامات بديع الزمان الهمذاني .
- ١٤١— مقامات الحريري (شرح الشريشي) المطبعة النيرية بمصر
١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م .
- ١٤٢— مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي .
مطبعة لجنة البيان العربي .
- ١٤٣— مقدمة خدابخش لكتاب الحضارة الإسلامية . فون كريم .
ترجمة الدكتور مصطفى بدر .
- ١٤٤— مقدمة المفصل . الزمخشري .
- ١٤٥— الملاحى . الفضل بن سلمة النحوى . مخطوط بدار الكتب
بالقاهرة ٥٣٣ - فنون جميلة .
- ١٤٦— الملل والنحل . الشهر ستاني . تحقيق محمد فتح الله بدران .
- ١٤٧— من حديث الشعر والنثر . الدكتور طه حسين .
- ١٤٨— النظم الإسلامية ، الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور علي
إبراهيم حسن الطبعة الثالثة ١٩٦٢ .
- ١٤٩— المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل . المرتضى . حيد آباد
الدكن الهند ١٣١٦ هـ .
- ١٥٠— الموشح . المرزبانى . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ .

- ١٥١- المؤلف والمختلف . الأمدى . مكتبة المقدسى بالقاهرة ١٣٥٤ هـ
- ١٥٢- النشر الفنى فى القرن الرابع . الدكتور زكى مبارك . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .
- ١٥٣- النقود العربية . الأب أنستاس مارى الكرملى .
- ١٥٤- نهاية الأرب . النويرى . طبعة دار الكتب .
- ١٥٥- نوابغ الكلم . الزمخشري . الطبعة الأولى بمصر ١٣٤١ هـ - ١٩١٤ م .
- ١٥٦- النوادر . القالى . مطبعة دارالكتب .
- ١٥٧- نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام هارون .
- ١٥٨- الوزراء والكتاب . الجهشيارى . تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبي .
- ١٥٩- وفيات الأعيان . ابن خلكان .
(أ) مطبعة بولاق .
- (ب) وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ م .

مراجع أجنبية

- ١٦٠ - سياسة نامه . نظام الملك . طهران ٣١٠ هجرى شمسى .
- ١٦١ - فرهنگ نفيسى . محمد على نفيسى .
- A, History of Arabian Music. Farmer. - ١٦٢
- Literary History of Persia, Browne - London. 1906, - ١٦٣

كتب مطبوعة للمؤلف

١ - وطنية شوقي :

دراسة مفصلة للوطنية في شعر شوقي ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي ، وعلى موازونات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه وموقفهم من الخلافة الإسلامية

٢ - الإسلام في شعر شوقي :

دراسة لتدين شوقي ، ومظاهره في شعره ، من إيمان بالله ، ومدائح للنبي ، وإشادة بخصائص الإسلام ، ودفاع عنه ، ودراسة لنزعة في تأييد الخلافة مع دراسة فنية لهذا الشعر الديني .

٣ - النسب في شعر شوقي :

دراسة لغزل شوقي من حيث بواعثه ، وخصائصه الفنية .

٤ - الفكاهة في الأدب :

دراسة للفكاهة ولأصولها ، وتقسيمها أنواعاً طبقاً للبواعث النفسية ، وعرض مفصل لدلالاتها الاجتماعية والسياسية واللغوية ، ونماذج فكاهة لبعض الشخصيات .

٥ - أدب السياسة في العصر الأموي :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومداهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعراً وخطابة وحواراً وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازونات بين بعضه وبعض ، ويعرض للعصية القبلية والحنسية وأثرهما في السياسة وفي الشعر ، وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٦ - أبوحيان التوحيدي :

دراسة لعصره السياسي والعلمي والأدبي ، وعرض لحياته وثقافته ، ولصلاتته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنة بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — البطولة والأبطال :

عرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، وعرض لصور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، ولبعض أبطال مصر الحديثة :

٨ — سوسن :

قصة قصيرة سامية العرض نبيلة الهدف :

٩ — مع ابن مخلدون :

عرض لأرائه في التربية وفي علم الاجتماع وبخاصة التي لم يعرض لها الدارسون ، ودراسة جديدة لأدبه من شعر ونثر .

١٠ — الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله وبواعثه وأنواعه ، وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية وفي الإسلام :

١١ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانتها في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع ، أما وزوجة وبتاً وأختاً وقريبة . ودراسة للمرأة في الحياة العامة في السلم وفي الحرب ، ولثقافتها وصناعاتها . ودراسة للمرأة في الحياة الفنية من حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، ومن حيث أثرها في الغناء .

ودراسة لشاعريتها وفنون شعرها وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين

النساء المعاصرات لها في العالم القديم .

١٢ — أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي :

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وأحجار ، وظواهر في الجو والأرض ، واستنباط الخصائص العامة في تناول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصداء البيئة في موضوعات الشعر وفي أخيلة الشعراء وفنهم .

١٣ — تيارات ثقافية بين العرب والفرس :

يتناول الصلات بين العرب والفرس في الجاهلية وفي الإسلام ، وأثرها في كل من الشعبين من حيث العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب ، ويوضح أن العرب أخذوا من الفرس ولكنهم أعطوها أكثر مما أخذوا .

١٤ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي :

بحوث تمهيدية شتى ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره للحياة الاجتماعية والدينية والعادات والمعتقدات ولسلات العرب بغيرهم من الأمم .

١٥ — المثل السائر لابن الأثير : (أربعة أجزاء) :

تقديم وتحقيق وتعليق (بالاشتراك) .

١٦ — الطبري :

دراسة لعصره وبيئته وحياته ومصادر ثقافته وألوانها ، وتعريف بتلاميذه ومؤلفاته ، وتحليل لشخصيته ومناهجه في التفسير والتاريخ والفقه .

١٧ — الجاحظ :

دراسة لعصره وحياته ومعالم شخصيته ومؤلفاته وخصائصه الفنية ، وتحليل لبعض كتبه .

١٨ — الزمخشري :

دراسة لعصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ومنهجه في كتاب التفسير ، وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية ونحوية وبلاغية ، ودراسة لجهوده في ميادين اللغة وغيرها ، وتحليل لشره ولشعره .

١٩ — فن الخطابة :

دراسة فنية للخطيب واعدته وصفاته وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة وأنواعها وأصولها وأسلوبها وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة للخطابة السياسية في العصر الأموي :

٢٠ — من أخلاق النبي :
عرض للأخلاق الإسلامية ، وموازنة بين المذهب الإسلامي والنظريات
الفلسفية تكشف عن سمو المذهب الإسلامي :
ودراسة لبعض أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام كما تجلت في أقواله
وسلوكه .

٢١ — الجهاد :
دراسة للجهاد من حيث معناه ، وحكمه ، وأنواعه ، وعلته ، وجزأؤه ،
ونتأجه ، وتعقيب بصور من شخصيات مجاهدة .

٢٢ — سماحة الإسلام :
تحليل لسماحة الإسلام في مناح شتى من تشريعه ، ومن معاملته لمخالفيه ،
معتمدة على النصوص والتشريع والتطبيق العملي ، مع موازنات بين الإسلام
وسواه من أديان وقوانين وفلسفات .

٢٣ — تحت راية الإسلام :
بحوث شتى في الدفاع عن الإسلام ، وفي الإشادة بألوان من حضارته
وتعاليمه وثقافته :

٢٤ — القومية العربية في الشعر الحديث :
دراسة لدعائم القومية العربية ، وعرض للشعر الذي أثر فيها ، وتأثر
بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح لجهود مصر
قديماً وحديثاً في مجال العروبة :

٢٥ — مع القرآن الكريم (الجزء الأول) :
بحوث شتى في التدليل العقلي على أن القرآن الكريم من عند الله ، وفي
بيان إعجازته ، ونوع أسلوبه ، وحضه على العلم وعلى الفكر ، وفي
توضيح الغرض من القسم فيه ، وفي بيان الثواب العاجل والعقاب الواقع ،
وبيان أثره في الأدب شعراً ونثراً الخ :

٢٦ - مع القرآن الكريم (الجزء الثاني) :

بحوث شتى تعرض أثر القرآن الكريم في اللغة ، وتبين ألواناً من إيجاز الخلف فيه ، وتنقن أن به حروفاً وكلمات زائدة ، وتبين معنى الأسمى والأمين فيه ، وتدرس الضلال والهدى والتقدير والحرية والجزاء والعمل ، وتوضح أكاذيب اليهود على الله وعلى رسوله كما توضح أسماء يوم القيامة الخ .

٢٧ - حصاد القسطنطينية :

مقالات وبحوث نشرت بالمجلات في مصر وفي العالم العربي .

٢٨ - بلاغة الإمام علي :

دراسة أساسها نهج البلاغة بين القبول والرفض ، وخصائص الإمام علي في خطابه وكتابه .

٢٩ - ديوان شوقي :

توثيق وتبويب وشرح وتكملة لديوان أمير الشعر أحمد شوقي..

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٥٥٣ / ٧٨

الترقيم الدولي ١ - ١١٥ - ٢٨٦ - ٩٧٧ ISBN

مطبعة نهضة مصر

الجيزة - القاهرة

صفحة	مقدمة
٣

الباب الأول - في العصر الجاهلي

٢٥ - ٥	الفصل الأول - عوامل الاتصال
١٠ - ٥	أولاً - قبل إمارة الخيرة
١٤ - ١١	ثانياً - إمارة الخيرة
١٩ - ١٥	ثالثاً - الفرس باليمن
٢٣ - ٢٠	رابعاً - التجارة
٢٥ - ٢٤	خامساً - صلات أخرى
٧٨ - ٢٦	الفصل الثاني - آثار الفرس في العرب
٤٠ - ٢٦	(١) أثر الديانة الفارسية
٤٩ - ٤١	(٢) أثر الفرس في الحرب
٥٧ - ٤٩	(٣) أثر الفرس في اللغة العربية
٦٠ - ٥٧	(٤) أثر الفرس في القصص والخيال
٧٨ - ٦١	(٥) أثر الفرس في الملامح والترف

الفصل الثالث - أثر العرب في الفرس

الباب الثاني - في الإسلام

٩٧ - ٨٣	الفصل الأول - عوامل الاتصال
٨٥ - ٨٣	(١) في مشرق النبوة
٩٨ - ٨٥	(٢) فتح فارس
	ضعف الفرس قبيل الفتح . سير الفتح . آثار الفتح . إقبال
	الفرس على الإسلام . إقبالهم على اللغة العربية . خضوعهم
	للحكيم العربي . التمازج . مؤازرة الفرس للعباسيين . إشادة
	العباسيين بهم . مؤازرتهم للمأمون على الأمين .
١١٠ - ٩٨	الفصل الثاني - آثار الفرس في الإدارة والسياسة
٩٨ - ٥٥	(١) غلبة الصبغة العربية أول الأمر
٩٩	(٢) السوزراء
١٠٤	(٣) بيوت للإذن

صفحة	
١٠٥	(٤) المنجسون
١٠٦	(٥) البريد
١١٠	(٦) السياف
١٢٦-١١١	الفصل الثالث - آثار الفرس في العادات
١١١	(١) الثيروز والمهرجان
١١٤	(٢) السرف
١٢٠	(٣) كثرة الحوارى
١٢٠	(٤) نظام الغناء والقيان
١٢٥	(٥) الكلف بالخمير
١٢٥	(٦) الكلف بالغلطان
١٢٦	(٧) تنوع الأزياء
١٤٢-١٢٧	الفصل الرابع - آثار الفرس في الزندقة
١٣١	(١) الزندقة في العقيدة
١٣٦	(٢) الزندقة الشكلية
١٣٨	تعقيب
١٧٥-١٤٣	الفصل الخامس - آثار الفرس في الشعوبية
١٤٣	(١) تمهيد
١٤٨	(٢) أصداء الشعوبية في العصر الأموى
١٥١	(٣) أصدائها في العصر العباسى
١٥٣	فخر شعراء الفرس وتهجمهم على العرب
١٥٦	مؤلفات الفرس في التهجم على العرب
١٥٨	اختلافهم أفاضيل وأحاديث نبوية
١٦٠	ادعائهم التوحيد وتقديس الكعبة
١٦٢	المناصب الكبيرة
١٦٣	الثورات الانفصالية
١٦٨	ردود العرب على الشعوبية
١٧٤	عاقبة الصراع
١٧٦-١٨١	الفصل السادس - آثار الفرس في مفردات اللغة

صفحة	
١٨٥-١٨٢	الفصل السابع - آثار الفرس في العلوم والتأليف
٢٠٤-١٨٦	الفصل الثامن - آثار الفرس في النثر الفني
١٨٦	إقبال الفرس على اللغة والأدب
١٨٨	مظاهره في النثر الفني
١٨٨	(١) القصص
١٩٢	(٤) الحكم والأخلاق
١٩٩	(٣) الكلف بالمحسنات
٢١٩-٢٠٥	الفصل التاسع - آثار الفرس في الشعر
٢٠٦	(١) التوسيع في الغزل المكشوف
٢٠٨	(٢) الغزل بالمدح
٢١٣	(٣) التوسيع في الخمريات
٢١٥	(٤) ميمان وأخيلة
٢١٧	(٥) الكلف بالمحسنات
٢٧٥-٢٢٠	الفصل العاشر - تعقيبات
٢٢٠	(١) شروينجر
٢٢٧	(٢) قضية العلوم بين العرب والفرس
٢٥٨	(٣) النثر الفني عربى النشأة
٢٧١	(٤) التوقيعات عربية النشأة
	الباب الثالث
٣٠٢-٢٧٦	آثار العرب في الفرس في الإسلام
٢٧٦	(١) الإسلام والحرية
٢٧٩	(٢) في العلوم الدينية
٢٨٠	(٣) في التاريخ
٢٨١	(٤) في اللغة
٢٨٥	(٥) في النثر الفني
٢٨٩	(٦) في الشعر
٣٠١	(٧) في البسلاخة
٣٠٢	(٨) في الحروف الهجائية
٣٠٨-٣٠٣	خاتمة المطاف
٣٢٠-٣٠٩	المراجع
٣٢٥-٣٢١	كتب مطبوعة للمؤلف

To: www.al-mostafa.com